عظماء مجهولون

دار ابن كثير

عظماء مجهولون

٢

تجد عددا من قصص الصحابة رضوان الله عليهم
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي

رضي الله عنه

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

ابن عمة رسول الله

ابو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه

كانت فاطمة بنت عمرو المخزومية تحت عبد المطلب بن هاشم بين النساء اللواتي تزوجهن ، فولدت منه ثلاثة ذكور ، وهم : عبد مناف[1] والزبير[2] وعبد الله[3] كما أنجبت له خمس بنات هن أميمة[4] وأروى[5] وبرة[6] وعاتكة[7] وأم حكيم البيضاء[8]

---

١ ـ عبد مناف : ويكنى بأبي طالب ، وقد غلبت كنيته على اسمه .

٢ ـ الزبير : عم رسول الله وشقيق أبيه ، تزوج عاتكة بنت أبي وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي ، وكان له منها عبد الله الذي اسلم وثبت مع رسول الله يوم حنين واستشهد في أجنادين .

٣ ـ عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤ ـ اميمة : كانت تحت جحش بن رئاب وقد اسلم أولادها جميعا عبد الله وعبيد الله وعبد (ابو احمد) وزينب وحمنة وأم حبيبة ثم ارتد عبيد الله في الحبشة .

٥ ـ اروى : كانت تحت عمير بن وهب بن عبد قصي فولدت له طليبا ، ثم خلف عليها كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي .

٦ ـ برة : وكانت عند ابي رهم بن عبد العزى العامري ، ثم خلفه عليها بعده عبد الاسد بن هلال المخزومي .

٧ ـ عاتكة : وكانت تحت ابي امية بن المغيرة فولدت له عبد الله وزهيراً .

٨ ـ ام حكيم البيضاء : وكانت عند كريز بن ربيعة فولدت له (اروى) ام عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وجرت عادة النساء أن يرغبن في زواج بناتهن من أبناء خؤولتهن أو أبناء خالاتهن ، وإن لم يكن ذلك فمن أبناء عشيرتهن ونرى هذا بوضوح في الحياة القبلية وبخاصة اذا كانت قبيلة الزوجة ذات مكانة وذلك لتجعل لابنتها مركزاً أو لتزيد في قوة عشيرتها إذا كان أصل ابنتها في مركز السيادة . على حين أن الرجال يرغبون في زواج بناتهم من أبناء عمومتهن ، وفي كثير من الاحيان ـ وفي الحياة القبلية بشكل خاص ـ من أبناء العشيرة ذات القوة والنفوذ ليتخذ من ذلك الزواج رباطاً بين الاسر يكون له فيه مركز الزعامة والسيطرة وإذا كانت شخصية عبد المطلب تحول دون سيطرة الزوجة عليه أو أن الحياة القبلية تقضي أن يكون مركز الرجل هو القوي ويضعف بقوته مركز المرأة مهما كانت ذات شخصية وجمال ، الا أن فاطمة بنت عمرو استطاعت أن يكون لأسرتها بني مخزوم ابنتان من بناتها وهما : برة وعاتكة ابنتا عبد المطلب ، أو أن عبد المطلب نفسه قد رغب في هذا الزواج لمكانة بني مخزوم في بطون قريش .

تزوج عبد الأسد بن هلال المخزومي (برّة) بنت عبد المطلب على حين كانت عاتكة تحت ابن عمه أبي أمية[10] ابن المغيرة ، ومضت

---

٩ ـ صفية : امها هالة بنت أهيب من بني زهرة ، وهي ابنة عم آمنة بنت وهب أم رسول الله ، كما انها انجبت حمزة بن عبد المطلب فصفية وحمزة من أم واحدة هي هالة .

١٠ ـ ابو امية : احد اجواد العرب ، وقد سمي « زاد الركب »

الأيام سراعاً ، وانجبت الاختان ، فكان من أولاد برّة عبد الله وكان من اولاد عاتكة عبد الله وزهير . وكان تحت أبي أمية بن المغيرة زوجة ثانية تسمى (عاتكة) أيضاً ، وهي عاتكة بنت عامر بن أبي ربيعة ، وكان من بنات عاتكة بنت عامر (هند) وكان الزواج بين عبد الله بن عبد الاسد وهند بنت أبي أمية ، وكان زواجاً مباركاً مبنياً على التفاهم ، ورزقهما الله غلاماً عرف باسم (سلمة) ، فكان موضع حبهما ، وكان أحب أنجالهما . وكنيا به حتى نسي التاريخ اسمهما فلم يذكرهما إلا بكنيتهما .

وبُعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأسرّ دعوته في أول أمره فآمن به من آمن ، وكان ابن عمته (أبو سلمة) عاشر رجل دان بدين الحق[11] ، فكان إذن من السابقين الأولين إلى الاسلام ، وتبعه من عشيرته الأرقم بن أبي الأرقم[12] .

لانه كان إذا سافر لا يترك رفاقه في السفر يحملون زاداً معهم ، بل يكفيهم من زاده الموفور .

١١ ـ أسلم قبل أبي سلمة : علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وأبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف .

١٢ ـ الأرقم بن أبي الأرقم : الارقم بن عبد مناف بن أسد المخزومي ، كانت داره مقر الدعوة للاسلام ، شهد الأرقم المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يهاجر الى الحبشة ، توفي عام ٥٥ هـ في المدينة .

وقفت عشيرة بني مخزوم برؤسائها ضد هذه الدعوة ، حيث خافوا على مصالحهم ، ورأوا فيها خطراً على نفوذهم وسيطرتهم ، فبذلوا كل ما يمكن أن يبذلوه في سبيل ابعاد الناس عن الاسلام ، ووأد الدعوة في مهدها . وبسبب هذا العناد كانت الآيات التي نزلت بحق زعماء هذه القبيلة أكثر من الآيات الأخرى التي نزلت بحق زعماء بقية البطون القرشية الذين عادوا الدعوة ، ووهبوا وقتهم وإمكاناتهم كافة بل وحياتهم في سبيل الوقوف أمام الحق المبين ، فكانت عاقبتهم أنهم في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ، فضلاً عما لحق بهم من خزي وعار وقتل بأيدي المؤمنين في الحياة الدنيا[١٣] .

---

(١٣) من زعماء بني مخزوم : الوليد بن المغيرة ؛ ابو خالد بن الوليد ، وقد وقف في وجه الدعوة موقفا عنيداً وقد نزل في حقه « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع ان ازيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، ساصليه سقر ، وما ادراك ما سقر ؟ ، لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر » المدثر . كما ان بعض الروايات تذكر ان الوليد هذا هو الذي نزلت في حقه « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، ان كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين ، سنسمه على الخرطوم » (القلم) . =

لكن هذا العنت من هذه العشيرة ، وذلك الاضطهاد اللذين أصابا المستضعفين والموالي فيها على أيدي كبرائها لم يمنعا نفرا غير قليل من أبنائها من اعتناق الاسلام وفيهم المقربون إلى اولئك الزعماء المتغطرسين والقادة المتكبرين المتعنتين .

وفي ليلة من الليالي دخل أبو جهل حي عشيرته بني مخزوم،فإذا به صامت على غير عادة ، هادىء على غير المألوف ، وإذا بهذا الصمت يخفي تحته جوانب العار ، على حد زعم الجاهليين ، العار الذي لحق بالعشيرة من جراء إيمان أفراد منهم ، وكان هذا قد أصاب العشيرة في الصميم فأوهن جانباً كبيراً من عنفوانها وكبريائها وعنتها ، ورأى كبراؤها وساداتها أقرب الناس إليهم رحما يعتنقون الاسلام . وليس اعتناق الاسلام ـ وحده ـ هو المهم وإنما مغادرة هؤلاء المسلمين البلاد متجهين نحو الحبشة فراراً بدينهم خوفاً من أن يفتنهم قومهم . فروا لايهتمون بالعشيرة ولا بأهلهم فليس لهذا قيمة أمام العقيدة . فقد أصبح لهم أهل غير أهليهم وعشيرة غير عشيرتهم . لقد أصبح المسلمون لهم أهلاً من أية عشيرة ومن أية طبقة هم .وأصبح الاسلام هو الرابطة التي تجمع بين القلوب ،وقد

ـ ومن زعمائهم عمرو بن هشام (أبو جهل) وقد نزل في حقه « كلا لئن يتنه لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لاتطعه واسجد واقترب » (العلق) . وهذه الآيات كلها من أوائل التنزيل ومن أكثر ما فيه من أنواع التهديد والوعيد .

معروفة آنذاك والتي لاتزال معروفة وستبقى كذلك .

لقد هاجر من بني مخزوم أبو سلمة ومعه زوجه أم سلمة ، وشماس بن عثمان بن الشريد[١٤] ، وهبار[١٥] بن سفيان بن عبد الأسد ، وأخوه عبد الله[١٦] بن سفيان ، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وسلمة[١٨] بن هشام ،وعياش[١٩] بن أبي ربيعة بن المغيرة.

لقد كانت الهجرة صفعة لوجه كل جاهلي،وهزة قوية لفكر كل متعنت إن كان له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد ، وإذا بهم يدركون أن هذه الدعوة غير ماكانوا يتصورون .

هاجر هؤلاء جميعاً لايلوون على شيء ولايفكرون الا في الذي هاجروا من أجله .لقد هاجروا في أرض موحشة فكانت أمامهم ذلولاً ، وكانت مقفرة ولكن نفوسهم أينعت فيها ، لقد شعروا بأن

---

١٤ ـ شماس : واسمه عثمان بن عثمان ، وهو إضافة إلى كونه من بني مخزوم هو ابن اخت عتبة بن ربيعة احد رؤوس الشرك.

١٥ ـ هبّار : هو ابن اخي ابي سلمة .

١٦ ـ عبد الله : هو اخو هبّار وابن اخي ابي سلمة ايضا .

١٧ ـ هشام بن ابي حذيفة : هو ابن اخي الوليدبن المغيرة احد رؤوس الكفر ، واكبر زعيم في بني مخزوم .

١٨ ـ سلمة : هو اخو ابي جهل احد زعماء بني مخزوم،وواحد من الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل .

١٩ ـ عياش : ابن اخي الوليد بن المغيرة ، واخو ابي جهل لامه .

رعاية الله كانت تكلؤهم ، فقد كانوا يحسون بأن العناية الإلهية تحيط بهم حيث اتجهوا وكأنها ظلة فوقهم .

وصل هؤلاء المهاجرون الى الحبشة ، وقضوا فيها ثلاثة أشهر لم تطب لهم الحياة فيها ، فعادوا ، ولكنهم لم يلبثوا أن رجعوا بعد أن أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أجبرت قريش بني هاشم وبني المطلب على الحياة في شعب أبي طالب حتى يسلموا محمداً صلى الله عليه وسلم ، عادوا وقد استسهلوا الطريق ، واستعذبوا المر في سبيل الله . وكان السير في الطريق يحلو لهم حيث يرون رعاية الله وعنايته ترفرفان فوقهم ، وكأنهم ينظرون اليها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم ، وبقيت هذه الذكرى ماثلة أمامهم طوال حياتهم ، وتحمل أجمل المعاني .

وبعد حياة قصيرة قضوها في الحبشة وصلتهم أخبار طيبة عن المسلمين في مكة فعاد منهم من عاد ، وبقي عدد آخر مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه . وكان أبو سلمة من الذين عادوا الى مكة ولكن لم يستطع مهاجر أن يدخلها إلا مستخفياً أو في جوار أحد ، ولقد دخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب . قال ابن اسحاق : أما أبو سلمة بن عبد الأسد ، فحدثني أبي اسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة أنه حدثه : أن أبا سلمة لما استجار بأبي طالب : مشى إليه رجال من بني مخزوم ، فقالوا له : ياأبا طالب ، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : إنه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع

لقد أكثرتم على هذا الشيخ ،ماتزالون توثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه في كل ماقام فيه ، حتى يبلغ ماأراد . قال : قالوا : بل ننصرف عما تكـره ياأبا عتبة[٢٠] ، وكان لهم ولياً وناصراً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبقوا على ذلك،فطمع فيه أبوطالب حين سمعه يقول مايقول ،ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢١] ولكن « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً[٢٢] » .

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في كل موسم ، فالتقى ببعض أهل يثرب في أحد المواسم فأسلموا . ولما اشتد أذى قريش على أبي سلمة ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج الى المدينة مهاجراً ، وكان ذلك قبل بيعة العقبة بعام وبهذا يكون أبو سلمة أول من هاجر الى المدينة . وقد روى ابـن اسحاق عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت « لما أجمع أبوسلمة على الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيره ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه ، فقالوا : هـذه نفسك غلبتنا عليها ،

---

٢٠ ــ ابو عتبة كنية ابي لهب ، وقد سمي ابو لهب لاشراقة في وجهه ، وهو اخو ابي طالب لابيه .

٢١ ــ سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٠ ــ ١١

٢٢ ــ سورة الكهف ١٧

أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الاسد رهط أبي سلمة ، وقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، قالت فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الاسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة الى المدينة ، قالت : ففرق بيني وبين ابني وبين زوجي . قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي — سنة أو قريباً منها — حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة : لم لا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت . قالت : فرد بنو الاسد إلي عند ذلك ابني ، قالت فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، قالت وما معي أحد من خلق الله . حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان (٢٤) بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار فقال : إلى أين يا ابنة أبي أمية ؟ قلت : أريد زوجي بالمدينة ، قال : أو ما معك أحد ؟ قلت : ما معي أحد إلا الله وبني هذا ، فقال : والله ما لك من مترك ، فأخذ بخطام البعير ،

---

٢٤ — اسلم عثمان بن طلحة بعد الحديبية ، وهاجر هو وخالد ابن الوليد معاً ، وقتل يوم أحد أبوه وإخوته ، ودفع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وإلى ابن عمه شيبة والدبني شيبة مفاتيح الكعبة ، اقرها عليهم في الاسلام ولا تزال بايديهم .

أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري ، فحط عنه ، ثم قيده في الشجر ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فاذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه، فرحّله ، ثم استأخرعني،وقال : اركبي ،فاذا ركبت فاستويت على بعيري ، أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة ، فلما نظر الى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة نازلا بها ـ فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعا الى مكة ، فكانت تقول : ما أعلم أهل بيت في الاسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

ثم كانت بيعة العقبة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والانصار وفيها تعهد الانصار أن يمنعوا رسول الله مما يمنعون منه أهليهم ،إذ قال رسول الله: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم فأخذ البراء ابن معرور (٣٥) بيده ثم قال : نعم،والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنّك مما نمنع أزرنا(٣٦) ،فبايعنا يارسول الله، فنحن والله أبناء الحروب .

---

٣٥ ـ البراء بن معرور بن صخر الانصاري الخزرجي : صحابي من العقلاء المتقدمين . شهد العقبة وكان احد النقباء الاثني عشر من الانصار وهو اول من تكلم منهم ، واول من مات منهم . توفي قبل الهجرة بشهر واحد .

٣٦ ـ أزرنا : اي نساءنا . فقد يكنى عن المرأة بالإزار .

وأهل الحلقة[٣٧] ، ورثناها كابراً عن كابر[٣٨] .

وبعد بيعة العقبة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين الذين عادوا من الحبشة ومن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ،واللحاق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً ودار تأمنون بها فخرجوا أرسالا . ثم أذن لرسول الله بالخروج والهجرة ، ولم يبق بمكة منهم أحد الا مفتون أو محبوس .

ولقد وقفت بنو مخزوم موقفاً عنيداً من أبنائها الذين أسلموا فمنعت من استطاعت من الهجرة إلى المدينة فقد حبس سلمة بن هشام أخو أبي جهل وبقي في مكة حتى بعد غزوة الخندق وكذا عياش بن أبي ربيعة وكان بعض أفرادهم قد بقوا في الحبشة مع جعفر بن أبي طالب حتى بعد غزوة خيبر .

وكان قد أذن بالقتال ، فبث المسلمون سراياهم في كل مكان، وانطلقت الغزوات في أنحاء الأرض ،تبدي القوة، وتعلن الاعتزاز بالله ....ولقد وجد المسلمون قوافل أعدائهم غادية ورائحة الى الشام بالقرب من مدينتهم ، وفيها أموال زعماء قريش وكبرائها الذين أجبروا المسلمين على الخروج من ديارهم وأموالهم تاركين بيوتهم وأهلهم لهم ، فارادوا اعتراض سبيلها ،وقطع الطريق عليها ، وأخذها غنيمة . وكانت غزوات وسرايا ، ومنها غزوة العشيرة التي

---

٢٧ ــ الحلقة : اي السلاح .

٢٨ ــ سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٨٤ ــ ٨٥

وخطط المسلمون لأخذ بعض هذه القوافل التي هي بإمرة أبي سفيان وانطلقوا في سبيل ذلك ، ولكن الله أراد غير ذلك إذ أراد لهم النصر على الاعداء « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون • يجادلونك في الحق بعد ماتبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون[٢٩] » وكانت معركة بدر الكبرى ، معركة الفرقان وفيها نصر الله جنده ، وأيد عباده المؤمنين ، وهزم أعداءه ، وتمت كلمة الله ... وكان لأهل بدر منزلة خاصة • وأعطيات خاصة « لعل الله اطلع إلى أصحاب بدر ، فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم[٣٠] » •

وكان أبو سلمة رضي الله عنه من أصحاب بدر • كما حضرها من بني مخزوم الأرقم بن أبي الأرقم وشماس بن عثمان ، ومن

---

٢٩ ـ سورة الانفال .

٣٠ ـ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين استأذن في قتل حاطب بن ابي بلتعة الذي اخطأ وبعث بكتاب الى قريش يخبرهم بسير رسول الله اليهم لفتح مكة .

حلفائهم عمار بن ياسر (٣١) ومعتب بن عوف (٣٢) .

وكانت بنو مخزوم قد جمعت حشدها ، وأرسلت فلذات أكبادها لتقضي على المسلمين بزعمها ، ولكن الله قد ردّ كيدها فتركت في ساحة المعركة عشرة من أعزّ أبنائها وعلى رأسهم أبو جهل عمرو بن هشام عدو الله ، وأخوه العاص بن هشام ، كما أسر أخوه الثاني أيضاً خالد بن هشام . وقتل قيس بن الوليد أخو خالد بن الوليد وابن عمه أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وابن عمه الآخر مسعود بن أبي أمية أخو أم سلمة . إضافة إلى عدد آخر ... كان لهم كلهم دور في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذين أسلموا من بني مخزوم من أقربائهم والمستضعفين الذين كانوا تحت أيديهم .

واستدار العام على معركة بدر ، ولم يمض أكثر من شهر على ذلك حتى كانت معركة أحد (٣٣) ، وفيها أصيب المسلمون ، ولقتوا

---

٣١ ــ عمار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي ولد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أعوام ، هاجر الى المدينة وشهد بدرا واحدا والخندق ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الكوفة ثم عزله عنها . وشهد الجمل وصفين مع علي ، وقتل في صفين وعمره ثلاث وتسعين سنة عام ٣٧ هـ .

٣٢ ــ معتب بن عوف بن عامر الخزاعي السلولي كان حليف بني مخزوم ، صحابي ، هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة وكان عمره أثناء هجرته الى المدينة ٢١ عاما ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفي عام ٥٧ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان .

٣٣ ــ كانت غزوة بدر في ١٧ رمضان السنة الثانية للهجرة ، وكانت أحد في شوال السنة الثالثة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول نهار الحادي عشر منه .

جُرِح رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابني خويلد الاسديين يدعوان قومهما بني أسد لحربه عليه الصلاة والسلام فدعا أبا سلمة بن عبد الاسد المخزومي وعقد له لواء وقال له : سر حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فأغر عليهم . وأرسل معه رجالاً فسار في هلال المحرم حتى بلغ قطناً(٣٤) فأغار عليهم فهربوا من منازلهم ، ووجد أبو سلمة إبلاً وشاءً فأخذها ، ولم يلق حرباً ، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه(٣٥) .

وكان أبو سلمة رضي الله عنه ممن جرح في أحد إلا أن جرحه قد اندمل وعوفي ، ثم انتقض عليه فمات منه في بداية السنة الرابعة . وعن أم سلمة ، أنها قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة ، وقد شق بصره فأغمضه وقال : إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فصاح ناس من أهله فقال : لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة تؤمّن على ماتقولون ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين . اللهم افسح له في قبره ، ونوّر له قبره(٣٦) .

---

٣٤ ـ قطن : جبل لبني أسد بناحية فيد شرق المدينة ويشرف على عقلة الصقور من الشمال .

٣٥ ـ نور اليقين للشيخ محمد الخضري ص ١٤٥ .

٣٦ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى تأليف محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري المتوفى ٦٩٤ هـ .

نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأسرة التي خلفها صاحبه وابن عمته ولم يكن لها من معيل غير الله ، وهي زوجة لم تتجاوز الثامنة والعشرين عاماً وغلامان هما سلمة[٣٧] وعمر[٣٨] وابنة واحدة هي زينب[٣٩] وفي رواية أن لها أيضاً رقية . ورأى أن يتعهدها من بعده ويرعاها بعد موته ، وليس أفضل من أن يضمها إلى أسرته فليس أكرم من الاسرة ولاأكثر احتراماً من مساواتها بمن يعيل ويكرم ، وكان زواج رسول الله بأم سلمة ورفعها إلى منزلة أم المؤمنين .

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : لما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ادبغ اهابا فغسلت يدي منه وأذنت لرسول الله ووضعت له وسادة من أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسه فلما فرغ قلت : يارسول الله إني امرأة فيَّ غيرة شديدة وأخاف أن ترى مني شيئاً تكرهه يعذبني الله به ، وأنا امرأة قد دخلت في السن ذات عيال ، قال : أما ماذكرت من الغيرة

---

٣٧ ـ سلمة بن ابي سلمة : اكبر إخوته ، ربي في حجر رسول الله ، وتزوجه امامة بنت حمزة بن عبد المطلب ، وتوفي في خلافة عبد الملك بن مروان .

٣٨ ـ عمر بن ابي سلمة : ولد في الحبشة وتوفي في المدينة عام ٨٣ هـ .

٣٩ ـ زينب بنت ابي سلمة : ولدت في الحبشة ، وكان اسمها برة وسماها الرسول صلى الله عليه وسلم زينب ، وكانت افقه نساء عصرها وتزوجها عبد الله بن زمعة بن الاسود .

أصابك ، وأما عيالك فإنهم عيالي • قالت : فقلت : قد سلمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجني [٤٠] •

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا اليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي ، وأخلف لي خيراً منها » قالت فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله • قالت : فأرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له [٤١] •

وتوفيت أم سلمة في أول خلافة يزيد بن معاوية سنة ستين للهجرة •

وإذا كان أبو سلمة رضي الله عنه قد عرف وشهر بسبب زوجه أم سلمة التي أصبحت أم المؤمنين فطغت هذه الحادثة على غيرها إلا أن له من الايمان القوي ماتشهد عليه هجرته إلى الله ورسوله إلى الحبشة مرتين ثم إلى المدينة تاركاً وراءه كل ما يشده إلى الدنيا من أهل ومال وبنين وبلد وعشيرة وأقربين ، وله من

---

٤٠ ـ السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين تاليف محب الدين احمد بن عبد الله الطبري ص ١٠٤

٤١ ـ المصدر نفسه ص ١٠٢

البطولة ماتعرفه له الحروب التي خاضها والمعارك التي أبلى فيها ؛ وله من الحكمة ماتعترف به قيادته لصحابة رسول الله في سريته ؛ وله من الرأي مايفصح عن توليه رسول الله له للمدينة ، وله من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينبيه دعاؤه له وتعهده أهله من بعده وتوليته له . وأخيراً يكفيه أنه المهاجر الأول ومن أهل بدر ومو ته ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض . رضي الله عنه وأرضاه .

* * *

www.dawahmemo.com

عظماء مجهولون

١

ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

أبو سبرة بن أبي رهم

رضي الله عنه

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

www.dawahmemo.com

www.dawahmemo.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

أبو سبرة بن أبي رهم

رضي الله عنه

كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يريـدون من الدنيا إلا بمقدار ما يبلّغهم الآخرة ، لذا لم يرغبوا فيها ، فكتبت لهم السعادة . ولم يتظاهروا بأعمالهم فخلّدها لهم التاريخ ، ولم يلتفتوا الى بقاء ذكرهم فحفظه لهم الخلف ، ولئن كان التاريخ قد استجاب لطلب بعضهم فأسكنهم في زاوية بعيدة عن الأنظار ، وسلّط الأضواء على غيرهم ، أو أن بعض الأعمال الكبيرة من خلافة وقيادة عامة قد كشفت النقاب عن أصحابها فظهروا على حقيقتهم قمة شامخة عاش صحابة آخرون في ظلّها وإن كان ارتفاعهم لا يقل عنها . ومن هؤلاء أبو سبرة بن أبي رهم رضي الله عنه .

من عادات العرب منذ القديم أن يختار الرجل لبنيه بنات أفضل الأسر وأعرقها ، لم يكن ذلك فقط لانجاب الولـد الذي يمكنه من السيادة ويؤهله ذكاؤه الوراثي للقيادة حيث تشيع الحكمة «كادت المرأة أن تلد أخاها» وانما كان أيضاً لارتباط الأسر ذات المكانة بنوع من القرابة وامكانية ايجاد نوع من الوشائج يجعلها تقف صفاً واحداً أمام أعدائها .

كلها يدا واحدة أمام القرى الأخـرى أو القبائل الثانية التي تقيم خارج حرمها إلا أن بطونها كثيراً ماكانت تتنافر وتختلف ، وتتباين آراؤها وتنقسم ، وقد يؤدي هذا الى العداوة فيما بينها ، وتكون الغلبة بلا شك لأكثرها عددا أو أكبرها حلفا ، أو إلى تلك التي لها بين البطون الأخرى قرابات تجعلها تقف الى جانبها أو تدافع عنها ، أو يخذل بعض الأفراد عنها فيكون لها الموقف الذي تحمد عليه .

ونعرف من تاريخ الدعوة الاسلامية منذ أول عهدهـا كيف كان لدور القرابة أثر لا ينكر ، ولدور الصلات أهمية لا يمكـن إغفالها ، سواء أكان في الدفاع عن هذا الدين الجديد أم في اعتناق وحماية بعض أفراده ، ويبدو هذا بشكل واضـح جلي في إسلام حمزة[1] رضي الله عنه ، وحماية أبي طالب لرسول الله صلى الله عليه

---

(١) كان ابو جهل قد اعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، فذكر ذلك لحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ، فاقبل نحو أبي جهل حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة شجه منها شجة منكرة ، وقامت رجال من بني مخزوم قبيلة ابي جهل لينصروا صاحبهم من حمزة وقالوا ما نراك يا حمزة إلا قد صبوت ؟ قال حمزة ومن يمنعني وقد استبان لي منه ما اشهد انه رسول الله وان الذي يقول حق ، فوالله لاانزع فامنعوني إن كنتم صادقين . وكان هـذا سبب اسلام حمزة رضي الله عنه .

وسلم ، وإجارة المطعم بن عدي [١] له بعد هجرته إلى الطائف،وأمر زهير بن أبي أمية المخزومي [٢] في نقض صحيفة المقاطعة ، ومد يد العون إلى أولئك الذين يعيشون في شعب أبي طالب من بني هاشم، وقد قاطعتهم عشيرتهم ، وابتعد عنهم أبناء قبيلتهم .

---

(١) المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، رئيس بني نوفل في الجاهلية ، وقائدهم في حرب الفجار ، ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الطائف وعاد متجها الى مكة ، نزل بقرب ـ حراء ـ فبعث الى بعض حلفاء قريش ليجيروه في دخول مكة فامتنعوا ، فبعث الى المطعم بن عدي بذلك ، فتسلح المطعم وأهل بيته وخرج بهم حتى اتوا المسجد ، فأرسل من يدعو النبي صلى الله عليه وسلم للدخول ، فدخل مكة وطاف بالبيت وصلى عنده ، ثم انصرف الى منزله آمنا . وهو الذي أجار سعد بن عبادة ، وقد دخل مكة معتمراً ، وتعلقت به قريش ، فأجاره مطعم ، واطلقه ، وكان أحد الذين مزقوا الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ، وعمي في كبره ومات قبل معركة بدر ، وهو على دين آبائه .

(٢) زهير بن أبي امية المخزومي : ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عاتكة ، واخو ام سلمة زوج رسول الله . اشترك مع المطعم ابن عدي وهشام بن عمرو في تمزيق الصحيفة ، اذ خاطب أهل مكة قائلا : يا أهل مكة انأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ،وايده زمعة بن الاسود وابو البختري بن هشام بن عمرو والمطعم بن عدي ثم قام الاخير الى الصحيفة ليشقها فوجد الارضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم .

كان من أشهر بطون قريش وفي المركز والذؤابة فيها بنو عبد مناف ، وان كان قد انقسم هذا الفرع إلى هاشميين وأمويين إلا أنه يعدّ فرعاً واحداً على الرغم مما كان من تسابق على الزعامة بين هذين الفخــذين .

كان بنو هاشم في مركز الصدارة بين قريش كلها ، وكان أكثرهم مركزاً عبد المطلب بن هاشم ، وقد جمع عدة نساء من بطون قريش المختلفة وبخاصة تلك التي لها شهرتها ولها وزنها وقيمتها ، وكانت تحته فاطمة بنت عمرو بن مخزوم جــدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولد له منهــا عبد مناف (أبــو طالب) والزبير وعبــد الله وبناتــه كلهــن باستثنــاء صفية ، وكانت تحتــه هالــة بنت أهيب الزهريــة بنت عــم آمنــة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له منها حمزة وصفية ... إضافة الى نساء أخريات ، كلهن من أسر مرموقة وفروع معروفة ، فكان عدد أولاده عشرة ، وله من البنات ست ، وكذا اختار عبد المطلب لأبنائــه مثل الذي اختار لنفسه ، وفي الوقت ذاته فقد كانت بناته تحت أبنــاء سادة قريش . ولهذا كله فقد زاد مركزه بين أفراد قريش عامة .

كانت بنات عبد المطلب نساء ذوات ولدٍ وودٍ ، أنجبن الكثير ، وطمع في زواجهن الكثير ، تزوجت إحداهن ، وهي برة بنت عبد المطلب

أحد العامريين المشهورين سَبْرَة بن عبد العزى، ولم تلبث أن أنجبت غلاما عرف باسم رُهم، ترعرع هذا الغلام على الترف والنعيم حتى عرف أبوه به لشدة الولع به ، فلم يعرف الأب إلا باسم ابنه فيقال أبو رُهم ، وكذا لم يعرف الابن إلا بكنيته فيقال : أبو سَبْرَة . والكنية دليل الاحترام والحب . وتكني العرب عادة الابناء بآبائهم وبخاصة الولد الأكبر ، واذا فقد الأب وارتحل عن الأسرة إلى الحياة الآخرة بقي اسمه مذكوراً .

لم تَطُلْ حياة برة مع سبرة بن عبد العزى إذ توفي عنها ، إلا أن بنات الزعماء قلما يقعدن بلا زواج وإن تقدمت بهن السن أو كثر لهن الولد . إذ غالباً ما يتقدم اليهن الاشراف يطلبون الزواج منهن لصلة النسب وربط الأسر وانجاب الولد وبخاصة في البيئة القبلية التي تعتمد على كثرة الولد وقيام الأحلاف والخصومات الدائمة .

تقدم إلى برة بنت عبد المطلب أحد المخزوميين المشهورين وهو عبد الاسد بن هلال المخزومي ، ووافق أبوها على الزواج ، وانتقلت برة من بيت عامري عرف بالصدارة الى بيت مخزومي لا يقل عن الاول وجاهة ، ولم تلبث برة أن أنجبت من عبد الاسد ولداً عرف باسم عبد الله وهو أبو سلمة الذي نتكلم عنه ــ إن شاء الله ــ في بحث خاص .

والتقدير من كل أفراد القبيلة ، وكان لهذا الحب أنه لم يبلغ سن الشباب حتى اختيرت له إحدى فتيات بني عامر لتكون زوجة لـه وهي أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، فقد عرفت هي بجمالها وعرف أبوها بوجاهته وتمّ الزواج ، وعاش كلا العروسين حياة هنيئـة لا يعكر صفوها معكر بين أحضان بني عامر .

لم تطل حياة أبي سبرة حتى انطلقت الدعـوة الاسلامية على لسان محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام (ابن خاله) ورنت أصداؤها في شعاب مكة وكانت حديث القوم في كل ناد . وبدأت أشعة النور تصل إلى أصحاب العقول ، وإذا كانت قد أعشت بقوتها أعين بعض الكبراء فأعمتهم زعامتهم عن أن يروا النور ، فبقوا على الشرك والوثنية إلا أن الابنـاء قد أسرعوا في تلبية الدعـوة وساعدهم على ذلك وضوحها ورجاحة عقلهم وعدم الغطرسة ، إذ لم يكن لهم بعد ذلك المركز الـذي يخافون عليه كما خشي آباؤهـم الجاهليون على ضياعه .

كان أبو سبرة في طليعة هؤلاء الشبان المؤمنين فزادت روابط القرابة متانة وأواصر المحبة قوة بل إن رابطة العقيدة لا تعـدلهـا رابطة ، ولا تساويها صلة ، ولا يكافئها لقاء ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قائد أبي سبرة وزعيمه وسيده وحبيبه وفوق ذلك

كله رسوله الأمين من الله تعالى لهداية البشر أجمعين. وأسلمت مع أبي سبرة زوجه أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو (١) ، ولم يخفها ماعرف عن أبيها من عداء للاسلام ووقوفه ضده في كل محفل وناد(٢)، بل لم تكن هي المؤمنة الوحيدة في ذلك البيت فأختها سهيلة(٣) زوج أبي حذيفة بن عتبة(٤) كانت قد أسلمت مع زوجها إضافة إلى الرجال

---

(١) أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو : وامها فاختة بنت عامر بن نوفل بن عبد مناف وقد ولدت لابي سبرة محمداً وعبد الله .

(٢) سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، القرشي ، العامري ، من لؤي : خطيب قريش ، واحد سادتها في الجاهلية ، اسره المسلمون يوم بدر ، وافتدى ، وهو الذي تولى امر صلح الحديبية من جانب المشركين ، واقام على دينه الى يوم الفتح ، بمكة فاسلم ، وسكنها ثم سكن المدينة ، واشترك في الفتوح ، وكان من قادة اليرموك ، وتوفي بالطاعون في الشام عام ١٨ للهجرة ، ويقال انه استشهد يوم اليرموك .

(٣) سهيلة بنت سهيل بن عمرو : وامها فاطمة بنت عبد العزى ابن ابي قيس من رهط زوجها سهيل بن عمرو .

(٤) ابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : صحابي هاجر الى الحبشة مع زوجه سهيلة ثم الى المدينة . وشهد بدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها ، واستشهد يوم اليمامة عام ١٢ هـ وكان اسمه هشيم وقيل هاشم ، وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عباد بن بشر وقد قتلا شهيدين يوم اليمامة .

لأنهم كانوا قد دانوا بالاسلام واعتنقوه .

واشتد أذى قريش على هذه الطليعة المؤمنة وتحمل أبو سبرة رضي الله عنه ما تحمل من عذاب مادي وحرب معنوية ، ولم يُر إلا صابراً صامتاً رغم كل مالقي .

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ،

---

(١) عبد الله بن سهيل بن عمرو : هاجر الى الحبشة مع من هاجر ، وبعد عودته من هجرته عاش مستضعفا في مكة اذ لم يستطع الهجرة الى المدينة ، فلما كانت بدر خرج مع أهل مكة ثم فر الى المسلمين فشهدها معهم واستشهد يوم اليمامة ١٢ هـ .

(٢) حاطب بن عمرو : هاجر الى الحبشة مع من هاجر ، وشهد بدراً ، وقيل انه آخر من خرج من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب أي لم يشهد بدراً . كما قالوا : انه هو الذي زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة .

(٣) سليط بن عمرو : اول من هاجر الى الحبشة ، واستشهد يوم اليمامة .

(٤) السكران بن عمرو : هاجر الى الحبشة مع زوجه سودة بنت زمعة ابنة عمه وبعد عودته من هجرته إلى مكة بشهر توفي وذلك قبل هجرة المسلمين الى المدينة . وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزوجه بعد وفاة خديجة رضي الله عنها .

وأنه لايقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء،قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فان بها ملكا لايظلم عنده أحد . وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى اللهعليه وسلم إلى أرض الحبشة ، مخافة من الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم . فكانت أول هجرته في الاسلام ، ولعل هذا إشارة الى أن الدعاة يجب أن ينتقلوا إلى المكانالذي يرون فيه المناخ الملائم للدعوة مهما بعد هذا المكان أو اختلفت هوية أبنائه .

كان أبو سبرة رضي الله عنه بين هؤلاء المهاجرين مطيعاً منفذاً اشارة نبيه ، وكانت معه زوجه أم كلثوم .

لم يطل مكث المسلمين في الحبشة اذ بعد ثلاثة أشهر من خروجهم رجعوا إلى مكة حيث لم تتيسر لهم الاقامة هناك لأنهم قليلو العدد ـ وفي الكثرة بعض الأنس ـ وأضف الى ذلك أنهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم وهؤلاء لايطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة (١) .

وعندما رجعوا إلى مكة وجدوا أنفسهم أشد غربة مما كانوا عليه في أرض الحبشة ورأوا الأذى يحيق بهم من كل مكان ، وقريش قد

---

(١) نور اليقين للشيخ محمد الخضري ص ٥٨ .

فلا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة . فانحاز بسبب ذلك بنو هاشم الى شعب أبي طالب ، ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ، ما عدا أبا لهب فانه كان مع قريش ، وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابني عبد مناف فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم ، وفي مقدمة المانعين أبو لهب .

وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا الى الحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتراب ، فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة ، وكان أبو سبرة رضي الله عنه في مقدمة هؤلاء المهاجرين مع زوجه أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو . إلا أن الغربة أثرت عليهم ، وإن كانت أخف مما كانت عليه في المرة الاولى لكثرتهم الآن ، وبدأت تصل إليهم الأخبار بقوة الاسلام الجديدة بعد اسلام عمر بن الخطاب ونقض الصحيفة وخروج المسلمين من الشعب ، فبدؤوا يعودون إلى مكة ، وكان أبو سبرة رضي الله عنه من الذين عادوا ، وإن لم يستطع أحد منهم دخول مكة إلا مستخفياً أو في جوار أحد ، وكان عدد الذين عادوا من الحبشة ثلاثة وثلاثين رجلا .

مكث أبو سبرة في مكة يتحمل الضنك والأذى ، وكان الاسلام قد ظهر في المدينة ، وبدأ ينتشر بين أهلها ، وكانت بيعة العقبة الثانية قد تمت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعاً أن يهاجروا الى المدينة ، وسار أبو سبرة رضي الله عنه مهاجراً فراراً بدينه ، وقد اعتاد ذلك ، فقد سبق له أن هاجر هجرتين ، وبالهجرة يتمكن من عبادة الله الذي امتزج حبه بلحمه ودمه وقد صار لايعبأ بمفارقة الأهل والديار ، ولا يهتم بالعشيرة والأوطان .

أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، وانتقل مع أبي بكر إلى المدينة ولما وصل اليها وأقام ، بدأ يؤاخي بين المهاجرين والانصار . وكان أبو سبرة رضي الله عنه وسلمة بن سلامة بن وقش[1] من الأوس أخوين . وعاش أبو سبرة في المدينة صامتاً،إذا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم الالتحاق بغزوة أو سرية سار طائعاً . وكان أبو سبرة والزبير بن العوام ينزلان على منذر بن محمد ابن عقبة بن أحيحة .

---

(١) يقال أن سلمة بن سلامة والزبير بن العوام كانا أخوين ، والواقع أن الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود كانا أخوين ، ولعل هذا الخلاف لأن الزبير وأبا سبرة كانا ينزلان معاً على منذر بن محمد ابن عقبة .

الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله[1] » وخرج المسلمون يعترضون قافلة قريش إلا أن الله أراد لهم ذات الشوكة ، وكانت غـزوة بدر ، وكان أبو سبرة رضي الله عنه في عداد جند الله ، وقد أبلى بلاء حسناً ، كما أبلـى المسلـون جميعاً ، وكانت هذه المعركة فرقاناً بين الحق والباطل .

وشهد أبو سبرة رضي الله عنه المشاهد جميعها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتوان في غزوة ولم يتخلف عن سرية . وكان يرى في كل منها هادئاً . فاذا جد الجد واحتدم القتال كان أسـداً هصوراً ، يتقدم نحو العدو لايثنيه عنه إلا أن يفل سيفه أو يقصـل خشبه ، وإذا انتهى القتال عاد اليه هدوءه .

أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قبل مفارقته الحياة الدنيا ، وكان أبو سبرة في عـدادهذا البعث مع كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، ولكن الجيش قـد توقف بسبب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم لـم يلبث الخليفة أبو بكر رضي الله عنه أن سير هذا الجيش بعـد وفـاة الرسول الكريم إذ لم يرض أن يحـل لواء جهزه رسول الله صلى

---

(١) الحج الآية ٤٠ .

الله عليه وسلم . وانتفضت الجزيرة بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على حكم المدينة وجرد أبو بكر رضي الله عنه لقتال المرتدين ، ولبى أبو سبرة الدعوة ، واشترك في هذا القتال حتى دانت الجزيرة مرة أخرى للحكم الاسلامي .

تحرك الجيش الاسلامي نحو العراق ينشر الدين ، ويدك أركان الظلم ، ويقاتل الطغاة في كل أرض ، وكانت هذه المنطقة ميدان جهاد أبي سبرة رضي الله عنه يجاهد جندياً مجهولاً تحت راية كل قائد لاهمّ له سوى نشر الاسلام الذي قضى أكثر حياته في الدعوة اليه .

ثم فتح جنوبي العراق على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه، ثم جاءه الأمر بالانتقال الى الشام بقسم من جنده لمساعدة الجيوش فيها . انتقل خالد الى الشام وابقى قسماً من جنده في العراق، وعليهم المثنى بن حارثة ، وكان أبو سبرة مع المجاهدين الذين بقوا في العراق .

سافر المثنى إلى المدينة المنورة يطلب المدد، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه ، وقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالأمر ، وعمل بوصية أبي بكر ، فدعا إلى الجهاد ، وطلب من أبي عبيدة[1] إعادة جند

---

(١) أصبح أبو عبيدة عامر بن الجراح قائد جند الشام بعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة .

نحو العراق ، وكانت وقعة الجسر التي استشهد فيها أبو عبيد وعدد من القادة ، ورجعت الإمرة إلى المثنى[٢] وكانت معركة البويب[٣] التي انتصر فيها المسلمون .

بعث الخليفة عمر رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص أميراً على العراق ومعه ستة آلاف رجل ، وحدثت معركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً ، وعادت العراق إلى الاسلام ، وكانت قد نقضت العهد بعد أن فتحها خالد بن الوليد في المرة الأولى .

---

(١) أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، قائد أول جيش سيّره عمر ابن الخطاب ، وكان عمر لا يسلم القيادة إلا إلى الصحابة ولم يكن أبو عبيد صحابياً ولكنه اعطاه القيادة بصفته أول من لبى داعي الجهاد ، وقد استشهد في معركة الجسر عام ١٣ هـ ، وهو والد المختار الثقفي .

(٢) المثنى بن حارثة بن سلمة الشيباني : صحابي ، فاتح ، اسلم سنة تسع ، وقدم على أبي بكر فأمره على قومه وامده بخالد بن الوليد ، وأمده عمر بأبي عبيد وقد جرح في معركة الجسر ، ثم عوفي ، ثم امده بسعد بن أبي وقاص ، وانتقضت عليه جراحته فمات قبل وصول سعد اليه وذلك عام ١٤ هـ .

(٣) البويب : مكان قرب الكوفة جرت فيه معركة عظيمة ، انتصر فيها المسلمون الذين كان يقودهم المثنى بن حارثة وجرير بن عبد الله البجلي الذي جاء مدداً للمثنى وذلك عام ١٣ هـ .

أرسل عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص أن يبعث عتبة ابن غزوان [١] إلى أرض البصرة وكانت تعرف آنذاك باسم أرض الهند . فسار عتبة إلى تلك الجهات وفتح الأبلة[٢] وكان أبو سبرة في عداد جيش عتبة .

لقد آن لأبي سبرة أن يُعرف ، وقد حاول الا يظهر في هذه المدة الطويلة كلها وفي الغزوات التي خاضها جميعا أراد أن يكون مجهولا يقاتل في سبيل الله ابتغاء وجه الله لا يريد أن يُعرف،ولا أن يُذكر اسمه إلا أن الأيام قد كشفته،والمعارك التي جدت قد تطلبت أن يكون القائد لها ، والجند الذين عرفوه في قتاله قد رغبوا أن يكون على مقدمتهم ، والابطال الذين اشتركوا معه في الحروب قد قدموه على أنفسهم لما رأوا منه .

غزا العلاء الحضرمي[٣] والي البحرين فارس إلا أن جيشه قد أحاط به الفرس وأصبح مهددا بالفناء ، فكتب عمر بن الخطاب

---

(١) عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب الحارثي المازني ، أبو عبد الله : باني مدينة البصرة صحابي ، من أوائل الذين أسلموا . هاجر الى الحبشة ، وشهد بدرا ، ثم شهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، مات وهو في الطريق الى المدينة عام ١٧ هـ ، ويعد من الرماة المعدودين ، وكان طويلا جميلا ، وقد روى أربعة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) الابلة : موقع البصرة الحالي ، اذ أن البصرة قد اختطها عتبة عام ١٦ هـ بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) العلاء الحضرمي : صحابي أصله من حضرموت سكن أبوه مكة فولد فيها ، ولاه رسول الله (البحرين) وبقي عليها حتى مات عام ١٢ هـ .

رضي الله عنه الى عتبة بن غزوان يأمره بأن يرسل جيشا لنجدة الى المسلمين في فارس قبل أن يهلكوا ، فأرسل عتبة هذا الجيش ،وفيه كبار القادة ، وكان تعداده اثني عشر ألفاً ، وعليه أبو سبرة قائدا .
فاستطاع هذا القائد الجديد والصحابي الشيخ أن ينقذ الجيش الاسلامي وأن ينتصر على الفرس ، ثم عاد بجيشه الى البصرة وقد حقق ما طلب منه .

استأذن عتبة بن غزوان عمر بن الخطاب في الحج ، فأذن له ، فاستخلف على البصرة أبا سبرة . ولكن عتبة لم يلبث أن توفي ، فأقر عمر أبا سبرة والياً على البصرة . ولكن أبا سبرة كانت نفسه تحن إلى الجهاد ومصارعة الاعداء وتطلب الشهادة وترى في العمل الاداري ما تراه ... فطلب من الخليفة أن يعطيه المكان الذي فيه مجال عمله الا وهو القتال . واستجاب الخليفة لطلبه فاستعمل المغيرة بن شعبة (١) على البصرة ، والتحق أبو سبرة بالجيش يقاتل في سبيل الله .

وبلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اتفاق أهل الأهواز (٢)

---

(١) المغيرة بن شعبة بن ابي عامر بن مسعود الثقفي : ولد في الطائف . اسلم عام ٥ للهجرة شهد بعدها الفتوح وفقد عينه في معركة اليرموك ، ولي البصرة والكوفة ، ومات وهو على الكوفة لمعاوية ابن ابي سفيان عام ٥٠ هـ .

(٢) الأهواز : المنطقة السهلية التي تقع شرقي نهر دجلة وشط العرب وهي ضمن حدود ايران اليوم وتعرف باسم (عربستان) الان، على حين يسميها الفرس (خوزستان) .

وفارس[1] بقيادة الهرمزان[2] على قتال المسلمين فكتب إلى سعد أمير الكوفة يأمره بتسيير جيش من الكوفة والبصرة بقيادة أبي سبرة . كما أمده بأبي موسى الأشعري[3] ، فاستطاع المسلمون في هذا الجيش فتح مدينة (تستر)[4] وأسر الهرمزان، فأرسله أبو سبرة إلى عمر بن الخطاب موثقاً مع وفد فيهم الأحنف بن قيس[5] وأنس بن مالك[6] .ثم استطاع أبو سبرة ملاحقة الفرس وفتح مدينة

---

(١) فارس الجزء الجنوبي من إيران بين الاهواز في الشمال الغربي ومكران في الجنوب الشرقي ، ومن مدنها شيراز .

(٢) الهرمزان : من الذين دافعوا عن الدولة الفارسية في الاهواز ، ونقض الصلح ، مما جعل المسلمين يحملونه اسيرا الى المدينة ، وقد اتهم بالاشتراك في قتل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ابي لؤلؤة .

(٣) ابو موسى الاشعري : ولد في زبيد باليمن ، وقدم مكة عند ظهور الاسلام فأسلم ، وهاجر الى الحبشة ولاه الرسول على زبيد وعدن ، وتولى امر البصرة ايام عمر ثم تولى امر الكوفة ، وبقي فيها حتى توفي عام ٤٤ هـ .

(٤) تستر : مدينة في شمال الاهواز ، تقع على بعد ٩٥ كم من مدينة (الاهواز) وتعرف اليوم باسم (ششتر) .

(٥) الاحنف بن قيس : سيد تميم ادرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره ، احد الشجعان الفاتحين ،توفي في الكوفة عند مصعب ابن الزبير عام ٧٢ هـ .

(٦) انس بن مالك : صاحب الرسول وخادمه ، اسلم صغيرا ، توفي بالبصرة عام ٩٣ هـ وهو آخر من مات من الصحابة فيها .

يسابور)[2] ففتحت له المدينة أبوابها وقد قبلت الجزية ... وفي الوقت نفسه كان المسلمون بقيادة النعمان بن المقرن المزني[3] يدخلون (نهاوند) .

شعر أبو سبرة بالتعب بعد فتح جند يسابور ، ورأى أن جسمه لم يعد يقوى على القتال فعاد الى مكة ـ باذن الخليفة ـ يقيم فيها ، وكان قد غادرها منذ عهد طويل يزيد على عشرين سنة قضاها مجاهدا في سبيل الله ، وعاش بعدها ما يقرب من ثماني عشرة سنة توفي بعدها عام ٣٥هـ في أواخر أيام سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

انتقل إلى جوار ربه قرير العين ، وكم كان يرجو أن يلقى الشهادة فقد طلبها في المعارك التي خاضها كلها وما أكثرها ولكن الله غالب على أمره .. وهكذا انتهت حياة ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابي الجليل والمجاهد البطل والقائد الفذ والفاتح الكبير رضي الله عنه وأرضاه .

---

(١) السوس مدينة في الأهواز غربي (تستر) إلى الشمال قليلا تعرف اليوم باسم (شوش) .

(٢) جند يسابور : مدينة قديمة تقع بين مدينتي (الأهواز) و (تستر) في منتصف الطريق بينهما ، وهي غير معروفة الآن .

(٣) النعمان بن المقرن : أسلم في السنة الخامسة، له عشر اخوة لهم كلهم شرف الصحبة والجهاد والفتح ، استشهد في نهاوند عام ٢١ هـ .

سلسلة بطولات إسلامية

— ٢ —

أمين الأمة

أبو عبيدة بن الجراح

القائد الفذ

تأليف

د. محمد إبراهيم نصر و محمد مصطفى سلام

تجد عدداً من القصص والسير
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

دار اللواء
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار اللواء

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع الملك فيصل
ص. ب ٢٨٥٦ هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤ - برقياً : نشر دار

مقدّمة

في مطلع هذا القرن شهدت بلادنا العربية بصفة خاصة والإسلامية بصفة عامة ، حملات مسعورة من الغزو الغربي طمعاً في مقدّرات هذه البلاد ، وأملاً في استصفاء مواردها ، والفوز بما تدخره أرضها من كنوز ، وما تفيض به من خيرات ورغبة في تسخير شعوبها لتحقيق أغراضهم وتنفيذ مآربهم .

وأعدّوا عدّتهم لذلك فزحفوا بجيوشهم ، وعُدَدهم وآلاتهم ،ولم يكن الغزو الحربيُّ وحده هو سلاحهم في معاركهم ، ولكنهم لجأوا إلى شتّى أساليب الغزو والدّمار .

وأخطر الأسلحة وأمضاها — لم تكن هي التي جابهوا بها المسلمين في ميادين الحرب والقتال — وإنما كان أشدها خطراً ،

المسلمين وتفكيرهم ، وكانت تلك الغزوات أمضى من أسلحة الحرب والدمار في ميدان القتال ، لأن الحرب في ميدان القتال ، لا تقتل إرادة الأمة ، ولا تفل من عزيمتها ، بل ربما كانت سبباً في زيادة تصميمها ، وتعبئة قواها ، وحفز طاقاتها لتحقيق النصر .

أما تلك الغزوات الفكرية ، فإنها تشل إرادة الأمم ، وتوهن عزائمها ، وتقطع الطريق أمامها ... فلا تستطيع استكمال مسيرتها لإعادة الحياة ، وتحقيق الآمال . وقد تمكن هذا الغزو الفكري الذي سُلِّط على أمتنا العربية والإسلامية أن يَشُلّ إرادتها ، وينال من كيانها ، ويفلّ من عزمها ، وصوّر لها هذا الغزو صوراً من البطولة في رجال من أبناء الغرب ، ضُرِبَ بهم المثل في ميادين البطولة حتى أصبح أبناؤنا يستمدون مثلهم العُليا من هؤلاء الأبطال الذين قرأوا عنهم القصص والأساطير . واستحدث الغزو الفكري من مظاهر الخلاعة والمجون في بعض البلاد ما باعد بين المسلمين وبين مقوماتهم الأصيلة ، فلم يُفرّقوا بين ما هو من صلب الحضارة الأصيلة كالتقدم الصناعي وبين ما يدمّر الحضارة ويشوهها كهذه المستحدثات التي تخاطب الغرائز المدمرة في الإنسان .

فكان لا بد من العودة إلى صفحات تاريخنا المشرق نستلهم منه ما يعيدنا إلى الطريق السَّويّ طريق الخلاص .

كان لا بد من ربط حاضرنا بماضينا ، واستلهام ذلك الماضي بما فيه من إشراق وقوة وبطولة .

كان لا بد أن نضع تلك الصفحات من البطولة الفذّة أمام أجيالنا الحاضرة لنرى فيها عبق هذا التاريخ المجيد ، فعود الثقة المفقودة ، ويعود الإحساس بالقدرة على صنع الحياة العظيمة التي تقدم العطاء السخيّ للإنسانية وتسهم في إعادتها إلى رشدها .

• • •

إننا حين نضع هذه السلسلة بين يدي القارىء الكريم مستمدّين شخصياتها من بطولاتنا الإسلامية ، إنما نضع المثل العليا الحقيقية أمام أجيالنا . تلك المثل التي استعذبت التضحيـــة والبذل والفداء في سبيل المبدأ والعقيدة ولم يدفعها إلى التضحية حرصٌ على مالٍ أو جاه أو عَرَضٍ زائل من أعراض هذه الدنيا ... التي أصبحت تأسر الكثير ، وتغري الكثير ، حتى أصبح السبيل إليها النفاق حيناً ، والخداع حيناً ، والبطولة الزائفة أحياناً .

• • •

ونحن حين نتحدث عن البطولات الإسلامية التي ضربها لنا هؤلاء القواد من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم ، فإنما نضرب أمثلة للذين كتبوا بجهادهم في الحرب والسلام صفحات يكمن سر النصر العظيم الذي حققه المسلمون على أعدائهم فيها

مبادين القتال .

فالسر يكمن في تلك النفوس التي أعدّها الإسلام ، فأشرق فيها نوره وتوهج فيها يقينه فاستعذبت التضحية ، ولبّت نداء ربّها في سماحة حين قال :

« إنَّ الله اشْتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ أنفُسَهُم وَأمْوَالَهم بأنَّ لَهُم الجَنَّةَ ، يقاتلُونَ في سَبيلِ الله ، فَيَقتلُونَ ويُقتَلُون ، وعداً عليه حقّاً، في التوراةِ والإنجيل والقُرآنِ وَمَنْ أوْفَى بعَهْدِهِ مِنَ الله ، فاستَبْشِرُوا بَبيعِكُم الذي بَايَعتُم به ، وذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيم »

صدق الله العظيم

ونحن حين نقدّم للقارىء الكريم في هذا الكتيب : أبا عبيدة ابن الجراح فإنما نضع بين يديه نموذجاً من الرّعيل الأوّل عاش حياة الشظف والمشقة في البادية، وبقي حتى فتح الله على يديه ملك الشّام ، وعاش غيره في بذخ ونعيم وآثر هو أن يبقى على حاله الأولى مثلاً أمام أصحابه لم تفتنه الدنيا ، ولم يغره الجاه والمنصب حتى زاره عمر بن الخطاب في بيته في الشام فبكى من شدة ما رأى :

لم ير عمر في بيته إلا لبداً ، وصفحة ، وقربة ماء حتى قال

عمر : « لقد غيّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة » .

لقد كان أبو عبيدة أحد العشرة السابقين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة .. عاش مجاهداً ، ومات مجاهداً ، وكان محدّثاً ، فقيهاً ، مؤمناً ، صادقاً ، قويّاً ، أميناً ، قائداً ، فاتحاً ، شهيداً .

قال فيه معاذ بن جبل : « والله ما رأيت رجلاً أبرّ صدراً ، ولا أبعد غائلة ، ولا أشدّ حبّاً للعاقبة ، ولا أنصح للعامة من أبي عبيدة » .

وندعك أيها القارىء لتقرأ هذه الصفحات لترى إشراقة النور ، وصفاء العقيدة .. فلعل شمس الأمس تعود ! ! !

والله نسأل أن ينفع بهذه السلسلة ، وأن تؤدي دورها في شحذ طاقات أبنائنا إلى ارتياد منابعنا الأصيلة ، والاغتراف منها ، واتخاذها منهجاً وأسلوباً في الحياة .

المؤلفان

أمين الأمّة

قال رسول الله ﷺ : « لكلّ أمّة أمين ، وأمين أمّتي أبو عبيدة » .

عندما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ ، قالوا له : يا أبا القاسم ، ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ليحكم بيننا في أشياء من أموالنا اختلفنا فيها ، فإنكم عندنا معشر المسلمين مرضيون ، فقال رسول الله ﷺ : أئتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين .

قال عمر بن الخطاب : فرحت إلى صلاة الظهر مبكراً وإني ما أحببت الإمارة حبّي إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحب هذا النعت ، فلما صلّى بنا رسول الله ﷺ الظهر — جعل ينظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل يقلب بصره فينا حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعاه فقال : أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، فقلت : ذهب بها أبو عبيدة أمين هذه الأمة كما قال عنه رسول الله ﷺ .

فمن هو أبو عبيدة أمين الأمة ؟

من هو ذلك القائد الفذ الذي قاد المسلمين من نصر إلى نصر ؟

اسمه عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة ابن الحارث بن فهر وأمه أمامة بنت غنم بن جابر بن عبد العزّى ابن عامرة بن عميرة ، وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة ابن الحارث بن فهر .

وقد نشأ أبو عبيدة في الجاهلية عزوفاً عن طباع أهـل الجاهلية ، ولم تعرف عنه سوءاتهم وسقطاتهم ، فكان شاباً مستقيماً مفكراً أميناً .

اشتغل بالتجارة ، فجاب الأقطار ، وبرز بين أقرانه موفور العزة نظيف السيرة صافي الروح ، حتى إذا أشرق فجر الإسلام تفتح له قلبه ، وطابت نفسه وأسرع إلى صديقه أبي بكر يستمع إليه ، ويفكر معه فتكشفت له حياة الجاهلية بضلالهـا وكفرها ، وظهرت له الدعوة المحمدية بجلالها فلما سأله أبو بكر يا ابن الجراح هل اهتدى قلبك ، واهتدى عقلك ؟

قال : أجل يا أبا عبد الرحمن ، هيا بنا إلى صاحبك فإنـه ليدعو إلى الخير ، وإنه لرسول رب العالمين .

ودخل أبو عبيدة في دين الله ، وكان ثامن من أسلم ، وصاحب رسول الله ﷺ ، مصاحبة الحب الكامل ، والامتزاج التام .

وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : لكل أمة أمين ، وأمين أمتي أبو عبيدة ، وأسلم أبو عبيدة بن الجراح مع عثمان بن مظعون ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأصحابهم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم .

أولاده :

كان لأبي عبيدة من الولد يزيد ، وعمير ، وأمهما هند ، بنت جابر بن وهيب بن ضباب بن حجير بن عبد معيض بن عامر ابن لؤي ، وقد مات ولدا أبي عبيدة في حياته فتوفي وليس له عقب .

هجرته في سبيل دينه :

لما بدأت الدعوة المحمدية في الانتشار تألمت قريش لذلك ، وثارت وأمعنت في الثورة ، فصارت تضطهد المسلمين ، وتمعن فيهم تعذيباً وتشريداً واعتداء فرأى النبي ﷺ ، أن يهاجر المسلمون إلى مكان أمين ، حتى ينجوا بدينهم ويضيعوا على خصومهم فرصة القضاء عليهم ، فبدأت الهجرة إلى الحبشة ، وكان في مقدمة المهاجرين ، أبو عبيدة ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وقد حملوا إلى النجاشي رسالة الإسلام ، فطمأنهم ، وآواهم وجعلهم في حمايته ، وبقي أبو عبيدة في

الجهاد ، فعاد إليها وهي تستعد لأولى معارك الجهاد في الإسلام وهي معركة بدر الكبرى .

قال تعالى :

« أُذِنَ للذين يُقاتَلُونَ بأنَّهم ظُلِمُوا ، وإن اللهَ عَلَى نَصْرِهم لَقَدير ، الَّذينَ أُخرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بغير حَقٍّ إلا أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله » .

وقد آخى الرسول ﷺ بين أبي عبيدة ، وبين سالم مولى أبي حذيفة ، وآخى بينه وبين محمد بن مسلمة .

أبو عبيدة بطل من أبطال الجهاد

لقد نزل في شأنه قول الله تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يُوادّون مَن حادّ اللهَ ورسولَه ، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عَشيرتَهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمانَ وأيَّدهم بروح منه ، ويُدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا إنّ حزبَ الله هم المفلحون »

صدق الله العظيم

(كان أبو عبيدة يحارب عن عقيدة ، فلم يسع قط إلى مغنم شخصي ، ولم يفكر في أن تكون له قيادة أو رياسة ، بل كان تفكيره وجهاده وعمله كله لله ولنصرة دين الله)

جهاده في سبيل إعلاء كلمة الله :

يعتبر أبو عبيدة من القواد القلائل الذين رباهم القائد الأكبر محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

فكان يحارب عن عقيدة : ولم يسع قط إلى مغنم شخصي ، ولم يفكر في أن تكون له قيادة أو رياسة ، بل كان تفكيره وجهاده وعمله كلّه لله ، ولنصرة دين الله فإمّا أن ينتصر ، وإما أن يلاقي ربه شهيداً ، وهذا هو سر بطولة المسلمين الأوائل .

ولهذا كانوا يندفعون في القتال بلا رهبة ولا خوف ، فكان أبو عبيدة ، في مركز الخطر أقرب ما يكون إلى العدو .

لما كان يوم بدر انطلق أبو عبيدة يصول بين الصفوف صولة من لا يهاب الردى فهابه المشركون ، ويجول جولة من لا يخاف الموت فحذره فرسان قريش وجعلوا يتنحّوْنَ عنه ، كلما واجهوه ، ولكن رجلاً منهم جعل يبرز لأبي عبيدة في كل اتجاه ، فكان أبو عبيدة يتحرف عن طريقه ويتحامى لقاءه ولَجَّ الرجل في الهجوم وأكثر أبو عبيدة من التنحّي ، وسَدَّ الرجُلُ على أبي عبيدة المسالك ، ووقف حائلاً بينه وبين قتال أعداء الله ، فلما ضاق به ذرعاً ضرب رأسه بالسيف ضربة فلقت هامته ، فخرَّ صريعاً بين يديه . فمن يكون هذا الرجل الصريع الذي ضاق به أبو عبيدة ذرعاً وتحمل وقوفه في طريقه مرات ؟

إنه هو عبد الله بن الجراح والد أبي عبيدة ! !

فلم يقتل أبو عبيدة أباه ، وإنما قتل الشرك في شخص أبيه ، فأنزل الله تعالى في شأن أبي عبيدة ، وشأن أبيه قرآناً فقال تعالى :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، يوادُّونَ من حادَّ اللهَ ورَسُولَهُ ولو كانُوا آباءهم أو أبناءَهُم ، أو إخوَانَهُم أو عَشيرتَهُم ، أولئك كَتَبَ في قلُوبهِم الإيمَانَ وأيَّدَهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار

خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون »[1] صدق الله العظيم .

ولم يكن ما عمله أبو عبيدة أمراً غريباً ، لأنه كان قوي الإيمان حريصاً على العقيدة .

أما في موقعة أحد :

فنرى أبا عبيدة قائداً بطلاً يدافع دفاع الأبطال ، ولما دارت الدائرة على المسلمين في أحد وانفلت زمام المعركة ، وكادت النكبة تحل ، ظهر أبو عبيدة في ساعة الشدة ، جندياً جباراً ، واندفع إلى جوار النبي ﷺ يدفع عنه الأذى ، ويتلقى عنه الضربات ، ويقدم نفسه فداء له ..

قال أبو بكر : لما كان يوم أحد ورُمِيَ رسول الله ﷺ في وجهه حتى دخلت حلقتان من المغفر في وجنتيه ، فأقبلت أسعى إلى الرسول ﷺ ، وإنسان قد أقبل من المشرق يطير طيراناً فقلت : اللهم اجعله طاعة حتى توافينا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فاذا أبو عبيدة قد بدرني قائلاً : أسألك بالله يا أبا بكر ألا تركتني فأنزعه من وجنة الرسول ﷺ . فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتي المغفر فنزعها وسقط على ظهره ، وسقطت

---

(١) سورة المجادلة : ٢٢ .

فكان أبو عبيدة أثرم ، وكان أحسن أهتم خُلق .

وفي موقعة ذات السلاسل :

ذهب لإمداد عمرو بن العاص في هذه الغزوة ، وكان رسول الله قد عقد له لواء وجعل معه سراة المهاجرين والأنصار في مائتين ، وأمره أن يكون وعمرو معاً فلا يختلفا .

فلما لحق بعمرو أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال له عمرو : إنما قدمت مدداً وليس لك أن تؤمني وأنا الأمير .

فقال المهاجرون : وفي طليعتهم أبو بكر وعمر ، بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أميرنا ، فقال عمرو : لقد أمددت بكم فأنا القائد .

وهنا حسم أبو عبيدة الموقف في سماحة ورضا فقال : يا عمرو تعلمنّ أن آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ أن قال : انظرنّ إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك .

أبو بكر يعلن التعبئة العامة لقتال الروم :

عندما أعلن أبو بكر التعبئة العامة لقتال الروم قال لقواده :

إذا اجتمعتم على قتال فقائدكم أبو عبيدة .

لما أراد أبو بكر قتال الروم جمع بجنوده خير القادة فجعل على الجيش الأول يزيد بن أبي سفيان ووجهته شرق الأردن ، وعلى الجيش الثاني شرحبيل بن حسنة ووجهته البلقاء ، وعلى الجيش الثالث عمرو بن العاص ووجهته فلسطين وعلى الجيش الرابع أبو عبيدة ووجهته حمص ثم قال لقواده إذا اجتمعتم فقائدكم أبو عبيدة وتعتبر وصية الخليفة الصديق من أروع ما أسفرت عنه تعاليم القيادة ، وتوجيهات القادة العظام قال :

« إذا سرت فلا تضيِّق على نفسك ، ولا على أصحابك في سيرك ، ولا تغضب على قومك ، ولا على أصحابك ، وشاورهم في الأمر ، واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فإنه لا يفلح قوم ظلموا ، ولا نصروا على عدوهم وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار ، « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »[1] .

وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ، ولا تغدروا إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا إذا صالحتم » .

---

(١) سورة الأنفال : ١٦ .

ومن أهم المعارك التي شارك فيها أبو عبيدة المعركة الفاصلة بين الروم والعرب وهي معركة اليرموك فإلى اليرموك... إلى اليرموك.

(كان أبو عبيدة قائدا على القلب في معركة اليرموك، وأبلى في ذلك بلاء حسنا) :

لقد سير أبو بكر إلى الروم أربعة جيوش بقيادة أربعة من القواد الكبار وسيرهم في طرق مختلفة ووجههم وجهات متعددة، فسير « يزيد بن أبي سفيان » على رأس جيش عدده ستة آلاف وأمره أن يتجه إلى دمشق، وسير « شرحبيل بن حسنة » على مثل هذا العدد إلى الأردن، وسير « عمرو بن العاص » على رأس جيش يزيد على ذلك قليلاً إلى فلسطين، وسير « أبا عبيدة بن الجراح » على رأس خمسة آلاف أو ستة إلى « الجابية » وأمدهم بعكرمة بن أبي جهل في جيش صغير ليحمي ظهور من يحتاج منهم إلى الحماية، ويسرع بالنجدة إلى من يطلب منهم المعونة، ولعل الحكمة في ذلك تشتيت جيوش الروم لتحارب في جبهات متعددة.

ولكن هذه الجيوش الإسلامية قد نجحت في وجهاتها، فتقدم بعضها إلى دمشق، وبعضها إلى حمص، وأوغل

بعضها إلى فلسطين . وقد نُمي إلى الخليفة أن القيصر يستعد للقاء هذه الجيوش بجيشين يزيد عدد الأول منهما على مائتين وأربعين ألفاً ، والثاني سبعون ألفاً ، وقد استقر رأي القواد على التراجع إلى الجنوب لتكون ظهورهم إلى الصحراء ، ووافقهم الخليفة على هذا التراجع .

وقد طلب المسلمون المدد من الخليفة فأمدهم بخالد وقال أبو بكر : خالد لها ، فبعث إليه وهو بالعراق ، وطلب منه التوجه إلى الشام لمساندة جيش المسلمين هناك واستحثه في السير ، وطلع خالد على المسلمين ففرحوا به فرحاً شديداً ولما اجتمع المسلمون في الجنوب ، رأوا أن يبدأوا بأصغر القوتين حتى يطهروا الجنوب قبل الانتقال إلى الشمال ، والقضاء على قوة الروم المرابطة في « أجنادين » ولم يشترك في هذه المعركة معظم القواد المسلمين ، وقد هزم الروم في هذه المعركة وفروا من أمام قوات المسلمين الحصينة ، وكانت الموقعة الحاسمة هي معركة اليرموك الفاصلة .

تولى خالد القيادة العامة في (اليرموك) وكان أبو عبيدة على القلب وأبلى في ذلك بلاء حسناً ساعد على انتصار المسلمين في هذه المعركة التاريخية الخالدة .

دور أبي عبيدة في معركة اليرموك :

روي أن الطاغية « هرقل » لما بعث جيوشه إلى قتال

جيش الروم إلى « شيزر » فارقتهم عيون « أبي عبيدة » وساروا طالبين عسكر المسلمين ، فلم يجدوهم على حمص فسألوهم عنهم ، فأخبروهم أنهم رحلوا لأن الأمير أبا عبيدة رضي الله عنه ، لما فتح حمص ترك عندهم من يأخذ الخراج والذي تركه عندهم رجال من أهل حمص من كبرائهم ورؤسائهم .

وجعل الجواسيس يسيرون حتى وصلوا « الجابية » ، وحضروا بين يدي الأمير « أبي عبيدة » وأخبروه بما رأوه من عظم الجيوش والعساكر ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك عظم عليه وكبر لديه وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وبات قلقاً لم تغمض له عين خوفاً على المسلمين ، فلما طلع الفجر أذّن فصلى بالمسلمين فلما فرغ من صلاته ، أقسم على المسلمين ألا يبرحوا حتى يسمعوا ما يقول :

أبو عبيدة يخطب في القوم :

قام أبو عبيدة فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ وترحم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ودعا للمسلمين بالنصر وقال : « يا معاشر المسلمين أعلموا رحمكم الله ، أن الله ابتلاكم ببلاء حسن لينظر كيف تعملون ، وذلك عندما صدقكم الوعد ، وأيّدكم بالنصر في مواطن كثيرة ،

واعلموا أن عيوني أخبروني أن عدوّ الله « هرقل » استنجد علينا بكبار بلاد الشرك وقد سيرهم إليكم وأثقلهم بالزاد والسلاح « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون »[1] .

واعلموا أنهم قد ساروا إليكم في طرق مختلفة ، ووعدهم طاغيتهم أن يجتمعوا بإزائكم على قتالكم ، واعلموا أن الله معكم ، وليس بكثير من يخذله الله وليس بقليل من يكون الله معه ، فما عندكم من الرأي رحمكم الله ؟ »

ثم قال لبعض عيونه ، قم وأخبر المسلمين بما رأيت ـ فقام الرجل وأخبر الناس بما رأى من الجيوش الثقيلة ، وعَدَدُها وعديدها ، فعظم ذلك على المسلمين وداخل قلوب رجال منهم الهيبة والجزع ، وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ولم يرد أحد منهم جواباً ، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه ، ما هذا السكوت عن جوابي رحمكم الله ، فأشيروا عليّ ، أيّدكمُ الله ، فإن الله عز وجل يقول لنبيه « وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » .

فتكلم رجل من أهل السبق وقال : أيها الأمير أنت رجل لك رفعة ومكانة ، وقد نزلت فيك آية من القرآن ، وأنت الذي جعلك رسول الله ﷺ أمين هذه الأمة ، فقد قال صلوات الله

---

(١) سورة الصف : ٨ .

الجراح .

أشر علينا أنت بما يكون فيه الصلاح للمسلمين ، فقال الأمين أبو عبيدة رضي الله عنه :

« إنما أنا رجل منكم تقولون وأقول ، وتشيرون وأشير والله الموفق في ذلك » فقام إليه رجل من أهل اليمن وقال :

« أيها الأمير الذي نشير به عليك أن تسير من مكانك ، وتنزل في فرجة من وادي القرى فيكون المسلمون قريبين من المدينة ، والنجدة تصل إلينا من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وإذا طلب القوم أثرنا وأقبلوا إلينا كنا عليهم ظاهرين » .

فقال أبو عبيدة رضي الله عنه : اجلسوا رحمكم الله فقد أشرتم بما عندكم من الرأي ، وإني إن برحْتُ من موضعي هذا كره لي عمر بن الخطاب ذلك وأخذ يعنفني ويقول : تركت مدائن فتحها الله على يديك ونزحت عنها وكان ذلك هزيمة منك ، ثم قال : أشيروا عليَّ برأيكم رحمكم الله .

فقام إليه قيس بن هبيرة المرادي وقال : يا أمير المؤمنين : لا ردَّنا الله إلى أهلنا سالمين إن خرجنا من الشام ، وكيف ندعُ هذه الأنهار المتفجرة ، والزروع والأعناب والذهب والفضة ، والديباج ، ونرجع إلى قحط الحجاز وجدبه وأكل خبز الشعير

ولباس الصوف ، ونحن في مثل هذا العيش الرغيد ؟

فإن قتلنا فالجنة وعدنا ، ونكون في نعيم مقيم لا يشبه نعيم الدنيا ،فقال أبو عبيدة رضي الله عنه ،صدق والله قيس بن هبيرة ، وبالحق نطق ثم قال : « يا معاشر المسلمين ، أترجعون إلى بلاد الحجاز والمدينة ، وتدعون لهؤلاء الأعلاج قصوراً وحصوناً ، وبساتين وأنهاراً ، وطعاماً وشراباً ، وذهباً وفضة ، مع ما لكم عند الله عز وجل في دار البقاء من حسن الطعام ، ولقد صدق قيس بن هبيرة في قوله لنا :

ولسنا ببارحين منزلنا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكين » قال فوثب قيس بن هبيرة وقال صدق والله قولك أيها الأمير وأعانك على ولايتك ولا تبرح مكانك ، وتوكل على الله ، وقاتل أعداء الله ، فإن فاتنا فتح عاجل فما يفوتنا ثواب آجل .

فقال أبو عبيدة رضي الله عنه « شكر الله فضلك ، وغفر لنا ولك والرأي رأيك ، وتتابع قول المسلمين بحسن رأيهم إلا خالد ابن الوليد فإنه ساكت لا يقول شيئاً .

أبو عبيدة يستشير خالد بن الوليد :

بعد أن استمع أبو عبيدة إلى آراء بعض المجاهدين من المسلمين أراد أن يستنير برأي القائد الفذ خالد بن الوليد .

فقال أبو عبيدة رضي الله عنه : يا أبا سليمان أنت الرجل الجريء والفارس الشهم ، ومعك رأي وعزم ، فما تقول ، فيما قال قيس بن هبيرة ؟

فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : نعم ما أشار به قيس إلا أن الرأي عندي غير رأيه ، ولكني لا أخالف المسلمين ، فقال : إن كان عندك رأي فيه صلاح فأت به ، وقلنا لرأيك تبع . فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه « اعلم أيها الأمير أنك إن أقمت في مكانك هذا فإنك تعين على نفسك لأن الجابية قريبة من قيسارية ، وفيها قسطنطين ابن الملك « هرقل » في أربعين ألف فارس ، وأهل الأردن قد اجتمعوا إليه خوفاً منكم والذي أشير به عليكم أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا أذرعات خلف ظهوركم حتى بنزلوا اليرموك ، ويكون المدد من أمــير المؤمنين عمر بن الخطــاب رضي الله عنه ، قريباً منكم ، ومتلاحقاً بكم ، وأنتم على فتح لقتال عدوكم ، وهي أرض واسعة لمجال الخيل » .

فلما نطق خالد بن الوليد بهذا الكلام ، قال المسلمون : نعم ما أشار به خالد بن الوليد ، وقال أبو سفيان بن حرب : أيها الأمير افعل برأي خالد بن الوليد وابعثه إلى ما يلي الرمادة ، فيكون بين عساكرنا وعساكر الروم المقيمة بالأردن لئلا تدهى منهم عند رحلينا فإنه سيكون لرحيلنا ورحيل عسكرنا بين هذه الأشجار ضجة عظيمة وجلبة هائلة ، فيداخل عدوكم فيكم

الطمع فإن أقبلوا يريدون غارة ومكيدة لقيهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بمن معه .

فقال خالد بن الوليد : والله يا ابن حرب لقد نطقت عن ضميري ، وهكذا الرأي عندي .

وعند ذلك أمر أبو عبيدة الناس بالرحيل من الجابية فرحلوا ، ودعا أبو عبيدة بجيش خالد بن الوليد الذي أقبل به من أرض العراق ، وهو جيش الزحف وهو يومئذ أربعة آلاف فارس ، وأمر خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يسير بهم ويكون على طلائع المسلمين وحرسهم من وراء ظهورهم .

قال ووقعت الضجة للمسلمين عند رحيلهم ، حتى سمع ضجيجهم من مسيرة فرسخين وطلبوا اليرموك ، وسمع الروم المجتمعة بالأردن ضجة المسلمين عند رحيلهم فظنوا أنهم هاربون إلى الحجاز لما بلغهم من جيش هرقل ، فطمعوا فيهم وهموا بالغارة على أطرافهم ، فلقيهم خالد بن الوليد رضي الله عنه فصاح في رجاله وقال « دونكم والقوم فهذه علامة النصر » .

قال فانتضى المسلمون سيوفهم ، ومدوا الرماح ، وحمل خالد بن الوليد ، وحمل ضرار بن الأزور ، والمرقال ، وطلحة ابن نوفل العامري ، وزاهد بن الأسد وعامر بن الطفيل ، وابن أكال الدم ، وغير هؤلاء من الفرسان حتى وصلوا إلى الأردن ، فغرق منهم خلق كثير ، ورجع خالد بن الوليد رضي الله عنه وأما أبو عبيدة فإنه نزل باليرموك ، وجعل أذرعات من خلفه ،

وكان هنالك تل عظيم فعمد أبو عبيدة رضي الله عنه إلى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدهم على ذلك التل وأقام الحراس والطلائع على سائر الطرقات .

وقد أمر أبو عبيدة نساء المسلمين ، أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن ، فإن كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه وإن رأين أحداً منهزماً ضربن وجهه بأعمدتهن ، وأرجمنه بحجارتهن ورفعن إليه أولادهن وقلن له : « قاتل عن أهلك وعن الإسلام » .

ولم يقتنع خالد بما قاله أبو عبيدة لهن بل قال « يا نساء المسلمين أيما رجل أقبل عليكن منهزماً فاقتلنه » .

وأقام المسلمون باليرموك وهم مستعدون لقتال عدوهم ، كأنهم ينتظرون وعداً وُعدوا به ، وبلغ الخبر إلى «قسطنطين» ابن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك ، وأن ملوك الروم سائرون لقتالهم فبعث رسولاً إلى الملوك يستضعف رأيهم في إبطاء أمرهم ويحثهم على قتال المسلمين ، فلما ورد رسوله « ماهان » دعا بالملوك والبطارقة وقرأ عليهم كتاب «قسطنطين» ابن الملك هرقل وأمرهم بالمسير ، فسارت جيوش الروم يتلو بعضهم بعضاً ، لا يمرون ببلد من مدائن الشام ، التي فتحها المسلمون ، إلا ويعنفون أهلها ويقولون لهم يا ويلكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم إلى العرب .

فيقولون لهم : أنتم أحق بالملامة منا لأنكم هربتم منهم

وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن أنفسنا . فيعرفون الحق فيسكتوا ، ولم يزالوا سائرين حتّى وصلوا إلى اليرموك فنزلوا بدير يقال له دير الجبل وهو بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ طولاً وعرضاً .

فلما تكاملت الجيوش باليرموك أشرفت سوابق الخيل على أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان جبلة بن الأيهم في المقدمة في ستين ألف فارس من العرب المتنصرة من لخم وغسان وجزام وهم على مقدمة « ماهان » .

فلما نظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى كثرة جيوش الروم قالوا : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال عطية بن عامر :

فوالله ما شبّهتُ عساكر الروم في اليرموك إلا كالجراد المنتشر إذا سد بكثرته الوادي . قال : ونظرت إلى المسلمين قد ظهر منهم القلق وهم لا يفترون عن قول « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وأبو عبيدة يقول : « ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » قال وأخذ المسلمون أهبتهم ودعا الأمير أبو عبيدة بجواسيسه من المعاهدين ، وأمرهم أن يدخلوا معسكرات الروم يجسّون له خبرَ القوم وعددهم وعتادهم وسلاحهم ، وقال أبو عبيدة رضي الله عنه :

التعبئة المعنوية قبل المعركة :

لقد استعان الروم بالقسس يلهبون الحماسة ويضرمون الحفيظة ، ويهونون على أتباعهم بذل الروح في سبيل الدولة والمجد القديم .

« وأقبل المسلمون على القرآن يرتلونه ، وعلى العظات يثيرون بها الحماسة ، ويهوّنون بها أمر الدنيا » وقرأ المقداد على الجيش سورة الأنفال ووعظ كل رئيس جنده .

« وكانت خطبة عمرو بن العاص جماع هذه العظات فقال : غضُّوا الأبصار واجثوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم ، فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة ، فثبوا في وجوههم وثبة الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ، ويجزي بالإحسان إحساناً — لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفْراً كفْراً ومَصراً مَصراً ، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم فإنكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول »[1] .

---

(١) الحجول جمع حَجَل وهو اليعسوب (النحل) والنحـــل يطير في جماعات كثيرة .

توحيد القيادة :

ولم يشأ خالد أن يبدأ المعركة بقيادة متفرقة فصرف همّه الأول إلى تنظيم الفرق جميعاً بحيث يقودها رجل واحد وقال لهم : هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي : أخلصوا جهادكم ، وارضوا الله بعملكم ، فإن هـــذا اليوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم متساندون .

ثم قال : « إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ .... هلموا فلنتعاون الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمّر كلكم ، ودعوني إليكم اليوم » .

ثم رتب قواده وجنوده على الوضع الملائم للحرب في «العمق» كما يقول العسكريون في هذه الأيام .

وأقام « عمرو بن العاص » على الجناح الأيمن ، و « يزيد ابن أبي سفيان » على الجناح الأيسر و « أبا عبيدة بن الجراح » على القلب ، واتخذ مكانه في كبة الجمع وميز بين كل فرقة ، والأخرى ليثير الحماسة في نفوسهم ، وليرى من قبل أيهم يكون التراجع .

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الروماني ، إذا أمعن في الهجوم والإطباق عليه مع القلب إذا ارتد إلى الوراء .

ثم جاء يوم الالتحام وكان يوماً شديد القيظ ، فيه ريح سموم ، فكان تحمل المسلمين له أكثر من قدرة الروم واحتمالهم ، واشتبك الجيشان ، وكانت الهجمة الأولى للروم ، ثم كانت الكرة الثانية لحمية العقيدة والإيمان بالله وبالنصر ، وضرب نساء المسلمين في وجوه الخيل المرتدة قائلات : إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة ؟

وصاح عكرمة « من يطلب الشهادة ؟ » فبايعه أربعمائة فارس ، فصمدوا وصبروا وصابروا ، وقتل في طليعتهم عكرمة وابنه ، ولم ينج منهم قط إلا جريح مثخن بجراحه وأفلحت الكرة الثانية ، فتقهقر الروم وفصل خالد بين خيل العدو ومشاته وولت الخيل هاربة فأخلى لها المسلمون الطريق ، ورجع المشاة إلى الخنادق فتبعهم المسلمون ، حتى شاع فيهم الذعر ، وسقطوا في وادي الرقاد وقيل إن قتلاهم في هذا الوادي كانوا أكثر ممن قتل في المعركة لأنهم قدروا بثمانين ألفاً .

وحق لهرقل بعد اليرموك أن يودع الشام إلى عاصمة ملكه المتصدع وداعاً ، كما قال — ليس بعده لقاء .

أبو عبيدة : أخلاقه وصفاته

قال رسول الله ﷺ :

« ما أحدٌ مِنْ أصحابي إلاّ لو شئت لأخذت عليه في خلقه ، ليس أبو عبيدة بن الجراح » .

صفات أبي عبيدة ومنزلته :

قال عبد الله بن عمرو : « أصبحُ الناس وجوها ، وأحسنهم خلقا ، وأشدهم حياء ثلاثة : أبو بكر ، وعثمان ، وأبو عبيدة » .

كان أبو عبيدة معروق [1] الوجه ، خفيف اللحية ، طوالاً ، أجنأ [2] ، أثرم [3] ، وما رؤى أهتم قط أحسن منه. وكان يخضب رأسه ولحيته بالحناء والكتم [4] .

وربما كان هناك من يشابهه في صفاته الجسمية ، وفي مزايا قيادته ، ولكن أبا عبيدة تفوق على أقرانه في مزاياه الإنسانية .

وحسبه أن يكون فريداً في خلقه حتى بين الصحابة بشهادة

---

(١) قليل لحم الوجه .
(٢) ناتىء الوجنة .
(٣) انكسرت ثنيتاه .
(٤) الكتم نبت يخضب به .

لأخذت عليه في خلقه ، ليس أبو عبيدة بن الجراح ».

وكان يدعى بين الصحابة القوي الأمين ، لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لأهل نجران « لأرسلن معكم القوي الأمين » ولقوله « لكل أمة أمين ، وأمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح ».

لذلك كان من أحب أصحاب النبي ﷺ إلى النبي ، فقد قيل لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أي أصحاب رسول الله ﷺ كان أحب إليه ؟ فقالت : « أبو بكر ثم أبو عبيدة بن الجراح ».

وقد وصفه عبد الله بن عمرو قائلاً « أصبحُ الناس وجوهاً ، وأحسنهم خلقاً وأشدهم حياء ثلاثة : أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة ».

(لقد كان أبو عبيدة أحد العشرة السابقين للإسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة)

لما توفي رسول الله ﷺ ، أتى بعض الناس أبا عبيدة ليبايعوه بالخلافة فقال : كيف تبايعونني وفيكم الصديق ، صاحب رسول الله ، و « ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه ، لا تحزن إن الله معنا ».

وكان عمر بن الخطاب ممن أتاه يومذاك فقال : « ابسط يدك فلأبايعك ، فإنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ﷺ ؛ فقال أبو عبيدة لعمر ، ما رأيت لك فَهْةً قبلها منذ أسلمت ، أتبايعني وفيكم الصديق ، وثاني اثنين ؟ » .

وبينما كان عمر وأبو عبيدة في هذا الحديث ، علما بأن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للمسلمين ، فأرسل عمر إلى أبي بكر في بيت عائشة أم المؤمنين ، وقصدوا سقيفة بني ساعدة . فقال أبو بكر « ما هذا ؟ » فقال الأنصار « منا أمير ومنكم أمير » فقال أبو بكر : « منا الأمراء ومنكم الوزراء » ثم قال « وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، عمر أو أبو عبيدة ، أمين هذه الأمة » .

فقال عمر وأبو عبيدة : لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر — فبايعاه وولى أبو بكر أبا عبيدة منصب القيادة العامة في (أرض الشام) فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك ، ولكن أبا بكر أصر على رأيه ، فلما تحرج موقف المسلمين في (أرض الشام) واجتمعوا باليرموك ، ولى أبو بكر خالداً منصب القيادة العامة في الشام بدلاً من أبي عبيدة . ولكن عمر أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر ، وصير خالداً مكان أبي عبيدة ، أي أن خالداً أصبح قائداً مرؤوساً لأبي عبيدة في « أرض الشام » فلم يخبر أبو عبيدة خالداً بعزله إكراماً له وإجلالاً ، فلما علم خالد بعزله ، وتولّي أبي عبيدة مكانه قال للناس — لقد أمر

رسول الله ﷺ يقول خالد سيف من سيوف الله ، نعم فتى العشيرة » لقد كان كلاهما فوق المناصب ، وكلاهما يعتبر هذا (تكليفاً) لا (تشريفاً) فلا عجب ألا يؤثر عزل أحدهما على نفسية الآخر ، ولا على علاقته الشخصية به .

زهد أبي عبيدة :

كان أبو عبيدة لا يكترث بالمناصب ، وكان لا يهتم بمتاع الدنيا من مال وعقار ، فقد أرسل عمر بن الخطاب بأربعة آلاف درهم ، وأربعمائة دينار ، وقال لرسوله « أنظر ما يصنع ! » فقسمها أبو عبيدة ، فلما أخبر عُمَرَ رسُولُه بما صنع أبو عبيدة بالمال قال : « الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا ! »

ولما قدم عمر الشام ، تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : أين أخي ؟ فقالوا : مَن ؟ قال : أبو عبيدة قالوا : يأتيك الآن . فجاء على ناقة مخطومة بحبل . فسلم عليه ، فقال عمر للناس : « انصرفوا عنا ! »

وسار مع أبي عبيدة حتى أتى منزله ، فنزل عليه ، فلم يرَ في بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : « لو اتخذتَ متاعاً ، أو قال شيئاً » فقال أبو عبيدة « يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل » .

وفي رواية أن عمر قال : « اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة » ، فقال له وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين ؟

ما تريد إلا أن تعصر عينك عليّ ! ودخل عمر فلم يرَ في

البيت شيئاً ، فقال فأين متاعك ؟ لا أرى إلا لبداً وصفحة وقربة وأنت أمير ! . أعندك طعام ؛ فقام أبو عبيدة إلى جونة وهي سلة مستديرة فأخذ منها كسيرات فبكى عمر فقال أبو عبيدة : قلت لك إنك مستعصر عينك عليّ يا أمير المؤمنين ! يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، فقال عمر « غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة » .

بكاؤه على بسط الدنيا :

روي أن أبا عبيدة رضي الله عنه كان يبكي فقال له أحد أصحابه ما يبكيك يا أبا عبيدة ؟ فقال : نبكي أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً ما يفتح الله على المسلمين ، ويفيء عليهم حتى ذكر الشام فقال « أن ينسأ الله في أجلك يا أبا عبيدة ، فحسبك من الخزم ثلاثة ، خادم يخدمك ، وخادم يسافر معك وخادم يخدم أهلك ويرد عليهم ، وحسبك من الدواب ثلاث : دابة لرحلك ودابة لثقلك ، ودابة لغلامك .

ثم هذا أنا أنظر إلى بيتي وقد امتلأ رقيقاً ، وأنظر إلى مربطي قد امتلأ دواب وخيلاً ، فكيف ألقى رسول الله ﷺ بعد هذا ؟

وقد أوصانا رسول الله ﷺ ، فقال « إن أحبكم إلي ، وأقربكم مني من لقيني على مثل الحال الذي فارقني عليها » .

« أبو عبيدة القائد »

لئن كانت شهرة خالد بن الوليد الحربية سبقته إلى أهل الردة ، وإلى العراق وأرض الشام فتحدث عنها العـــدو والصديق .

فإن شهرة أبي عبيدة في الحلم والرفق وسعة الصدر والأمانة والصدق وحب السلام ، قد سبقته كذلك إلى أهل الشام .

لذلك أحبوه ، ويسروا له مهمته ، وكان من أثر ذلك أن كثر تسليم مدن الشام صلحاً ، وبذلك حقنت كثير من الدماء ، واطمأنت كثير من النفوس .

لقد توفرت في أبي عبيدة بالإضافة إلى خلقه الرفيع وإيمانه الراسخ بعض المزايا العسكرية التي أهلته لتولي القيادة في عهد الرسول القائد وفي عهد الشيخين أبي بكر وعمر من بعده .

فقد كان من شجعان قريش المعدودين ، ثبت حين انهزم الناس يوم (أحُدٌ) ذلك اليوم الذي لم يثبت فيه إلا أشجع الشجعان كما كان ذا عقيدة من الطراز الأول ؛ يستهين بالأخطار في سبيل عقيدته وكان ذا عقلية متزنة ، وذكاء وقاد ، كان لهما أثر مهم على إعداد خططه العسكرية الصحيحة ؛ وكان موضع ثقة الناس وحبهم له إلى درجة الإعجاب بمزاياه الخلقية والقائدية ، وكان يساوي نفسه برجاله بل يستأثر دونهم

بالأخطار ولذا نراه يقول :

« إني من جند المسلمين ، لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمـــره وقضاءه » .

ولعل هناك من يأخذ على أبي عبيدة تريثه الشديد قبل الإقدام على خوض معركة من معاركه .

والحق أن هذا التريث كان موضع نقد كثير من المندفعين المتحمسين في جيشه فقد بلغ معاذ بن جبل ، أن بعض أهل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار « دمشق » ورجّح خالد بن الوليد ، فغضب معاذ وقال : « أبأبي عبيدة يُظَنّ ؟ والله إنه لمن خير من يمشي على الأرض » .

وسمع معاذ رجلاً يقول :

« لو كان خالد بن الوليد ، ما كان للبأس وجود » وذلك في أيام حَصْر أبي عبيدة بحمص ، فقال معاذ : فإلى أبي عبيدة تطلب المعجزة ؟!

لا أبالك ؟! والله إنه لمن خير من يمشي على الأرض .

وهذا يدل على مبلغ ثقة كبار الصحابة بقيادة أبي عبيدة ، وشدة اعتمادهم عليه .

لقد كان أبو عبيدة من القادة الذين يستشيرون رجالهم في

الشام ، استشار أصحابه ، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في « حمص » أما خالد بن الوليد ، فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم ، ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية ، فاستمد عمر بن الخطاب ، وأخبره بالموقف الراهن ، وكان بعيد النظر ، يدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات ، لذلك شحن النواحي المخوفة بالرجال للدفاع عنها عند الحاجة ، ريثما تردهم الإمدادات . وبهذه التدابير الاحتياطية لم يستطع العدو في أيامه استعادة أي موقع فتحه المسلمون ، وإذا كان الإيمان بالقضاء والقدر عاملاً من عوامل انتصار المسلمين ، فقد كان أبو عبيدة مثالاً شخصياً رائعاً لرجاله في إيمانه العميق بالقضاء والقدر ، كما كان مهيباً مؤثراً في نفوس رجاله ، حين كان يتجول في معسكراتهم وهو يقول :

« ألا رب مبيض لثيابه وهو مدنس لدينه : ألا رب مكرم لنفسه ، وهو لها مهين غداً ! ادفعوا السيئات القديمة بالحسنات الحادثات » ...

وهو بالإضافة إلى ذلك كان صحيح القرار ، غير متسرع في إصداره ، ذا إرادة قوية نافذة ونفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار ، وشخصيته قوية ، ولها قابلية بدنية مختارة يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويحبونه ، وله ماض ناصع مجيد .

ولهذه الأسباب أمّرهُ الرسول القائد عليه الصلاة والسلام في حياته على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غزوات ، كان أبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق من بين جنوده في بعض تلك الغزوات ، فنجح أبو عبيدة في قيادته نجاحاً باهراً لذلك حرص كل من الشيخين غاية الحرص على توليته مقاليد القيادة في أيامهما بل رشحاه بجدارة لتسلم مقاليد الخلافة .

والخليفة حينذاك هو القائد الأعلى لقوات المسلمين .

وكان في أعماله الحربية يطبق مبدأ (المباغتة) كما فعل في معركة اللاذقية ويعمل على « اختيار مقصده وإدامته » ويبذل أقصى جهده لإكمال تحشيد قواته قبل المعركة ولكنه كان « يقتصد بالمجهود » ولا يسرف في استخدام قطاعات كبيرة بدون مبرر ، ولا يسمح بإعطاء خسائر كثيرة دون جدوى ، وكان يحرص على استكمال متطلبات (الأمن) لقطاعاته حتى تستطيع العمل بـ (مرونة) و (تعاون) كما كان (يديم معنويات) رجاله ويؤمن لها كافة (الأمور العادية) .

تلك هي مزاياه في القيادة ، وهذه هي مبادىء الحرب التي كان يطبقها في معاركه . كل ذلك أدّى إلى نجاحه في معاركه ، التي خاضها ، وهي معارك « استثمار الفوز » أو معارك « التطهير » التي تكون عادة بعد المعارك الحاسمة .

فقد فضل التخلي عن القيادة العامة في معركة (اليرموك) الحاسمة فاستمد أبا بكر ، فأمده بخالد بن الوليد قائلاً « خالد

فخاض معارك الفوز بنجاح باهر يكاد يعتبر معجزة عسكرية إذا أدخلنا في حسابنا تفوق الروم العسكري الساحق على المسلمين وسرعة إنجاز الفتح وقلة الخسائر في الأرواح التي ضحى بها المسلمون من أجل فتح بلاد الشام كلها .

لقد جاهد أبو عبيدة في سبيل الله أعظم الجهاد ، وبقي يجاهد إلى آخر لحظة من حياته ، فسقط صريعاً بالطاعون ، ولم يسقط من يده السيف ، وهذا يدلنا على شجاعته النادرة التي ظهرت في كل معاركه الحربية .

(أرسل عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة يقول « قد وليتك على الشام وجعلتك أميرا على المسلمين ، وعزلت خالد بن الوليد — والسلام)

بعد معركة اليرموك — كان أبو عبيدة بن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد — لأنه موقف التسليم والمسالمة واستلال الحقود وضمد الجراح ، وتقريب القلوب ، وفي جميع أولئك يتسع المجال لمودة أبي عبيدة ، ويضيق بضربات خالد .

فأبو عبيدة يسرع إلى المسالمة ، إذا فتحت له أبوابها ، ولا يبطىء عن الحرب إذا وجبت عليه أسبابها فإن كان بالمسالمة جدوى فذاك .

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتساومون بحلم أبي عبيدة ، فيقبلون على التسليم إليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حيناً ويسخط منه حيناً ، كما سخط عند تسليم دمشق ، ووساطة أبي عبيدة في العفو عن أهلها ، لأنه كان يحسبهم مغلوبين عنوة ، فيعاقبون بالسجن والقصاص ، ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادعة ، ولولا أنه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة ، لما كان لهم من شرط عنده غير شرطه على أهل قنسرين .

فصواب التاريخ ، وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا هنا بإسناد الأمر إلى أبي عبيدة بن الجراح في أوانه المقدور .

لقد بلغ عمر بن الخطاب ، أن خالد أجاز شاعراً ، مدحه بعشرة آلاف درهم ، فعظم ذلك على عمر ، وكتب إلى أبي عبيدة يسأل خالداً عن المال الذي أجاز به الشاعر ، فإن أقر بأنه من ماله فقد أسرف ، وإن أقر بأنه من مال المسلمين فقد خان ، وأمره أن يعزل خالداً ويقاسمه ماله على كل حال ، فصدع أبو عبيدة بالأمر .

ولما سأل خالداً عن ذلك أجابه بأن المال الذي أجاز به الشاعر من ماله فأطلقه وقاسمه ماله .

ولما عزل خالد ، خطب في أهل عمله ، وودعهم وأظهر الطاعة ، وقصد المدينة فلقي عمر وعاتبه فأرضاه عمر .

وأعلن في الناس ، أنه لم يعزل خالداً عن خيانة ، ولا

نفس عمر ، أو لمنافسة بينهما أو لغير الأسباب التي يحاسب عليها جميع الولاة .

فليس أسخف من أن يقال إن العزل لبغضاء قديمة ، لأن عمر كان أشد الناس حساباً لنفسه ، وأصعب الناس أن يحصى عليه خطأ ، بل لو أحس عمر هذه الشبهة ، لأجل العزل .

والحق أن عمر حاسب خالداً ، كما حاسب عمرو بن العاص ، وسعد بن أبي وقاص وزياد بن أبيه .

وكان عمر قد أشار على أبي بكر بمحاسبة الولاة ، فحاسبهم وأبى خالد ولم يكن عمر ليكف عن عمل أشار به على أبي بكر .

(لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه بالخلافة)

(عمر بن الخطاب)

تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق رضي الله عنهما ، ورأى الفاروق في أبي عبيدة بن الجراح معروف ــ فقد كان لا يعدل به أحداً من الصحابة الأولين ، وقد هم بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبي ﷺ وقال : وهو يجود بنفسه . لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه بالخلافة . ولم يلجأ إلى مجلس الشورى الذي إليه أمر انتخاب الخليفة بعده .

وتحدث عمرو بن العاص مرة إلى الفاروق في رئاسة

الجيوش الموجهة إلى الشام ، فأجابه عمر في مقال صريح « إنه ليس على أبي عبيدة أمير ولأبو عبيدة أمين هذه الأمة » .

فإقامة أبي عبيدة على ولاية الشام ، وقيادة جيوشها لا غرابة فيه من الفاروق ، ولا ينتظر منه غيره وبخاصة حين تكون إمارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الأول ، إنما هي اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوماً بعد يوم .

أبو عبيدة في التاريخ

يذكر التاريخ لأبي عبيدة جهاده الطويل ، لإعلاء كلمة الله ، بسيفه ولسانه في عهد الرسول ﷺ ، فكان موضع ثقة النبي ﷺ ورضاه وإعجابه الشديد بخلقه الكريم ، وجهاده العظيم وإخلاصه لله ولرسوله . ويذكر له موقفه الرائع في سقيفة بني ساعدة ، ذلك الموقف الذي كان من عوامل جمع شمل المسلمين ، ووحدة صفوفهم ، وعدم تفرقهم بعد النبي ﷺ .

ويذكر له فتحه « أرض الشام » – سورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والأردن ، تلك المنطقة التي أمدت المسلمين بسيل جارف من المجاهدين بسيوفهم ، وبسيل جارف من المجاهدين بأقلامهم .

وربما كان لأبي عبيدة من ينافسه في مزايا قيادته ، ولكن لا

خلقه القويم ، بشهادة رسول الله ﷺ .

ويذكر التاريخ أنه كان أحد العشرة السابقين للإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأنه لم يعش لنفسه بقدر ما عاش للناس ، فرض الجهاد على نفسه ، فلم يكن يستطيع منه خلاصاً فعاش مجاهداً ، مات مجاهداً ، ولم يختره الله إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كل لسان ، وفي كل قلب رمزاً للجهاد الصادق ، والإيمان العميق ، والخلق العظيم .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، المحدث الفقيه ، المؤمن الصادق ، القوي الأمين ، المجاهد الشهيد ، القائد الفاتح ، أبي عبيدة بن الجراح الفهري القرشي .

وفاته

(قال معاذ بن جبل : « ما أزعم أني رأيت عبداً أبرّ صدراً ولا أبعد غائلة ، ولا أشدّ حبا للعاقبة ، ولا أنصح للعامة من أبي عبيدة)

عن سعيد بن المسيب قال : لما طعن أبو عبيدة رضي الله عنه بالأردن دعا من حضر من المسلمين وقال :

« إني موصيكم بوصية ، إن قبلتموها لن تزالوا بخير :

أقيموا الصلاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا ، وحجوا واعتمروا ، وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم ، ولا تلهكم الدنيا ، فإن المرء لو عُمِّرَ ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

ثم التفت إلى معاذ بن جبل وقال : يا معاذ صل بالناس ، ثم ما لبث أن فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها .

فقام معاذ وقال : « أيها الناس : إنكم قد فجعتم برجل والله ما أعلم أني رأيت رجلاً أبر صدراً ، ولا أبعد غائلة ، ولا أشد حباً للعاقبة ، ولا أنصح للعامة من أبي عبيدة ، فترحموا عليه يرحمكم الله .

رحم الله أبا عبيدة ، وجزاه خير الجزاء لقاء ما قدم من تضحيات في سبيل إعلاء كلمة الله .

وكان موت أبي عبيدة ، ومعاذ ، ويزيد في طاعون عمواس بالأردن سنة ثمان عشرة من الهجرة ، ومات في هذا الطاعون خمسة وعشرون ألفاً ، وكان سن أبي عبيدة عند وفاته ثمانية وخمسين عاماً .

المراجع

١ ـ حياة الصحابة — محمد يوسف الكاندهلوي
٢ ـ الطبقات الكبرى — للحافظ بن سعد
٣ ـ الاصابة في تمييز الصحابة — العسقلاني
٤ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب — ابن عبد البر
٥ ـ تهذيب ابن عساكر — ابن عساكر
٦ ـ قادة فتح مصر والشام — محمود شيت خطاب
٧ ـ فتوح الشام — الواقدي
٨ ـ عبقرية عمر — العقاد
٩ ـ عبقرية خالد — العقاد
١٠ ـ صور من حياة الصحابة — رأفت الباشا
١١ ـ أشهر مشاهير الإسلام — رفيق العظم
١٢ ـ الفاروق عمر — هيكل
١٣ ـ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية — الخضري

عظماء مجهولون

٤

تجد عددا من قصص الصحابة رضوان الله عليهم
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

الزبير بن العوام

رضي الله عنه

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

تجد عدداً من قصص الصحابة رضوان الله عليهم
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ – هاتف ٤٥٠٦٣٨ – برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ – هاتف ١١١٦٣٧ – برقياً: اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد . فإنه على الرغم من أن الزبير بن العوام رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد رجالات قريش المعروفين وفرسانها المعدودين فإن حياته غير معروفة تماماً حيث كان يعيش في ظلّ الصحابة الآخرين ، يعرف اسم القائد في المعارك ، ويغفل اسم الجنود الأبطال مهما كانت شجاعتهم ومهما وصلت إليه بطولاتهم ، ولم يكن الزبير يرغب في القيادة ، ليبقى في عداد المغمورين ، يطلب الأجر من الله ، لا يريد أن يأخذ ثمن أعماله في هذه الدنيا الفانية شهرة أو جاها أو مالاً أو منصباً ، بل يرجو كما يرجو بقية الصحابة أن تبقى حياته هكذا يجاهد ويطلب الشهادة ليظفر بالآخرة ، ويغزو ويرغب في الجنة جزاء عمله من غير أن يسمع ذكره أو يعرف وضعه .

ومن المؤسف أن يكون الجزء المعروف من حياة الزبير رضي الله عنه إنما هو وقت الفتنة ، وفي أواخر حياته ، وكأنما نسيت حياته

من تاريخ الاسلام ، وكثر فيها الحديث ، وتشعبت الأهواء . وزاد أعداء الاسلام في الطعن بافتراءاتهم بذكر مواقف للصحابة فيها شيء من النظر أو يبدو فيها التردد أو التناقض وحسب زعمهم يظنون أن قيمة الاسلام تخف من النفوس بوصف رجالاته البارزين وصفاً فيه كثير من التجني ، ويجهلون أن تقويم المرء عندنا لا يكون إلا بمقدار تمسكه بالاسلام وتطبيقه له . وربما كان من الرجال الذين ينطبق عليهم هذا الوصف هو سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه .

وإذا كان الانسان يعجز عن أن يعطي صورة صادقة لأحد الصحابة لما فيها من أيام ناصعة وأعمال جليلة ومواقف بطولية رائعة وارتفاع بالانسان وسمو يصل فيه إلى فوق مستوى الرجال فإنه من الصعوبة بمكان أن يقدم تعريفاً لصحابي كبير في كتيب صغير ، إلا أن الضرورة تقضي أن يكون التعريف موجزاً فالوقت الضيق ، وحرص مجتمعات اليوم على طلب الاختصار ، وأخذ المعلومات عن طريق جرعات صغيرة في أوقات قليلة وهذا عذري في الاختصار وتكثيف المعلومات وعدم إلقاء الأضواء على بعض المواقف المحيدة بصورة معينة .

فأرجو أن يوفقني الله إلى إعطاء صورة مشرقة عن هذا العلم والقمة الشامخة والله من وراء القصد .

أسرة الزبير

ينتمي الزبير بن العوام رضي الله عنه إلى بني أسد أحد بطون قريش ، وإذا كان بنو أسد قليلي العدد في الأفراد إلا أنهم امتازوا بالفروسية والشجاعة .

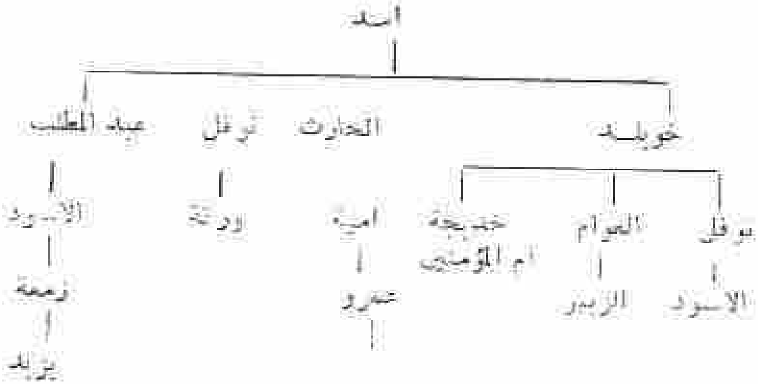

لقد كانت بطون قريش تتزاوج بعضها من بعض ، ويحرص الآباء أن يزوجوا أبناءهم من بنات الأسر المعروفة ، ويختاروا لبناتهم من الرجال المشهورين بالقوة حتى يجدوا لهم السند في الشدائد .

اختار خويلد بن أسد لولده العوام ابنة سيد قريش آنذاك وهي صفية بنت عبد المطلب شقيقة الحمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها هالة بنت أهيب بن عبد مناة الزهرية ، وكان العوام أهلاً لهذا الزواج وكفئاً له . وبهذا اجتمع لولد العوام شرف الأرومة وطيب المنبت . فأخذ الزبير من أسرته (بنو أسد)

اكتسب من بني زهرة صفاء الفكر وسعة الأفق .

قتل العوام في حرب الفجار ، وكانت زوجه صفية بنت عبد المطلب حاملاً بولده الزبير الذي ولد ولم يعرف أباه ، فنشأ يتيماً فقيراً .

وكانت عمته خديجة بنت خويلد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الوقت نفسه فهو ابن عمته صفية بنت عبد المطلب .

صِفَاتُ الزُّبَيْر

كان الزبير بن العوام رضي الله عنه طويلاً إذا ركب تخط رجلاه الأرض، وكان قوياً تربى منذ طفولته تربية قاسية، وحرصت أمه صفية رضي الله عنها على ذلك إذ عُرفت هي بقوتها كما عُرف إخوتها وبخاصة الحمزة سيد الشهداء رضي الله عنه الذي ضرب أبا جهل عمرو بن هشام ضربة وشجّه بها شجّة منكرة عندما بلغه أن أبا جهل قد شتم ابن أخيه محمداً صلى الله عليه وسلم . وأبو جهل من أشداء قريش المعروفين . أما صفية رضي الله عنها فقد نزلت من حصن حسان بن ثابت ـ فارع ـ أثناء غزوة الخندق ، وقتلت يهودياً بعمود ، وكان هذا اليهودي يطوف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بين نساء المسلمين وصبيانهم أحد يدفع عنهم ضد يهود ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتى أحد إلى عائلاتهم .

ربّت صفية ابنها تربية خشنة ، فكانت تضربه ضرباً شديداً ليتعود الحياة القاسية ، فيلبي داعي الحرب ، ولا يقبع في بيته كالنساء . وقد عرف من الصغر بقوته ، فكسر يد غلام ، وقاتل وهو غلام رجلاً فكسر يده وضربه ضرباً شديداً . وكان ذلك مدعاة لفخر أمه بولدها وشجاعته . وجاء رجل مرة إلى صفية فقال لها :

ها هو ذاك، فصار إلى الزبير، فباطشه، فغلبه الزبير، فمرّ الرجل بصفية مغلولاً، فقالت صفيـــة : كيف رأيت زبراً أإقطاً وتمـــراً أم قرشياً صقراً . وعندما شب أصبح من رجال الإسلام المعدودين، وستشهد له الأيام والمعارك القادمة التي خاضها ذلك .

وأنجب أولاداً اشتهروا بقوتهـــم وشجاعتهم ، منهم عبد الله ولده الأكبر الذي كني به ، ومصعب وعروة ومنذر وعمرو وعبيدة وجعفر وعامر وعمير وحمزة .

إسلام الزبير

كان الزبير رضي الله عنه يتردد إلى دار عمته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، كما كان يغشى مجلس أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي كل منها قد انتشر الاسلام ، إضافة إلى أن أمه في بيته كانت تحب ابن أخيها محمداً صلى الله عليه وسلم حباً عظيماً ، وتتحدث دائماً عما امتاز به من صفات ، ولم تكن قد اعتنقت الاسلام بعد ، وهذا ما جعل محمداً يكبر في عين ولدها الزبير ، ويتمنى أن يكون قريباً منه يكتسب من صفاته ويتعلم من أخلاقه .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلا يألفه قومه محبباً سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجراً ، ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه . وكان ممن دعاهم الزبير بن العوام رضي الله عنه فاستجاب وأسلم ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . وعلى هذا يكون الزبير رضي الله عنه من أوائل الذين أسلموا ، بل يعد خامس المسلمين من الأحرار . وهو أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة وعشرين عاماً .

[illegible]

إذ حاول أحد عمومته أن يثنيه عن الايمان فعجز ، عندئــذ قيده بالحبال ولفّه في حصير ، وعلقه على حائط ، وأوقــد تحته ناراً ، وانــدلعت ألــسنة الدخــان إلى الحصير ، ووصلت إلــى الزبير ، فاحترقت أنفه ، وسالت الدموع من عينيه من شدة الدخان ، وأيقن أنه هالك لا محالة إلا أنه صبر وتجلد في سبيل عقيدته • وانتهى وقود النار فأطفئت ، وبقي الزبير معلقــاً على الحائــط حتى انتهى النهار ، فجاء عمه فأنزله فوجده قد أسود لونه ، واحمرت عيناه من شدة ما أصابه وطلب منه عمه أن يعود إلى دين قومــه ، وظن أن الأمر قــد انتهى إلا أن الزبير قــد ردّه رداً جميلاً وأخبره أنــه لا يمكنه أن يعود إلى الكفر أبداً بعد أن أنقــذه الله منــه ، وهل يحب أحد أن يلقى في النار •• ولكن العم الكافر كان غليظ القلب فلم يلن وإنما عاد إلى تعذيبه ثانية وثالثة ولكن الزبير بقي راسخ الايمان ثابتاً على الاسلام • وعندها أيقن العم أن العذاب وسيلــة غير مفيدة ولن يصل إلى غايته بهذه الطريقة لذا تركه وشأنه • فالايمان أكبر من أن يبعده العذاب مهما عظم عن النفوس العظيمــة التــي تستصغر الدنيا الفانية وتستعذب المصائب في سبيل عقيدتها •

الهجرة إلى الحبشة

اشتدت وطأة قريش على المسلمين ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مايصيب أصحابه من الأذى ، وهو في مأمن منه ، ولا يستطيع أن يردّ عنهم شيئاً ، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة حتى يجعل الله لهم فرجاً ، فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فيمكنهم أن يعيشوا هناك بأمان وطمأنينة ، فرحل بعض المسلمين إليها ومنهم الزبير رضي الله عنه . وما استقرت الحياة بهم مدة حتى خرج بعض الأحباش ينازعون النجاشي على الحكم ، فحزن المسلمون على ذلك أشد الحزن ، وخافوا أن يظهر الخارجون على النجاشي فلا يعرفون للمسلمين حقاً كان يعرفه لهم النجاشي . وسار النجاشي إلى الخارجين وكان بينهما عرض النيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ، ثم يأتينا بالخبر ؟ قال الزبير بن العوام رضي الله عنه : أنا وكان أحدث القوم سناً ، قالوا : فأنت ، فنفخوا له قربة ، فجعلها في صدره ، ثم سبح عليها ، حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم ، ثم عاد الزبير من حيث أتى وهو يقول : ألا أبشروا ، فقد ظفر النجاشي ، وأهلك الله عدوه ، ومكّن له في بلاده .

سمع المسلمون في الحبشة أن الاسلام في مكة قد تمكن ، وأن أهلها قد اقبلوا عليه ، فأسرع بعضهم بالعودة ، ومنهم الزبير رضي

وانتهل منه . ولكن العائدين وجدوا ان الامر في مكة لا يزال على ما تركوه ؛ ولم يستطع بعضهم دخول بلدهم إلا بجوار ، ودخل بعضهم الآخر مستخفياً ومنهم الزبير رضي الله عنه .

ومكث الزبير في مكة عدة شهور ثم اضطر إلى العودة إلى الحبشة . ولكنه إن عاد بجسمه إلا أن قلبه بقي متعلقاً برسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة . ويحدث نفسه باستمرار : أنعيش هنا في سلامة وعافية ورسول الله في مكة يعاني من سادتها ما يعانيه من الضر والأذى ؟ فلا بد لنا من العودة إلى بلدنا لنشارك رسول الله في معاناته كلها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . فإن نصرنا الله على عدونا فذلك ما نبغي ، وإن كانت الثانية فهي في سبيل الله . لذلك لم يستطع أن يعيش طويلاً في الحبشة ؛ فعاد إلى مكة ليعيش بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الزُّبَيرُ في مَكَّة

رجع الزبير رضي الله عنه إلى مكة ، ولازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهل من علمه ويتأدب من أدبه ، وفي الوقت نفسه كان كثير التردد على مجلس أبي بكر رضي الله عنه . وازدادت الأواصر قوة بين هذين الصحابيين الجليلين . وأراد الزبير أن تكون القربى بينهما إضافة إلى روابط الأخوة في الإيمان ، فطلب من أبي بكر أن يزوجه ابنته أسماء ... إلا أن الزبير كان فقيراً وكان أبو بكر موسراً . لكن الفقر لم يكن في يوم من الأيام منقصاً من أهلية الزواج عند أصحاب الفكر والرأي السديد . وبخاصة عند المؤمنين فالكفاءة في الدين . ونظر أبو بكر إلى الزبير فرأى فيه أخوة بالإسلام وكفى بها رابطاً وكفى بها كفاءة لمصاهرته . فلم يتردد في قبوله . وكان الزواج الذي بارك الله فيه . إنه قام على أسس الإيمان ولم يكن على أسس المال أو الجمال أو المصلحة الدنيوية فما أقبل الزبير عليه إلا لتقديره لأبي بكر ومعرفة صدقه وإيمانه وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وثقة به وانطلاقاً من هذا رغب في المصاهرة ، وما قبل أبو بكر هذا النسب إلا احتراماً لهذا الشاب المؤمن الذي عرف إيمانه وخبر حقيقته ورغبته التي تنبعث من العقيدة ... وتم الزواج .

وأشيع خبر في مكة أن محمداً قد قتل ، فما إن وصل الخبر

إلى الزبير حتى هب من مكانه وامتشق حسامه ؛ وانطلق دون أن يعي على شيء حتى لباسه ، وخرج يدور في طرقات مكة ، والتقى عرضاً برسول الله صلى الله عليه وسلم،فاستغرب منه الرسول الحالة التي هو عليها ، وقال له : مالك يازبير ؟ .

أجاب الزبير : معذرة يارسول الله ، فقد بلغني خبر ــ أحمد لله على عدم صحته ــ .

قال رسول الله : وما هو ؟ .

قال الزبير : سمعت أن الفاجعة الكبرى قد حلّت بنا ، فإنك قد قتلت .

قال رسول الله : وما كنت فاعلاً لو صح الخبر ؟ .

قال الزبير : سأهوي بسيفي على كل كافر من أهل مكة حتى لا أدع واحداً منهم ، ولتجري طرقات مكة دماً . ولهذا يقال: إن سيف الزبير أول سيف سلّ في سبيل الله .فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم له بخير .

واستمرت حال الزبير في مكة مصاحباً لرسول الله ، ومتردداً على أبي بكر وبقية إخوانه المسلمين،ومنافحاً عن دعوة الله ورسولها حتى أذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى يثرب .

الزُّبَيْرُ في يَثْرِب

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في الموسم يرجو إسلامها ويطلب حمايتها ، وكانت قريش تنفرّها منه وتروّج عنه الشائعات ، وأخيراً التقى بجماعة الأوس والخزرج سكان يثرب فقبلوا الدعوة وبدأ الاسلام ينتشر بين صفوفهم ، واشتدت وطأة قريش على المسلمين ، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه بالهجرة إلى يثرب . فبدأ الصحابة الكرام رضوان الله عليهم بالهجرة إلى يثرب ومنهم الزبير . ونزل هو وابن خاله أبو سبرة بن أبي رهم على منذر بن محمد بن عقبة بالعصبة . وأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، وانتقل إلى يثرب التي غدت تعرف باسم المدينة المنورة وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بين المهاجرين والأنصار ، وقال : تآخوا في الله أخوين أخوين ، وكان فيما آخى بين الزبير بن العوام وسلامة ابن سلامة بن وقش ، وقيل : بل بين الزبير وعبد الله بن مسعود .

وهاجرت أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير وهي حامل فوضعت في المدينة ابنها عبد الله وكان أول مولود في المدينة للمسلمين .

يوم بدر : بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهز السرايا ليؤمن الوضع حول المدينة ، وليضغط على قريش لتعترف بالمسلمين وذلك باعتراض قوافلها التي تمر بالقرب من المدينة ذاهبة وآيبة

لذلك بعد أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، ووادع يهود . وفي إحدى هذه المرات استنجدت قافلة قريش بأهل مكة فأسرعوا لنجدة عيرهم ، فنجت القافلة بتغيير دربها ، ولكن أهل مكة التقوا بالمسلمين الذين خرجوا لا للقتال ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب في نفر من أصحابه إلى ماء بدر ، يلتمسون الخبر له : فأصابوا راوية قريش ، فأتوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستجوبهم واستطاع أن يحصل منهم على معلومات يريدها . وكانت معركة بدر الكبرى ، والتقى فيها المهاجرون وبجانبهم الأنصار مع أهالي المهاجرين في مكة الذين لا يزالون على شركهم ، وحرص كل من الأهل وذويهم على أن يبرهنوا على ألا لقاء إلا مع العقيدة . وقد بدأت المعركة بالمبارزة على عادة ما كان يتم .. وتقدم من المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة فنزل لهم فتية من الأنصار ، قال عتبة : من أنتم ؟ قالوا : فتية من الأنصار .

قال عتبة : لا حاجة لنا بكم .. يا محمد ! أخرج لنا أكفاءنا من قومنا .

وهنا نلاحظ أن أهل الشرك قد داسوا روابط الدم وكل صلات القربى ، ووضعوا رابطة العقيدة فوق كل رباط .

وطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقربائه من المهاجرين أن يخرجوا فقال : تقدم ياعبيدة بن الحارث ، أخرج ياحمزة . أخرج يا علي بن أبي طالب فخرجوا ..

وبدأت المبارزة ونصر الله المؤمنين على أعدائهم فقتل الحمزة شيبة بن ربيعة ، وقتل علي الوليد ، وتبادل عبيدة وعتبة الضربات وحمل حمزة وعلي على عتبة فقتلاه وتقل عبيدة إلى صفوف المسلمين . وفاضت روحه إلى بارئها أثناء عودة المسلمين من بدر في الصفراء . وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه على فخذه .. وقال عبيدة وروحه تفيض : يارسول الله عسى أن تكون قد رأيت منا ما تقر به عينك .

وبعد المبارزة هجم كل فريق على الآخر واحتدم القتال . واشتد الموقف ، والتفت كل رجل يفتش عن أقرب الناس إليه ليجعله تحت أقدامه وليؤكد للملأ أن رابطة القربى حيث وضعها الاسلام تحت الأقدام ولا مجال لها أمام آصرة العقيدة . فقتل أبو عبيدة أباه ، ونازل أبو بكر ابنه عبد الرحمن يريد مصرعه .. إلا أن ابنه قد تغيب عنه وكان يومذاك مع المشركين ، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي . والتقى الزبير بعمه نوفل بن خويلد فأطاح برأسه مستهيناً بقرباه ، وطالباً ثواب الله بقتله .

وكان الزبير يومذاك من أبطال المعركة المعروفين ولم يكن مع المسلمين يومذاك سوى فرسين أحدهما للزبير ، ويسمّى يعسوب ،

والآخر للمقداد بن عمرو، وقد لف الزبير رأسه بعمامة صفراء تميزه عن بقية الصحابة ، وكانت عمائم الملائكة بيضاً إلا عمامة جبريل عليه السلام فكانت صفراء . وكان ينتقل من مكان إلى مكان يجندل الابطال ويصرع القادة فقد قتل عبيدة بن سعيد بن العاص ابن أمية بن عبد شمس وهو مشهور بقوته ، معروف ببطولته ، تقدمه قريش وقت الشدائد ، والتقى الرجلان يوم بدر ، وكان عبيدة مدججاً بالسلاح ، عليه عدة أدرع لا تظهر منه إلا عيناه ، فطعنه الزبير برمحه القصير الذي أتى به من الحبشة يوم كان مهاجراً إليها والمعروف بالعنزة ، طعنه في عينه طعنة وصلت إلى مؤخرة رأسه ، فصرخ عدو الله ، ووقع على الأرض كالثور المذبوح يدفع برجليه التراب فانحنى عليه الزبير وقضى عليه . وقتل يوم بدر أيضاً السائب بن أبي السائب .

وانتهت المعركة بنصر المؤمنين نصراً مبيناً وهزيمة قريش هزيمة منكرة ، وعاد المسلمون إلى المدينة يحملون الغنائم ، ويسوقون أمامهم الأسرى مصفدين ، ورجع المشركون إلى مكة يحملون الخزي والعار وقد تركوا قادتهم صرعى في ميدان المعركة ، وخلفوا زعماءهم أسارى بيد المسلمين .

يوم احد : واستدار العام ، وجهز مشركو قريش أنفسهم للأخذ بالثأر ، واستعانوا على ذلك بالعير التي خرج المسلمون للقائها يوم بدر ، وساروا نحو المدينة ، ونزلوا أحداً ، وخرج المسلمون للقائهم ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير على

الخيل ، ومعه المقداد بن عمرو ، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ، ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير ، وقال : استقبل خالد بن الوليد ، فكن بإزائه حتى أؤذنك ، وأمر بخيل أخرى ، فكانوا من جانب آخر ، فقال : لاتبرحن حتى أؤذنكم . وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزى ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الزبير أن يحمل ، فحمل على خالد بن الوليد ، فهزم الله خالداً ومن معه[1] . ثم شدّ الزبير والمقداد على المشركين فهزماهم ، وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهزموا أبا سفيان ، ونزل رماة المسلمين من المكان الذي وضعهم فيه الرسول صلى عليه وسلم على جبل الرماة وظنوا أن الأمر قد انتهى ، وانتصر المسلمون ،فاسرع خالد وكانت مهزومة خيله ، فارتقى الجبل ، وقضى على من بقي من الرماة ، وداهم المسلمين من الخلف ، فانفرط عقدهم ، وأصابهم من الغم ما أصاب، وثبتت عصابة من المسلمين حول رسولهم الكريم منهم الزبير بن العوام رضي الله عنهم جميعاً .

وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً في يده يوم أحد ، فقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام الزبير وقال : أنا يارسول الله ، فأعرض عنه ، ثم قال من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام الزبير ثانية وقال : أنا يارسول الله ، فأعرض عنه أيضاً ، ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام أبو دجانة سماك بن خرشة،

---

(١) تاريخ الطبري

تفر به عن كافر ، وأن تضرب به في العدو حتى ينحني ، وأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رضي الله عنه رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت ، ووجد الزبير رضي الله عنه في نفسه شيئاً وقال : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه ، وسألته إياه قبله ، فأعطاه أبا دجانة وتركني . والله لأنظرن ما يصنع . فاتبعته . فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت . وقد أبلى أبو دجانة رضي الله عنه بلاءً لا يكاد يوصف . وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يتنافسون للقتال في سبيل الله ومنازلة الأعداء ابتغاء رضوانه وأملاً في جنته .

بعد أحد : حضر الزبير رضي الله عنه المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله وسلم لم يتخلف عن غزوة واحدة ، وكان يعد في كل قتال من أبرز المقاتلين وفي مقدمة الأبطال . لقد شهد الخندق بجانب رسول الله وأبلى البلاء الحسن . ولما انصرف الأحزاب عن المدينة ، عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون إليها في الصباح ، وما انتصف النهار إلا وجاء أمر الله بسير المسلمين إلى بني قريظة من اليهود الذين كانوا يداً واحدة مع أعداء الله وكانوا من خلف جيش المسلمين . فأذن مؤذن الرسول قائلاً من كان سامعاً مطيعاً ، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة .

وسار رسول الله إلى بني قريظة ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وقدّم علي بن أبي طالب برايته ، فحاصر بني

قريظة ، وعندما تمّ الحصار نادى علي : ياكتيبة الايمان ، وتقدّم هو والزبير رضي الله عنهما ، فعندما رأوهما لم يكن ليهود بدّ من أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان صلح الحديبية بين المسلمين وأهل مكة ، وبهذا توقفت الجبهة الجنوبية، والتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجبهة الشمالية حيث كان اليهود قد تجمعوا في وادي القرى وفدك وخيبر وغيرها يحرضون على المسلمين . ويدعمون كل خصم لهم . وما يتركون فرصة يكيدون فيها إلا واستفادوا منها . فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر أكبر قاعدة لليهود . ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب ، وحاصر المسلمون يهود الذين خرج بعضهم للمبارزة ومنهم مرحب الذي قتله محمد بن مسلمة ، ثم خرج أخوه ياسر وكان أكثر يهود شجاعة وخبرة في القتال وأقواهم فبرز له الزبير رضي الله عنه فقتله بإذن الله .. وفتحت خيبر .. وقسمت إلى ١٨٠٠ سهم بين ١٤٠٠ رجل لكل رجل سهم، و ٢٠٠ فارس لكل منهم سهمان ... وكان لكل سهم رأس جمع إليه مائة رجل . ومن هؤلاء الرؤوس للزبير رضي الله عنه ، وكان أول سهم من خيبر هو سهم الزبير بن العوام . وهو بنطاة وهو الخوع [1] .

وبعد فتح خيبر قذف الله الرعب في نفوس أهل فدك فصالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف ، وكان السهم منها خالصة لرسول الله . كما قاتل الروم في مؤتة من أعمال الأردن . وبهذا توقف خطر الجبهة الشمالية .

---

(١) بفتح الخاء ، وهو موضع قريب من خيبر .

وسلم والمسلمين بأبي بكر [illegible]

فكان لا بدَّ من فتح الجبهة الجنوبية من جديـــد ، وتأديب قريش ودخول مكة . ولكن رسول الله لم يحدث المسلمين عن جهته التي يريدها ، ولكن طلب منهم الاستعداد ، فلما أجمع المسير لحـــظ المسلمون أن الجهة هي مكـــة فكتب أحدهم إلى قريش يخبرهم بذلك ليكون له عندهم يد بيضاء ، وأرسله مع امرأة جعل لها أجراً معيناً ، فجعلته في رأسها ، ولفت عليه ضفائرها وسارت إلى مكة . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بهذا ثم فبعث الرسول الكريم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام في أثر المرأة ، فأدركاها فأخـــذا منها الكتاب بعد تهديدها عندما أنكرت وأصرت .

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين إلى مكة ، ولما نزل قريباً منها ، قسم جيشه ، فكان الزبير بن العوام رضي الله عنه على الميسرة ، وأمره الرسول أن يدخل مكة من كدى (أسفل مكة) . وجاء نصر الله وفتحت مكة ، وأسلمت قريش ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

وسمعت هوزان بدخول المسلمين مكة فاجتمعت إليها ، والتحم إليها عدد من القبائل الأخرى وثقيف كلها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين الذين سار بهم من المدينة ومعه الطلقاء من أهل مكة إليهم ، والتقى الجمعـــان في حنين . وأعجب المسلمـــون

بكثرتهم فلم تغن عنهم « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » . وانتصر المسلمون بإذن الله ، ووقف مالك بن عوف في الثنية للمسلمين فاعترضهم الزبير بن العوام رضي الله عنه وصمد لهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عن مواقعهم .

أسلمت ثقيف ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدى العمرة من الجعرانة ، ومن مكة انصرف إلى المدينة فلبث فيها ستة أشهر ، ثم أمر الناس بالاستعداد لغزو الروم إذ اطمأن أن جبهة الجنوب قد انتهت وأن العرب ستدين له بعد أن خضعت قريش . ويجب نقل العمليات كلها إلى الشمال ، فأمر الناس بالاستعداد لغزو الروم ، وكانت غزوة تبوك ، وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، وتمت نعمة الله على خلقه ، واكتمل الدين ، وانتقل رسول الله إلى الدار الآخرة ، وانقطع وحي السماء .

الزبير في خلافة ابي بكر : بايع المسلمون أبا بكر رضي الله عنه خليفة لرسول الله لم يتخلف أحد منهم عن ذلك ، إلا ما كان في اليوم الأول حيث شغل بعضهم ولم يخبر آخرون . وقد كان الزبير وطلحة رضي الله عنهما في بيت علي بن أبي طالب رضي الله حيث شغل بتمريض زوجه فاطمة رضي الله عنها ، ومن هذا التأخير اليومي حيكت روايات لاصحة لها عن تأخير هؤلاء الصحابة ...

بكر ومنزلته وبخاصة الزبير الذي هو ختنه وادرى الناس بـه ، ساهره لفضله ، وناسبه لايمانه ومعرفته ، وصادقه لصحبته ، أوثم يتخلف عنه !

ارتدت العرب ، وأمضى أبو بكر بعث أسامة بن زيد ، وطمعت القبائل في المدينة ، فجعل أبو بكر على أنقاب المدينة علي ابن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الله بن مسعود . وكان الزبير وبقية كبار الصحابة من هيئة الشورى لأبي بكر ، وهو الذي أشار عليه بغزو الشام ، وسار في عداد المجاهدين جنديا كسائر الجنود ، لايبغي شهرة ، ولايريد ظهوراً ، وهو البطل الهمام ، وأحد سيوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت معركة اليرموك بين المسلمين في ستة وثلاثين ألفاً وبين الروم وهم في ثلاثمائة ألف أو يزيدون ، وكان الزبير رضي الله عنه على رأس كردوس في جيش يزيد بن أبي سفيان على ميسرة قوات المسلمين ، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ فقالوا : ألا تحمل فنحمل معك ؟ فقال : إنكم لاتثبتون ، فقالوا : بلى ! فحمل وحملوا فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه . ثم جاؤوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى وجرح يومئذٍ جرحين بين كتفيه .

الزبير في خلافة عمر : عاد الزبير إلى المدينة برأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يرغب أن يكون الصحابة بجانبه يشيرون عليه ، وقد كفاهم من الجهاد ما غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما هم عليه من الصحبة .

واستمر الجهاد على الجبهتين الرومية والفارسية ، وكان المسلمون في العراق قد قلّ عددهم بعد ذهاب خالد بن الوليد إلى الشام دعماً للمسلمين هناك . فجرت معركة الجسر فاستشهد قائدها أبو عبيد الثقفي فأراد أمير المؤمنين أن يسير بنفسه إلى العراق ، فاستخلف علي بن أبي طالب على المدينة ، وجعل على مقدمة الجيش طلحة بن عبيد الله وعلى المجنبتين الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف . إلا أن أصحاب الرأي وهم هؤلاء قد أشاروا عليه بالعدول عن رأيه ففعل ، وأرسل سعد بن أبي وقاص على رأس نجدة العراق .

وحاصر الروم أبا عبيدة بن الجراح في حمص فطلب من عمر ابن الخطاب النجدة فأرسل أمير المؤمنين إلى سعد بن أبي وقاص أن يمدّ أبا عبيدة ، وسار عمر بنفسه حتى وصل إلى الجابية بحوران ، وكان الزبير بن العوام معه ، وهناك بلغه انتصار أبي عبيدة على الروم وردّ كيدهم

وعاد عمر رضي الله عنه إلى المدينة ، واستكمل المسلمون فتح بلاد الشام ، فبعث أمير المؤمنين إلى مصر عمرو بن العاص وكان الزبير يريد الجهاد والسير نحو انطاكية ، فقال له عمر : يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر ؟ فقال : لا حاجة لي فيها ، ولكن أخرج

لمثله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به ، وإن وجدته في جهاد كنت معه، فسار على ذلك فوجد عمراً محاصراً لبعض حصونها وقد أبطأ الفتح فقال : إني أهب نفسي لله ، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، وارتقى الزبير سور البلد ، ودخلها عليهم عنوة فلما أحسوا خرجوا إلى عمرو من الباب الآخر فصالحوه ، واخترق الزبير البلد حتى خرج معهم من الباب الذي عليه عمرو فأمضوا الصلح وكان الزبير وابناه عبد الله ومحمد شهوداً على ذلك .

عاد الزبير بعد الفتح إلى المدينة حيث حبس عمر كبار الصحابة فيها ليكونوا مستشارين له . ومرت السنوات وطعن عمر رضي الله عنه ،فاختار ستة من كبار الصحابة ليكون الأمر لهم وليكون الخليفة من بينهم وهم ممن بقي من الذين مات عنهم رسول الله وهو عنهم راض ومنهم الزبير . ولكن الزبير لم يرغب في الأمر فأعطى نصيبه لغيره .

الزُّبَيْر أَيَّام عُثمان

بايع المسلمون عثمان بن عفان بعد عمر بن الخطاب ، وكان الزبير ناصحاً ومشيراً كما كان في عهد أبي بكر وعمر . وسارت الفتوحات في كل جهة ، وجاءت الغنائم والأموال من كل مكان . ووزعها عليهم الخليفة بكل سخاء على عادته بل إن لم تكف كان يوزع على المسلمين من ماله الخاص . فعاش الناس في رخاء وبحبوحة ، وانصرف بعض الصحابة إلى الأمصار وزاولوا الأعمال فأثروا ، وتعلق ببعضهم سكان تلك الاقاليم ورأوا فيهم القدوة الحسنة .

ويكثر الحديث عند الرخاء ، ويظهر الشر من أهله . فظهرت فتنة أضرمها يهودي من اليمن أظهر الاسلام ، وتنقل في الأمصار يؤلب الناس على الخليفة ويحدثهم بأمور استجدت في عهد عثمان . فزاد الحديث ، ووصل إلى الخليفة ، فلاكته ألسنة أهل الشر ، ثم ساروا من مصر والبصرة والكوفة نحو المدينة يريدون تأليب الناس على خليفتهم والخليفة المظلوم ينظر إليهم كأبناء له يستمع إليهم ويناقشهم مما أطمعهم فيه فقرروا الغدر به .

وأنجد الصحابة عثمان رضي الله عنه وأرسلوا أبناءهم إليه يدفعون عنه ، وكان في مقدمتهم ابن الزبير عبد الله . ووقع قدر الله وقتل خليفة المسلمين .

الزُّبَيْرُ أَيَّامَ عَلِيّ

لما قتل سيدنا عثمان رضي الله عنه جاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالوا: إن الخليفة قد قتل، ولا بدّ للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال لاتفعلوا، فإني أن أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً، فقالوا: لا. والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك. فتردد ثم وجد أنه لامحالة من الموافقة، فواعدهم المسجد، فلما دخله دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه ومنهم طلحة والزبير ثم بايعه الناس.

لم يتمكن علي رضي الله عنه من أمر المدينة إذ أن فيها الغوغاء وأصحاب الفتنة والرعاع وهم الذين يتصرفون بكثير من الأمور فأراد سيدنا علي أن يأخذهم حتى يتمكن منهم، ويستتب الوضع، فيجري عليهم الحق ... فضاق بعض الناس بالأمر ذرعاً وأرادوا الخروج، إلا أن علياً لم يكن ليسمح لأمثال الزبير بالخروج ليكون بجانبه يستعين به ويستشيره، ولذلك لم يوافق على توليته الكوفة وتولية طلحة البصرة.

خرج طلحة والزبير من المدينة إلى مكة بعد بيعة علي بأربعة أشهر رغبة في الهدوء والاستقرار وبعداً عن جو المدينة. فاستأذنا

علياً بالعمرة فأذن لهما ، وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد خرجت من قبل إلى مكة .

أكثر القادمون إلى مكة ، وزاد الحديث في الفتنة ، ومن خرج إلى مكة ليبتعد تبعه الأمر ، ولم يكن بدّ من الخروج منها فتوجه الزبير وطلحة وعائشة أم المؤمنين رضي الله عليهم نحو البصرة والكوفة لعلهما أكثر هدوءاً وأبعد عن الحديث في المشكلات وخرج معهم ما يقرب من سبعمائة رجل ثم تبعهم آخرون ، فزاد الراحلون على الثلاثة آلاف .

أراد علي اعتراضهم ومنعهم من الخروج ، ولكنهم فاتوه ، ووصلوا البصرة فاختلف أهلها بين منتقد لهم ، وراغب في بقائهم لمضائهم وصحبتهم ، ومطالب بدم عثمان ، وتضاربت الآراء بعد أن اختلفت الروايات واختلط الوضوح ، وتقاتل المسلمون هناك .

وجاء إلى علي بذي قار أهل الكوفة ، فأرسل القعقاع بن عمرو التميمي إلى عائشة وطلحة والزبير وبدا الصلح وشيكاً فالصحابة لا يريدون فرقة ولا يبغون من دنياهم إلا بمقدار ما يطبقون فيها حكم الله . وسار علي إلى البصرة ، وهناك أصحاب طلحة والزبير ، ولم يكن من أمر يعكر صفو الأخوة بين الطرفين حتى أثار السفهاء والعبيد القتال بينهم فامتد ناره .. وبخاصة أن قتلة عثمان قد عرفوا أن الاتفاق لا يكون إلا على دمائهم فالجميع متفقون على ذلك ، وقد أثار الفوضى بين الناس عبد الله بن سبأ اليهودي ...

رضي الله عنه بسهم أصابه وعقر الجمل الذي تركبه عائشة رضي الله عنها .. فأما الزبير فقد مضى وسلك وادي السباع . وكان علي قد التقى بطلحة والزبير قبيل المعركة ، ودنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال علي : لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ، وإن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه ، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . ألم أكن أخاكما في دينكما ، تحرمان دمي وأحرم دماءكما ! فهل من حدث أحلّ لكما دمي ؟ قال طلحة : ألبت الناس على عثمان رضي الله عنه ، قال علي : « يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » ، يا طلحة ، تطالب بدم عثمان رضي الله عنه ! فلعن الله قتلة عثمان . يازبير ، أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم ، فنظر إليّ فضحك وضحكت إليه ، فقلت : لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صه ، إنه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم » ؟ فقال : اللهم نعم ، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لا أقاتلك أبداً .

فانصرف علي إلى أصحابه ، فقال : أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم ، ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا ، قالت: فماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب ، فقال له ابنه عبد الله : جمعت بين هذين الغارين ، حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب ! أحسست رايات ابن أبي طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أمجاد ، قال : إني حلفت ألا أقاتله ، وأحفظه ما قال له ، فقال : كفّر عن يمينك وقاتله ، فدعا بغلام له يقال له مكحول ،فأعتقه ، وقاتل ، فلما انصرف من القتال ومرّ بوادي السباع تبعه عمرو بن جرموز ، فلما لحقه نظر إليه الزبير ــ وكان شديد الغضب ــ قال : ماوراءك ؟ قال : إنما أردت أن أسألك ، فقال غلام للزبير يدعى عطية كان معه : إنه متعمّد ، قال : ما يهولك من رجل ! وحضرت الصلاة ، فقال ابن جرموز : الصلاة ، فقال الزبير : الصلاة ، فنزلا ، واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه في جرُبّان درعه فقتله ، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه ، وخلّى عن الغلام ، فدفنه بوادي السباع ، ورجع إلى الناس بالخبر .

وجاء ابن جرموز إلى سيدنا علي بالخبر وبسيف الزبير ... فاستأذن فقال علي : لا تأذنوا له وبشروه بالنار فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بشّروا قاتل ابن صفية بالنار » .

جلى الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليـــه وسلم » ؛ وبعث بذلك إلى عائشة .

هكذا كانت نهاية هذا الصحابي الجليل فقد توفي وهــو في الرابعة والستين من عمره ، وقتل مظلوماً وكان رضي الله عنه مـــن المبشرين بالجنة ، وممن حملوا عبئاً كبيراً في الدعوة ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « الزبير ركن مـــن أركان الدين » ويقول عنه أيضاً « الزبير عمود من عمد الاسلام » وذلك لما أبـــلاه في سبيل الله ، فقد أراد الزبير مرة أن يغتسل وكان بأرض قفراء ، فقال لصاحبه : استرني حتى أغتسل ، فستره صاحبه ؛ ولكن حانت منه التفاتة فرأى جسد الزبير مجدعاً بالسيوف وفيه أمثال العيون من الطعن ، فتعجب الرجل ، وعندما انتهى الزبير من غسله ، سأله صاحبه قائلاً : لقد رأيت في جسدك ما رأيت من العجائب . فقال الزبير : أما والله ما فيها من جراحة إلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلـــم وفي سبيل الله .

من أخبار الصحابيات
٢

"رأيت الرُّمَيْصَاء في الجَنَّة"

أم سُلَيم بنت مِلْحان
الزوجة المؤمنة

تأليف
حسان شمسي باشا

تجد عددا من القصص والسير
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ام سلیم بنت ملحان

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار الثقافة للجميع

دمشق ص.ب ١٦٠٥

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونصلي ونسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين .

وبعد .. فان من الامور السلبيـة التي ساهمت وما زالت تساهم في تخلف العالم الاسلامي : تلك النظرة الخاطئـة إلى المراة ودورها في الحياة .

وإن تعاليم الاسلام بريئة مما وصل اليه المسلمون من تخلف في عصور الجهل والانحطاط ، ولا سيما تخلف المرأة وتدني مكانتها الاجتماعيـة .

لقد كان الجهل سبباً رئيسياً في الابتعاد عن روح الشريعـة الاسلامية السمحـة ، والانجراف بتيار التقليـد الاعمى ؛ تيـار الجاهلية او التعاليم الدخيلة على الاسلام .

وتلك التقاليد والتعاليم ليست من روح الشريعة في شيء ، بل كانت حاجزاً صفيقاً فصل المسلمين عن حقيقة الاسـلام ، وكانت المراة إحدى ضحايا هذا الجهل والفصل .

فالمراة في العالم الاسلامي ـ في وقتنا الحاضر ـ عضو مشلول لا يؤدي وظيفته التي خلق من اجلها . ومع ان مشكلة العطالة في العالم الاسلامي تعمّ الرجال والنساء ، لكنها بالنسبة للمراة اكثر

او جارية ، او كلتاهما معاً .

وكنت أتالم لبناتنا اللواتي حرمن من اخبار الصحابيات .. جداتهن اللواتي اشتركن في تشييد الحضارة الاسلامية وساهمن في بناء المجتمع الرباني الاول .

إن بناتنا وابناءنا ايضا في اشد الحاجة إلى من يخرج لهم المراة المسلمة الاولى من عالم النسيان الى حيز الوجود كي يدركوا النور الذي قامت به ، ويعرفوا الفارق بينه وبين صورة المراة الآن .

إن دراسة هذه الاخبار وتأملها تفتحان آفاقاً جديدة امـام المراة المسلمة الجديدة وتغيران من نظرها الخاطىء الى دورهـا في الحياة بل ومن نظرة المجتمع الخاطئة اليها ، إذ ان المجتمع لا يحترم المراة طالما انها تحافظ على دور الدمية ، او الجاريـة ، ولا ينظر إليها بعين الكرامة طالما انها لم ترتفع الى مستوى الكرامة والمسؤولية، فالتغيير الخارجي لأحوالهـا ، لا يتم ما لم يسبقه تغيير داخـلي في نفسهـا :

((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم))(١)

هذه هي الخطوة الاولى في التغيير ..

والخطوة الثانية هي ان يدرك المسلم اهمية دور المسلمة : كأم تربي ابناءها تربية اسلامية ، وكزوجة تشارك زوجها متاعب الحياة وتحثه على المضي في طريق الدعوة إلى الله مهما لاقى من عقبات .

إن المراة التي لا يهتم الرجل برفع مستواها وإشعارها بكرامتها

---

(١) سورة الرعد ، الآية (١٣) .

ودورها ، ستقف عائقا في وجهه إن حاول ان يؤدي دوره الذي كلفه الله به بدلاً من ان تدفعه وتدعمه وتساهم معه .

ايها المسلم : الا تتمنى ان تقول لك امك كما قالت نسيبة لابنها بعد ان ضمدت جرحه في احد : قم يا بنيّ وقاتل دون رسول الله ..

ايها المسلم : الا تتمنى ان تقول لك زوجك عند المحنة كماكانت تقول خديجة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا ابن عم ابشر واثبت فوالله إنك على الحق ، والله ما يخزيك الله ابدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم) .

ايها المسلم : إن هذا من حقك ، لكنك لن تصل إلى هذا الحق ما لم تؤد واجبك نحو المراة المسلمة اولاً : ان تشعرها بكرامتها عند الله ودورها الذي يجب ان تقوم به .

وبعد ، فانني اقدم هذه القصة في هذه المناسبة راجية من الله ان تحقق تقدما في هذا المجال .

وقد اتبعت في إخراج هذه الاخبار شيئا من التصرف في الحوادث والاقوال لشعوري بان ذلك سيكون اكثر فائدة ، وتسهيلاً على عامة القراء ، ولا اظن ان هناك حرجا في ذلك ، فالصحابة بشر مثلنا تستطيع ان تشعر بما شعروا وتتحدث عن مشاعرهم .. ثم إنني وضعت النص الاصلي الوارد في كتب السيرة او الحديث داخل قوسين صغيرين كي يتنبه القارىء إلى موضع التصرف .

اللهم إن هذه محاولة اقوم بها اداءً لبعض ما عليّ من واجب ، واقدمها مع شعوري بقصورها راجية منك العون والتوفيق .

« ربنا تقبل منا إنك انت السميع العليم .

ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا امة مسلمة لك »

— ١ —

لوحة من الجاهلية

يثرب ... المدينة الجميلة التي تحيط بها اشجار النخيل ، وتتخللها كروم العنب وحدائق الفاكهة المختلفة .

يثرب ... واحة العرب الظليلة .. كانت منذ مدة مسرحاً للنزاع والحروب بين الاوس والخزرج .. تلك الحروب الطاحنة التي كانت اليهود تضرم نارها بين أبناء العم لاتفه الاسباب كي يظلوا في ذل وضعف دائم امام جشع اليهود وتسلطهم .

كانت الاوس والخزرج قبيلتين من قبائل العرب رحلتا عن اليمن ثم استقرتا في يثرب . وكانت اليهود جيرانهم فيها . واليهود في كل زمان ومكان لا يفكرون إلا بالمال والسيطرة ، ويرتكبون في سبيل الوصول إليهما أبشع الجرائم ، ويحتالون ويدبرون المكائد لمن حولهم ليوقعوهم في الصراع فيصبحوا في شغل دائم بمشاكلهم وتزاحمهم ويغفلوا عن خطر اليهود وتسلطهم وتوسعهم .

ولم يكن لدى العرب في جاهليتهم الدين الذي ينظم لهم معاملتهم فيما بينهم ويضع لهم قواعد الاخلاق التي إن تمسكوا بها استطاعوا أن يصلوا إلى حياة هانئة مستقرة .. بل كانت عقولهم

تخضع للتقليد والخرافة والاساطير والاوهام .. حتى عبدوا الأصنام والأحجار . اما حياتهم فينطلقون فيها وراء اهوائهم وشهواتهم ، فالقوي المتسلط يعيش على حساب الضعفاء ويترفه ويتنعم ، بينما يحرم العبد والضعيف من كل شيء . كما انهم ما كانوا يؤمنون بيوم الحساب بل ينظرون إلى الدنيا على انها هي كل شيء .. فالسعيد من يحصل اكبر اللذات في حياته ولو بالقتل والنهب والسرقة . ولهذا كانت حياة كثير من القبائل في الجزيرة العربية تعتمد على الإغارة والسلب لغيرها من القبائل .

هذه الحياة الخالية من الإيمان بالله واليوم الآخر . الخالية من الدين الإلهي الذي ينظم للناس حياتهم ويرسم لهم حدوداً ينبغي ان لا يتجاوزوها .

هذه الحياة الخاوية إلا من طلب اللذة والتسلط .. جعلت مكايد اليهود تنجح في الإيقاع بين الأوس والخزرج .. فلا تكاد تنتهي الحرب بينهما حتى تنبعث من جديد .

ومع ان اليهود كانوا اصحاب دين سماوي ولديهم كتاب من الله يامرهم فيه بالعدل والاستقامة وينهاهم عن الظلم والعدوان والخداع .. إلا انهم تركوا امر الله وآثروا عليه حب المال وشهوات الدنيا .. لذلك غضب الله عليهم ولعنهم إلى يوم القيمة لانهم ظلموا وكفروا بعد ان جاءهم العلم وبعد ان بين الله لهم طريق الصواب .

هكذا كانت الجزيرة العربية تعيش في جاهلية .. وهكذا كان

اليهود وكيدهم .

- ٢ -

هل المرأة دمية . . ؟!

. . لكن يثرب اليوم تبدو هادئة . ويغدو اهلها والسعادة تنير وجوههم . . لقد استطاعوا ان ينسوا الحرب والنزاع وعاد إليهم الامن والسلام وكأنهم قد وجدوا لمشكلتهم حلاً . . فما هو السر يا ترى ؟ !

لقد وصلت اشعة من نور الإسلام إلى يثرب تبددت ظلام النفوس ومحت الأحقاد منها وفتحت القلوب فقادتها إلى نور الله .

وها هو مصعب بن عمير مبعوث النبي صلى الله عليه وسلم الى يثرب يجلس في نواديها ويجوس خلال بيوتها وبساتينها يدعو الناس إلى الله ويتلو عليهم آياته ويعلمهم احكام الإسلام وآدابه ويغرس فيهم مبدأ المساواة امام الله فلا تبقى افضلية إلا للتقوى . . ويعلمهم الأخوة في دين الله التي تفوق اخوة النسب في قوتها وتماسكها .

* * *

وفي صباح ذلك اليوم خرج مالك بن النضر من بيته ووجهه

يتأجج غضباً. ووقف برهة أمام الباب، ثم التفت نحو البيت صائحاً:

ــ إذن فقد آمنت بهذا الصابئ، وتركت دين آبائك وتمسكت بضلالك .. ولكنك ستندمين على عنادك هذا .. وسترين ..

وصفق الباب خلفه بشدة وانطلق لتوه مجهزاً بعيراً له ومرتحلاً عليه إلى الشام.

وفي داخل البيت جلست أم سُليْم مطرقة تفكر، وإلى جانبها جلس إبنها أنس الذي لم يبلغ العاشرة بعد ينظر إليها بوجوم .. إنه يعرف السبب الذي أغضب أباه .. لقد ثار الأب منذ أن علم بدخول زوجته أم سليم في الإسلام. وزادت ثورته عندما تمسكت بدينها ورفضت أن ترتد عنه. بل كانت تدعوه أن يترك أصنام آبائه ليعبد الله رب العالمين. ولم يترك مالك بن النضر وسيلة لرد زوجته عن الإسلام إلا وجربها .. ولكن دون جدوى، فقد كان الإيمان بالله قد تمكن من قلبها وكانت تدعو زوجها طامعة في إسلامه، ولطالما سمع ذلك الطفل أمه تقول لأبيه:

ــ يا مالك كيف تعبد الحجارة والأشجار وهي لا تملك لنا ضراً ولا نفعاً ..؟ وتترك عبادة رب العالمين الواحد الأحد الذي خلقها وخلق كل شيء ؟.

يا مالك إن الله قد أرسل لنا رسولاً يتلو علينا آيات بينات تهدي إلى الحق والبر وترسم للإنسان طريق السعادة ..

يا مالك إني أخشى عليك يوماً تقف فيه أمام الله فتعجز هذه

وآمن به وبرسوله .

ولكن مالك كان يقابل هذا النصح بالثورة والأنفة وكان يصيح بها :

ــ اتسفهين عقلي وعقل آبائي . .؟!

اتريدين مني ان اقف إلى جانب العبد الحقير من قومي لأكون معه على قدم المساواة !! واي ذل اعظم من ان يضع الرجل الشريف راسه على الأرض ليصلي لرب محمد ؟!

فتقول أم سليم متعجبة :

ــ كيف تأنف من السجود لرب العالمين وترضى ان تكون عبداً للشيطان . إن الذي يسجد لله يتحرر من كل صغار . والذي يأبى السجود لربه هو العبد الذليل للهوى ، او للمال . . وهو الشقي المحروم .

فيقاطعها ثائراً :

ــ يا للعزى . . ! متى كانت النساء تهتم بمثل هذه الامور ؟!

ومنذ متى كانت المرأة تسفه راي زوجها ؟!

اتظنين اني فقدت عقلي حتى اطيع راي امراة ؟!

واللات والعزى لئن لم تنته عن سفاهتك هذه ليكونن لي معك شأن آخر .

نعم إن الطفل أنس بن مالك يعي كل ذلك ، ويعرف أن أباه كان على باطل .

أما أم سليم فقد كانت سارحة في عالم آخر .. عالم الذكرى البعيدة الذي أثارته غضبة زوجها واستكباره في هذا اليوم .

لقد تذكرت حادثة أليمة كانت قد رأتها في صباها الباكر ، وحديثاً ملؤه الشجن طالما فكرت فيه وأقلقتها ذكراه ..

لقد كانت في ذلك اليوم صبيّة في أول تفتحها ، وكانت عائدة مع بعض أترابها من طرف المدينة حيث كنّ يساهمن ببعض أعمال في بساتين أهلهن . عندما سمعت أنينا ينبعث من أحد جانبي الطريق .. فأسرعت أترابها خائفات إلى بيوتهن .. لكنها وجدت نفسها مدفوعة نحو الصوت يخالجها الإشفاق والحذر والفضول .

وخلف صخرة كبيرة تقف وسط السهل الممتد على جانب الطريق كشفت سر الأنين إذ ما كادت تقترب من الصخرة حتى سمعت بكاء وليد جديد .. ثم رأت امرأة جالسة إلى جانب حفرة وبين يديها طفلة عارية قد ولدت لتوّها . فقالت في نفسها : إذن كانت المرأة تئن في مخاضها وهي الآن قد وضعت ؛ فلأمكث قليلاً فقد تحتاج إلى مساعدة . ولكن .. ما بال المرأة تضع ابنتها في الحفرة ؟! يا إلهي ها هي تهيل التراب بكلتا يديها فوق الطفلة ، وها هو صوت بكاء الطفلة يتلاشى ..

إن أم سليم تذكر كيف سرت في جسمها رعشة رعب قوية

التراب وتستخرج الطفلة من حفرتها ، ولكن بعد فوات الاوان .. لقد ماتت الطفلة .. لقد قتلتها أمها ..

ورفعت ام سليم ـ الصبية ـ عينيها إلى الا م برعب .. ولكن الام كانت ذاهلة جامدة ..

وصاحت الصبية :

ـ لم قتلتها ؟ اليست ابنتك وقطعة منك، كيف فعلت ذلك؟!

تنهدت الأم وقالت :

ـ تلك اوامر سيد الدار .. وهل تستطيع امراة ضعيفة مثلي ان تخالف امر السيد القوي ..

ـ ولم يأمر الأب بقتل ابنته ؟!

ـ لانه لا يريد بناتا ضعافا يحمل عبء معيشتهن .. بل يريد اولادا ذكورا يتكاثر بهم في قومه ويمنحونه العزة والمنعة بين الناس .

وسكتت الام قليلاً ونظرت إلى وجه الصبية الذي اكتسى بالرعب والالم .. وانطلقت من صدر الأم زفرات حارة وقالت :

ـ إنه لمؤلم ومرعب حقا ان يرعى الحيوان صغاره بحنان بينما يدفن الإنسان اولاده احياء ..؟! إن الوحش يفترس ليسد جوعه ، اما الإنسان فيفترس الضعفاء ليزداد جاها ومالاً ويمضي في جشع لا ينتهي ..

فأخذت الصبية عندها تبكي بحرقة ، فربتت الأم على كتفها وقالت :

ـ لا تبك .. فلقد ألقيت ابنتي إلى الأرض لتبتلعها وأنا أشعر بأن الموت أرحم لها من حياة تسام فيها أنواع الخسف والهوان . إن الفتاة تعيش في بيت أبيها مهملة لا دور لها ولا كيان حتى اذا بدا لأبيها أن يزوجها باعها لمن يدفع له مالاً أكثر دون أن يكون لها رأي .. وتدخل بيت الزوج لتكون دمية تتزين بأنواع الحلي والملابس .. لا كرامة لها ولا احترام .. إن هي إلا دمية جميلة اشتراها الرجل للمتعة والتسلية ..

وإنها لسنة الحياة .. كلما اتبع الإنسان هواه وخضع لمنطق القوة ظهرت المرأة الدمية في البيوت وفي الطرقات بزينتها وحللها .. تتحرك كما يريد لها سيدها الرجل أن تتحرك .. إنها دمية جميلة مزركشة ، ولكنها للأسف خالية من كرامة الإنسان ، فاقدة حريتها .. إنها جسم فقد روحه وضل عن هدفه وعن غاية وجوده .. إنها لا تعرف لنفسها هدفاً سوى أن تحرك غرائز الرجل وتشبع نهمه ..

وقفت الأم تلتقط أنفاسها .. والصبية ساكنة واجمة تستمع إليها وقد جف دمعها .. وتابعت الأم :

ـ وبعد .. إذا مات عنها زوجها جاء ورثته فوضعوا أيديهم عليها وورثوها كما يورث المال والمتاع .. فإما أن يتزوجها الوارث ليستولي على مالها .. أو يزوجها لمن يشاء ويأخذ مهرها لنفسه ..

ـ الا يحاول احد ان يمنع هذا الظلم . .؟!

فتتنهد الأم قائلة :

ـ يحاول بعض الأخيار ذلك . فإذا سمعوا برجل يريد وأد ابنته سعوا اليه وكفلوها عنه . ولكنهم قلة ، تضيع أصواتهم بين الجموع الضالة الغافلة . . وتظل المرأة في هذا الذل والهوان . . ألم اقل يا فتاتي إن الموت ارحم لابنتي من هذه الحياة !!

تذكرت أم سليم تلك الحادثة واستعادت في ذاكرتها ذلك الحديث في ساعتها هذه وهي تجلس واجمة مفكرة في موقف زوجها، وانكاره عليها ذلك التفكير الجديد الذي طرا عليها . . لقد أزعجه ان يراها تهتم وتفكر وتسعى للقيام بدور جديد يختلف عن الدور التقليدي الذي كانت تقوم به المرأة . . وها هو يمارس سلطانه التقليدي في تأديبها على حد زعمه . . ها هو ذا يتركها متعلقة لا هي زوجة ، ولا هي مطلقة فماذا تفعل . .؟!

وشعرت أم سليم بهم كبير يجثم فوق صدرها ، وكأن ظلاً ثقيلاً لحياة قاسية يزحف نحوها . .

وتصحو من افكارها على يد صغيرة تمتد فتمسك بيدها . . فتلتفت إلى الوجه الصغير البريء الذي كان يحدق بها وتسمعه وهو يناجيها :

ـ أماه هل هجرنا أبي ولن يعود ؟!

وتسكت أم سليم برهة وهي تمر بيدها الحانيــة على رأس أنــس وتقاوم دموعاً تكاد تفلت من عينيها .. وتجيبه بصوت يبدو فيه الأســى :

ـ نعم يابني .. لقد هجرنا أبوك ولا يعلم أحد إلا الله متى يعود.

فيرفع أنس رأسه الصغير بثقة وينظر إلى أمه بعينين يشــع منهما بريق أخاذ :

ـ لا تحزني يا أماه ، إن الله الذي آمنا به لن يتخلى عنا .. أو ما كنت تقولين لي أن الله ولي الذين آمنوا يتكفل بهم ويرعاهم ويرزقهم وينصرهم ويكون معهم في الشدة كما كانوا معه في الرخاء ؟!

فتهلل عندئذ وجه أم سليم حين سمعت قول ابنها ، وأحاطته بذراعيها بحب واعزاز وقالت له ودموع الفرح تملأ عينيها :

ـ بلى يا بني .. « **الله ولي الذين آمنــوا ..** » (١) ولــن يتخلى عنـــا ..

لقد كان هذا هو أول العزاء . إن لها ولداً مؤمناً تأمل فيه كل خير وترجو أن تنشئه على حب الله ورسوله وطاعتهما .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

نهاية مالك

وتمضي الأيام وأم سليم صابرة راضية تعيش حياة الإيمان مع ولدها أنس .. لقد كانت سعيدة بالإسلام وبولدها المؤمن الذي تنظر إليه بآمال كبيرة .. ومن يتذوق حلاوة الإيمان وسعادة الحياة في رضى الله ، لا يهتم لما يصيبه من أذى في سبيل الله . لأن حلاوة الإيمان أعظم من كل أذى ، ورضى الله أغلى من رضى الناس .

* * *

وذات يوم يقرع باب أم سليم وإذا بالباب رجل من يثرب قادم من سفر له بالشام يخبرها أن مالك بن النضر قد مرض في الشام.. ثم مـات .

وتدهش أم سليم لهذا الخبر وتسأل بلهفة :

ـ أحقا مات مالك ..؟!

فيجيب الرجل متأثرا :

ـ اصبري يا أم سليم ، فالآجال بيد الله .. ولقد لقيت من سوء معاملة مالك ما هو كفيل بأن يخفف من حزنك عليه ..

ولكن أم سليم تتابع ـ وكأنها لم تسمع قول الرجل ـ بصوت متهدج باك :

ـ احقاً مات مالك مشركاً .. احقاً مات قبل ان يدخل في رحمة الله .. إنا لله وإنا اليه راجعون .. واحسرتاه ، لقد خسر مالك خسراناً مبيناً .

ـ ٤ ـ

انس خادم رسول الله

يثرب منذ أيام تهتز فرحاً .. ويخرج اهلها في كل يوم إلى ظاهر المدينة يتطلعون إلى الطريق بلهفة وشوق . لقد وصل إليهم نبأ خروج محمد صلى الله عليه وسلم مهاجراً من مكة إليهم ، فهم ينتظرون قدومه ويراقبون الطريق التي سيجيء منها كل يوم ..

وتأتي الساعة المباركة .. وينطلق صوت البشير في ارجاء يثرب:

ـ لقد وصل رسول الله ..

وتهتز المدينة كلها ويخرج الرجال والنساء والاطفال لاستقبال الضيف الكريم .. وتنطلق الحناجر مرحبة بالنور الجديد الذي غمر يثرب وكشف لها طريق الحق والسعادة .

ويقيم النبي صلى الله عليه وسلم في يثرب التي تصبح مدينة الرسول فيسميها المدينة .. ويشرع النبي الكريم في تنفيذ اعماله في المدينة بادئاً بالمؤاخاة بين المهاجرين والانصار .. ذلك الإخاء الذي ما شهد التاريخ له مثيلاً .

يتنافسون ويتسابقون على مؤاخاه المهاجرين .. حتى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يلجأ إلى القرعة بين الانصار على كل رجل من المهاجرين . ثم يأخذ الانصاري أخاه المهاجر إلى داره فيقاسمه داره وماله ..

لقد استطاع الاسلام ان يغير النفوس ويمحو منها الانانية والطمع ويغرس فيها الحب والإيثار .. استطاع الاسلام ان ينشيء مجتمعا متماسكا متآلفا من اناس قضوا عمرهم في الحروب والاحقاد والانانيات . وتلك نعمة كبرى أحس بها الانصار فتمسكوا بها وحافظوا عليها .. بينما الهبت هذه النعمة احقاد اليهود وملأت قلوبهم غيظا فبدأوا سلسلة من الكيد المستمر داخل الصفوف للتفريق بين الاخوة ولتفكيك هذا المجتمع الفتي المتماسك .. ولكن رعاية الله وسهر النبي القائد كانا كفيلين باحباط هذا الكيد .

❋ ❋ ❋

وتاتي ام سليم بولدها انس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكلها امل ان يقبل النبي رجاءها .. فلقد اهتدت إلى طريقة تضمن فيها لانس تربية رائعة وتزوده بعلم غزير ..

فتدخل ام سليم على النبي صلى الله عليه وسلم وتقول :

ـ (يا رسول الله ، هذا ولدي انس يخدمك) ..

فيفهم النبي صلى الله عليه وسلم قصدها ويُسَر بأنس لما يرى فيه من ذكاء وصفاء نفس .

ويلازم أنس النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم ويخدمه طيلة حياته حتى عرف بخادم رسول الله .

يقول أنس :

ـ (خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لِمَ فعلته . ولا لشيء لم أفعله لِمَ لم تفعله) .

هكذا كانت طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تربية الصحابة تربية عملية استقلالية يشعرون فيها بذواتهم ويطبقون كل خلق حسن من تلقاء أنفسهم وبمحض إرادتهم بعد اقتناعهم به .

وعلماء التربية الآن صاروا يتحدثون عن اللوم كأسلوب فاشل في التربية والتعليم . وأن أهم شيء في المربي هو أن يكون قدوة حسنة . وعليه أن يعامل الناشيء معاملة تسمح له بملاحظة عواقب أعماله ومحاكمتها .. عند ذلك يصبح الناشيء أقدر على الاعتراف بخطئه والرجوع عنه .. وعندها تكون قد نجحت في وضعه على طريق النضج والتكامل .

ويدخل انس ذات يوم على امه قائلاً :

ـ اماه . . ابو طلحة زيد بن سهل يستأذن في خطبتك زوجة له . . فماذا تقولين ؟

وكان ابو طلحة رجلاً يعرف في المدينة بالشجاعة والنبل وكثرة المال . ولكنه لما جاء يخطب ام سليم كان مشركاً بعيداً عن الله ورسوله .

فالتفتت ام سليم نحو ابنها مستغربة :

ـ ابو طلحة . . إنه مشرك . .

وتسكت قليلاً ثم تقول :

ـ إئذنْ له بالدخول يا أنس .

وهزت ام سليم رأسها بأسف وهي تقول في نفسها :

ـ اسفاً على ابي طلحة . . اما زال يعبد تلك الشجرة التي يسمّونها « العزّى » .؟!

ودخل ابو طلحة برفقة انس محييا . . ولما جلس بادرته ام سليم :

ـ (يا ابا طلحة ، الست تعلم ان إلهك الذي تعبد نبت من الأرض ؟؟!)

ـ (بلى . .)

ـ فهل هذه الشجرة التي نبتت من الأرض هي التي خلقت السموات والأرض ؟ وهل هي التي خلقتك ورزقتك ؟ أم هي التي تميتك وتحييك . . ؟!

يا أبا طلحة ، لو جئت بفأسك إلى إلهك هذا تطلب قطعه فهل يستطيع أن يمنع نفسه منك ؟! (أفما تستحي أن تعبد شجرة) ؟!

فأطرق أبو طلحة مفكراً ثم قال :

ـ فكيف عبدها آباؤنا وأجدادنا . . ! وكيف يسفه الإنسان آباءه وأجداده . . ؟!

ـ فإن كان الشيطان قد زين لآبائنا الباطل وأغواهم حتى أوقعهم في غضب الله . . فهل من العقل أن نتردى معهم ونغمض أعيننا عن الحقيقة مؤثرين رضاهم على رضى رب العالمين . . ؟!

ويطرق أبو طلحة مفكراً . . وتتابع أم سليم :

ـ يا أبا طلحة والله ما يخفى عليَّ نبلك وعلو مكانتك . . لكنني آمنت بالله ورسوله واتبعت الكتاب الذي أنزله الله إليه ، وإنني بعد ذلك لا أهتم لمال ولا جاه ، بل إن دخولك في الإسلام لا يقدر بمال . . فالمال يفنى ويزول والإيمان بالله يغني في الدنيا وبه النجاة في الآخرة . وليس الفقير الذي لا مال له ، ولكن الفقير حقاً من لا خلاق « لا نصيب » له عند الله . .

وتسكت قليلاً ثم تقول :

ويرفع أبو طلحة رأسه نحوها مدهوشا والإكبار يملأ نفسه .. ثم يسألها :

ــ ولكن ما هو هذا الدين وما الفرق بينه وبين دين آبائنا ؟

ــ الفرق كبير واسع .. إن الذي يؤمن بالله يدرك الغاية التي خلق من أجلها .. لأنه يفهم قول الله تبارك وتعالى :

« تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور »(١) .

إن الذي يؤمن بهذا الدين يمتنع عن الظلم لأنه يؤمن بيوم بعد الموت يجمع الله الناس فيه ليحاسبهم على ما فعلوا في الدنيا ثم يعطي كل إنسان جزاء أعماله فإما حياة خالدة في النعيم إن كان من المحسنين .. وإما حياة خالدة في نار جهنم إن كان من الظالمين .

إن الذي يؤمن بهذا الدين يعيش سعيداً مطمئناً لأنه يعرف من أين جاء ولماذا يعيش وإلى أين سينتهي ..

كان أبو طلحة مأخوذاً مدهوشاً لما سمع من أم سليم ، وشعر

---

(١) سورة الملك . الآية ١ ــ ٢ .

بان الامر اخطر من ان يتسرع فيــه فآثر ان تكون له مهلة للتفكيـر فنهض مستاذناً وقال :

ــ (حتى انظر في امري) يا ام سليم .

ــ كما تشاء يا ابا طلحة .

خرج ابو طلحة حائراً متعجباً مما سمع .. إنه لم يسمع قبل الآن بمثل هذا المهر الذي طلبته ام سليم ، ولا شهد امرأة قبل اليوم يعرض عليها المال والجاه فتأباهما وتطلب شيئاً آخر وهو الدخول في الاسلام ..!!

فهل الإيمان بمحمد وربه اغلى من كل مال وجاه ؟!

هكذا كان يسأل نفسه وهو في طريقه الى داره .. وفكر في حياته الماضية .. لقد كان شقياً ، ولم تستطع هذه الاموال الطائلة التي يمتلكها ان تخرجه من شقائه .. كان شقياً ضائعاً لانه لا يعرف من اين جاء ، ولماذا يعيش ، وإلى اين سينتهي ..؟

كان يرى الناس امامــه يعيشون ظالمين او مظلومــين .. ثم يموت الظالم والمظلوم وينتهي الامر دون ان يتحقق العدل ..!!

كان يحس برعب كبير كلما رأى جنازة .. وكان يقول في نفسه :

ــ لماذا جئنا إن كان الموت هو النهاية الاخيرة ..؟!

تباً لهذا الإنسان ، الا تزيد حياته عن حياة الحيوان بشيء ..!

وكان كثيراً ما يلجأ إلى صنمه في ساعات الضيق لعله يجد جواباً ..

صيانة هذا إلى [illegible]
التفاهة تفرق الحاضرين وتشغلهم عن البحث عـن أي معنى كريم للحيـاة .

ويصل أبو طلحة إلى داره ويلتفت نحو "نصب العزى" الذي جعله أمام داره يطوف به كلما خرج من الدار وكلما عاد إليهـا .. ولكن ما باله" اليوم يقف أمامها جامداً وقـد كان يسرع إليها من قبل فيطوف بها خاشعاً مصلياً ..؟! ما باله يحدق بها مفكراً ..؟!

ولبث مدة يحدق في هذا التمثال الحجري لشجرة كبيرة .. هذه هي العزى التي كان يعبدها .. والتي عبدها من قبل آباؤه وأجداده .. هذه هي العزى التي عجزت عن إنقاذه من ضياعه فهل تستحـق أن تكون إلهاً يعبـد ..؟! وهـل كان آباؤه في ضـلال وسفاهـة ..؟!

وشعر أبو طلحة بالتعب والحيرة فجلس على مصطبة له أمام داره .. وأسند وجهه إلى يديه وراح يفكر .. وأخذ ينقل بصره بين السماء والأرض . في هذا المنظر الطبيعي الأخاذ والشمس تملأ الدنيا من حوله ببريق ضحكتها .. فتلامـس أطراف التلال وأغصان الأشجار فتمنـح المنظر نضارة وبريقاً وظـلالاً" .. وتفتحت نفس أبي طلحة على هذا الجمال وكأنه يرى الكون لأول مرة . وجعـل يناجي بقلبه هذا الجمال من حوله :

أيتها السماء التي لا تدرك عيناي لها آخراً . .

من هو الإله الذي رفعك . . ؟!

أيتها الارض المبسوطة التي لا أعرف لها نهاية . .

اية يد جبارة أبدعتك . . ؟!

أيتها الشمس الضاحكة الوهاجة التي تمد الدنيا بالنور والدفء . .

من هو الإله الذي صنعك ويهيمن عليك . . ؟!

أيها الكون . . من هو ربي الذي خلقني والذي بيده أمري . . والذي يستطيع ان يخلصني من شقائي إذا اتبعت امره . . ؟! أهو هذا الرب الذي يدعو إليه محمد والمسلمون معه . . ؟!

وسمع صوتاً عذباً يترنم بحنان وينشد نشيداً غريباً . .

والتفت نحو مصدر الصوت فرأى رجلاً من المسلمين يسعى وراء اغنامه وهو يرتل بحنو ذلك النشيد الغريب . . لا شك أنه يرتل آيات من ذلك القرآن الذي جاء به محمد . .

وأرهف أبو طلحة سمعه نحو الرجل يتبين ما يقول :

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير . يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾(١) .

---

(١) سورة التغابن ، الآية ١ ــ ٤ .

عينيه .. إنه أمام الله وجهاً لوجه .

الله الذي خشعت له السماوات والأرض ..

الله الذي يطلع عليه الآن من عل , وهو جالس تجاه صنمه العزى .

وارتجفت أوصال أبي طلحة وسمع صوت أم سليم يعود إليه:

ـ أما تستحي من الله أن تعبد شجرة ..؟!

وغطى وجهه وأخذ يبكي نادماً خجلاً من ربه .. ثم هب من مجلسه مسرعاً وتناول فأساً له وهو يتمتم باكياً :

ـ سبحانك يارب تبت إليك .. وها هي العزى أقطعها بين يديك .. وأهوى بفأسه على الشجرة تقطيعاً وتحطيماً وهو يقول :

ـ تباً لك ولمن عبدك .. ولكل من يعبد غير الله ..

واحس براحة ونشوة تغمران نفسه .. وشعر بأنه يتذوق سعادة ما ذاق مثلها من قبل أبداً .. وردد في نفسه :

ـ حقاً يا أم سليم إن الإيمان بالله هو أغلى من كل مال وجاه .

وأسرع لتوه إلى بيت أم سليم :

ـ لقد عرفت طريقي يا أم سليم وإنني (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) .

- ٦ -

الأسرة المؤمنة

وهكذا تزوجت أم سليم من أبي طلحة ..

لله درك يا أم سليم ، لقد تزوجت على مهر ما سبقتك إليه إمرأة من نساء العالمين ..!!

وصار أبو طلحة بعد ذلك يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعلم القرآن منه . وعرف بالجهاد والمسارعة إلى أمر الله ورضاه .. حتى لقد كان في موقعة احد يرمي بالنبل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم .

يقول انس :

(لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو طلحة بين يدي النبي مجوب «متترس» عليه بحجفة «بترس» له وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد القد « أي شديد وتر القوس في النزع والمد » يكسر يومئذ قوسين أو ثلاثا وكان الرجل يمر ومعه الجعبة « الكنانة » من النبل . فيقول انثرها لابي طلحة ، فاشرف النبي صلى الله عليه وسلم إلى القوم . فيقول أبو طلحة :

— يانبي الله بأبي أنت وامي لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك ..

ارى خدم (خلخال) سوقهما تنقزان(١) القرب على متونهما تفرغانها في افواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها في افواه القوم . ولقد وقع السيف من يدي ابي طلحة مرتين او ثلاثا) .

هكذا كان بلاء ابي طلحة في المعركة وهكذا كان يفتدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ... حتى قال النبي عليه السلام عنه:

ـ (لصوت ابي طلحة في الجيش خير من فئة) .

وهكذا كان حرص ام سليم على ان تساهم في الجهاد مع المسلمين بالقدر الذي تستطيع ..

وما اروع الطفل الناشيء بين ابوين مجاهدين يشهدهما في الأزمات والمعارك ، فيرى من إقدام ابيه وتضحيته ما يملأ قلبه شجاعة .. ويرى من سعي امه ونشاطها ومساهمتها ما يلهب نفسه عاطفة ..

إن هذه الدروس العملية التي كان يشهدها أنس ويصفها كانت له أفضل من الخطب والمحاضرات الرنانة عن الجهاد التي نتشدق بها نحن ونبديء القول فيها ونعيد ..

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال :

(كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه) .

---

(١) تحملان وثبا .

– ٧ –

حتى تنفقوا مما تحبون

وكان ابو طلحة من أكثر الأنصار مالاً .. وكان من احب امواله إليه بستان من نخيل يسمى بيرحاء . ويقع مقابل مسجد النبي عليه الصلاة والسلام . وكان رسول الله كثيراً ما يدخل إليه ويشرب من مائه الطيب .

وبينما كانت ام سليم تشرف على البستان ذات يوم إذا بأبي طلحة يقبل نحوها والبشر بادٍ في وجهه .. فسألته :

– من اين يا أبا طلحة ؟!

–من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولقد انزل الله على نبيه آيات يقول فيها :

« لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون »(١) ..

فتحولي يا ام سليم عن هذا البستان فإنه من احب مالي إلي وإني قد جعلته صدقة ابتغي بها رضوان الله .

فيتهلل وجه أم سليم ويتلألأ سعادة وتقول :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٩٢ .

ـ نعم .. قلت له : (إن أحب مالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله تعالى أرجو برّها عند الله فضعها يارسول الله حيث أراك الله) .

ـ وماذا قال لك رسول الله ؟

ـ قال لي : (**بخ .. « كلمة استحسان » ذلك مال رابح .. ذلك مال رابح**) ..

ـ قد ربحت والله يا أبا طلحة ومنحت البر والرضى من ربك.

* * *

ومضى أبو طلحة في طريق الحق يبذل ماله ونفسه في سبيل الله وأم سليم إلى جانبه تشد من أزره وتعينه على البذل في سبيل الله ..

— ٨ —

نجوع معاً .. ونأكل معاً

ولقد مرت على المسلمين أيام من الشدة والفقر والجوع تغلبوا عليها بالصبر والتعاون والإيثار . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأب الرحيم بهم يجوع معهم ولا يرضى أن يتفرد عنهم بطعام أو شراب .

ويأتي أنس يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيراه جالساً مع أصحابه وقد عصب بطنه بعصابة .. فيسأل بعض أصحابه :

— (لم عصب رسول الله بطنه ؟) .

فيقولون :

— (من الجوع) .

فيتألم أنس ويذهب إلى أبي طلحة ويقول :

— (يا أبتاه قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عصب بطنه من الجوع) .

— رسول الله قد بلغ به الجوع هذا المبلغ ؟!

تعال معي يا أنس إلى البيت لننظر هل لدينا من الطعام ما يكفي لرسول الله وأصحابه ..

ـ يا أم سليم هل لديك طعام تدعوا إليه رسول الله وأصحابه؟
فتنظر أم سليم فيما لديها وتقول :

ـ (عندي أقراص من خبز وتمرات . فإن جاءنا رسول الله وحده أشبعناه وإن جاء آخر معه قل عنهم ..) .

ويبدو الأسف على وجه أبي طلحة ويقول :

ـ أقراص من خبز وتمرات ؟! فما تصنع بها يا أم سليم ، ورسول الله يعصب بطنه من الجوع وأصحابه معه لا يجدون ما يسكت الجوع عنهم ؟

وتسكت أم سليم مفكرة ثم تقول :

ـ أرى أن نرسل أنس إلى رسول الله يدعوه ويخبره بما لدينا من طعام فيختار رسول الله ما يراه مناسبا .

ـ أصبت .. فذلك هو أفضل حل .

وانطلق أنس لدعوة رسول الله .. وبعد قليل عاد ومعه الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع الناس .. فخجل أبو طلحة وانقلب الى أم سليم يقول لها :

ـ (قد جاء رسول الله بالناس وليس عندنا ما نطعمهم) .

فأجابته بثقة واطمئنان :

ـ يا أبا طلحة (الله ورسوله أعلم ..) وإن الله لن يخزيك في أضيافك فإنك تبذل المال والنفس في سبيل الله لا تريد إلا رضاه .

عند ذلك اطمأن ابو طلحة وخرج إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه يستقبلهم ..

واقبل رسول الله مع ابي طلحة فدخل على ام سليم وقال :

ـ (هلمي ما عندك يا أم سليم) .

فقدمت له ما عندها . فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم ودعا الله ان يبارك فيه .. وصار يأذن للناس جماعة جماعة ، حتى أكلوا جميعاً . ثم اكل رسول الله واهـل البيت وزاد لديهم مـن الطعام فاهدوه إلى جيرانهم .

❋ ❋ ❋

لقد صبر المسلمون على ايام الشدة التي امتحنهم الله بهـا .. وواجهوا الامتحان بالعزم والتآخي والتعاون والإيثار . ففتـح الله لهم بعد ذلك أبواب الرزق وورثوا كنوز كسرى وقيصر فوزعوها بين المجاهدين والمحتاجين . واقاموا العـدل بين الناس وحققوا لهـم الحرية والكرامة والرخاء حتى صار موزعو الصدقات في عهد عمر بن عبد العزيز يبحثون عن مستحقي الصدقات فلا يجدون ..

وذلك بفضل تطبيق احكام القرآن الـذي أنزله الله رحمـة وسعادة للعالمين ..

— ٩ —

ادب اللسان

وتمر الأيام وام سليم سعيدة لانها قد حققت بيتاً اسلامياً اساسه التقوى والجهاد في سبيل الله . إنها سعيدة لأنها تربي اولادها على الإيمان بالله . .

وهذا انس يغدو على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخدمه ويتعلم منه القرآن والحديث . لقد كان أنس املاً كبيراً من آمالها . وكثيراً ما كانت تفكر فيه وتدعو الله ان يجعل منه عالماً صالحاً مجاهداً .

ولكن . . ما بال انس يتاخر اليوم عليها . . وهل شغله اللهو واللعب مع رفاقه حتى ابطأ في العودة إلى البيت ؟!

ووقفت ام سليم امام باب الدار تتطلع إلى الطريق باحثة من أنس قلقة عليه .

وظهر أنس في الطريق مسرعاً نحو البيت . . وما ان اقترب من امه حتى سالته بغضب :

— (ما حبسك) ولم تاخرت في العودة حتى الآن يا انس ؟

— (أتى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا العب مع

الغلمان فسلم علينا وبعثني في حاجته ، فتأخرت عليك يا اماه وارجو ان تغفري لي ..

فهدأت ام سليم عند ذلك وقالت :

ـ لا عليك يا بني ما دمت في خدمة رسول الله .. ولكن (ما حاجته) يا انس ؟.

فخفض انس راسه وقال :

ـ (إنها سرٌ ..) يا اماه .

وظهر السرور على وجه ام سليم لما رأته من أدب ابنها وامانته. ربتت بيدها على كتفه قائلة :

ـ (لا تخبرنّ بسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم احداً ..)

وتؤثر وصية أم سليم في انس ويعمل بها طوال حياته فيعرف عنه الادب والصمت عن اسرار الناس .. لأنه فهم من امه أن لسان الإنسان يجب أن يحفظ ويصان فلا ينطق إلا بما ينفع الناس .

– ١٠ –

حُسن التبعّل(١) . . !!

ويمرض ابن لها ذات يوم ويتألم له ابو طلحة ، ثم يخرج لأعماله وتبقى أم سليم إلى جانب إبنها تمرضه . . ولكن الطفل لا يلبث ان يموت بين يديها . . وتتمزق نفس الأم لموت ولدها . . لكنها تصبر وتتجلد وتحمد الله وتستسلم لإرادته . .

وتفكر أم سليم بزوجها أبي طلحة كيف انه سيعود من اعماله متعبا فيستقبل هذا الخبر الأليم . . ولكنها تهتدي إلى رأي . . فتسرع إلى من في البيت وتوصيهم ان :

– (لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا التي تحدثه . .) واكتموا الخبر الأليم عنه حتى أتلطف في اخباره . .

وتعد أم سليم طعاما لزوجها ، وتتزين في انتظاره . . ويعود ابو طلحة في المساء متعبا متلهفا يسأل عن ابنه :

– (ما فعل إبني . .) ؟

---

(١) جاء في كتاب الإصابة في تاريخ الصحابة في قسم الصحابيات هذا الحديث عن أسماء بنت يزيد أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك وإن الرجال فضلوا بالجهاد والجماعات وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا أولادهم أفنشاركهم في الأجر . . ؟ . . . فقال صلى الله عليه وسلم : « انصرفي يا أسماء وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعّل إحداكن يعدل كل ما ذكرت » ومعنى حسن التبعل : حسن توجيه الأسرة .

فتتلقاه بابتسامتها وهدوئها المعهودين :

ـ اطمئن يا ابا طلحة . . (هو اسكن مما كان) .

وتجيئه بالطعام فيأكل ويشرب ويطمئن ويصيب منها .

وعندما ترى ام سليم انه قد ارتاح وزال عنه التعب. تقول له:

ـ (يا ابا طلحة ارايت لو ان قوماً اعاروا عاريتهم اهل بيت فطلبوا عاريتهم ، الهم ان يمنعوهم ؟ . .)

قال ابو طلحة :

ـ (لا . .) .

ـ فتقول ام سليم :

ـ فإن الله قد استرد عاريته واخذها . . (فاحتسب إبنك). واصبر فإن الله قد توفاه إليه .

ويعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه القصة من ابي طلحة فيدعو الله ان يبارك لهما في ليلتهما ويعوضهما خيراً .

يقول انس :

ـ « فحملت . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر وهي معه ، وكان رسول الله إذا أتى المدينة من سفر لايطرقها طروقاً « اي لايأتيها ليلاً لئلا يرى من اهله ما قد يكره » . فدنوا من المدينة فضربها المخاض ، فاحتبس عليها ابو طلحة وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول ابو طلحة :

ـ إنك لتعلم يارب انه يعجبني ان اخرج مع رسول الله إذا خرج وادخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى !

فانطلقنا .. وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاما .

فقالت لي امي :

ـ يا انس لا يرضعه احد حتى تغدو به على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما اصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه تمرات . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

ـ امعه شيء ؟

قال انس :

ـ نعم تمرات .

فاخذها النبي فمضغها ثم اخذها من فيه فجعلها في « فم » الصبي ثم حنكه « ذلك فكيه بالتمر الممضوغ » وسماه عبد الله) .

فقال رجل من الانصار :

ـ (فرأيت تسعة اولاد كلهم قد قراوا القرآن ـ يعني من اولاد عبد الله المولود ـ) .

* * *

لقد نجحت ام سليم في تنشئة اولاد واحفاد يحملون القرآن ويدعون الناس إليه ويجاهدون لإعلاء كلمة الله .

- ١١ -

وحتى في المعارك ..!!

تلك هي أم سليم الزوجة المؤمنة الناجحة .. والأم المربية المجاهدة . وليست هذه كل صفاتها .. بل إنها كانت الصحابية المناضلة التي تصحب النبي صلى الله عليه وسلم مع زوجها في أسفاره وتخرج للجهاد مع زوجها في غزواته لتقدم خدماتها للمجاهدين ومساعدتها للجرحى .

شهدت موقعة أحد وفتح مكة ويوم حنين .. ولقد كانت لها مواقف من الثبات عجز عنها الرجال .

ففي يوم حنين .. لما فاجأت قبيلة هوازن المسلمين بكمين لها في منحنيات الوادي .. وفوجيء المسلمون بسيل من النبال ينهمر عليهم من كل مكان .. وتزعزعت الصفوف وانهزم المسلمون هاربين لا يلوون على شيء . ووقف النبي الكريم يدعوهم ويناديهم :

- (أين أيها الناس .. هلموا إلي" .. أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله ..) .

لكن صوته الكريم ضاع في جنبات الوادي بين صخب الرجال وتدافعهم في الهرب وصيحات الخوف الصادرة عنهم في ذلك اليوم العصيب الذي وصفه الحق تعالى في القرآن الكريم :

في ذلك اليوم ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين والانصار وأمر النبي عمه العباس أن ينادي :

ـ (هلموا يا معشر الانصار الذين آووا ونصروا .. يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ..) .

فاندفع فريق من المهاجرين والانصار يلبون النداء :

ـ (لبيك يا رسول الله ..) .

وتركوا إبلهم المذعورة واسرعوا يرمون بأنفسهم إلى الموت تلبية للنداء الحبيب .

وضمن هذا الهول الذي هز النفوس وشتت الصفوف .. ومن بين وابل النبال المتساقط .. يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم فيرى أم سليم مع زوجها أبي طلحة تقف قريبا منه بثبات وقد امسكت بزمام جمل لأبي طلحة .. فيتعجب النبي من وقفتها .. ويقول :

ـ (أم سليم ..؟!)

ـ (نعم بأبي انت وأمي يا رسول الله .. اقتل هؤلاء الذين يفرون عنك كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل ..)

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٥ .

فنهاها النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك برفق قائلاً :

ـ إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم)

ويلمح أبو طلحة بريق خنجر في يد زوجته فيقول للنبي صلى الله عليه وسلم :

ـ (هذه أم سليم معها خنجر !)

فتقول :

ـ (اتخذته . . إن دنا مني أحد المشركين بقرت به بطنه) .

وتثبت الفئة المخلصة حول النبي صلى الله عليه وسلم . . ويقتحم المؤمنون بقيادة نبيهم الكريم صفوف العدو بإقدام يطلبون النصر أو الشهادة في سبيل الله ، فيرسل الله جنوداً من عنده لتأييد المؤمنين . .

وتتحول دفة المعركة وينتصر المسلمون بعون الله وثباتهم وصبرهم . . ينتصرون بعد أن لقنهم الله درساً بليغاً في الحذر والتواضع لله وحسن التوجه إليه .

خاتمــــة

وهكذا كانت أم سليم مثالاً للبطولة في جميع مجالات الحياة في المعارك الحربية ، وفي معارك الحياة اليومية فالحياة كلها تحتاج إلى حذر وجهاد وصبر وثبات من المؤمن ، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرها بالجنة فقال : **(رأيت الرميصاء « وهو لقب لها » في الجنــة)** .

تلك هي أم سليم ..

فتأملوا كيف يصنــع القرآن بالنفوس وكيف يرتفع بهــا الى أسمى المراتب والدرجات .. ولقد صدق رســول لله صــلى الله عليه وسلم حين قال :

« إن الله يرفع بهذا القرآن اقواما ويضع آخرين » .

فيرتفع من يفتح قلبه وعقله للقرآن في كل زمان . ويهبط من يعرض عنه ويتركه مغتراً بملذات الدنيا ولهوها وعيثها وزينتها .

* * *

ايتها المرأة المؤمنة . .

ذلك هو الدور الذي قامت به المرأة المؤمنة الأولى في بناء المجتمع الرباني . . إنها لم تنحط إلى دور الدمية إلا عندما انحدر المجتمع المسلم من مرحلة العقل إلى مرحلة الغريزة . . وبدأت حضارته بالأفول .

فحري بك الآن أن تجددي ذلك الدور العظيم وتمضي قدماً بواجبك بنتاً ، واختاً ، وزوجة ، ومربية ، وربة بيت ، وداعية الى الله . . . . تبتغين بذلك كله رضوان الله وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين .

* * *

عظماء مجهولون

٥

تجد عددا من قصص الصحابة رضوان الله عليهم
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

زهير بن أبي أمية

رضي الله عنه

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

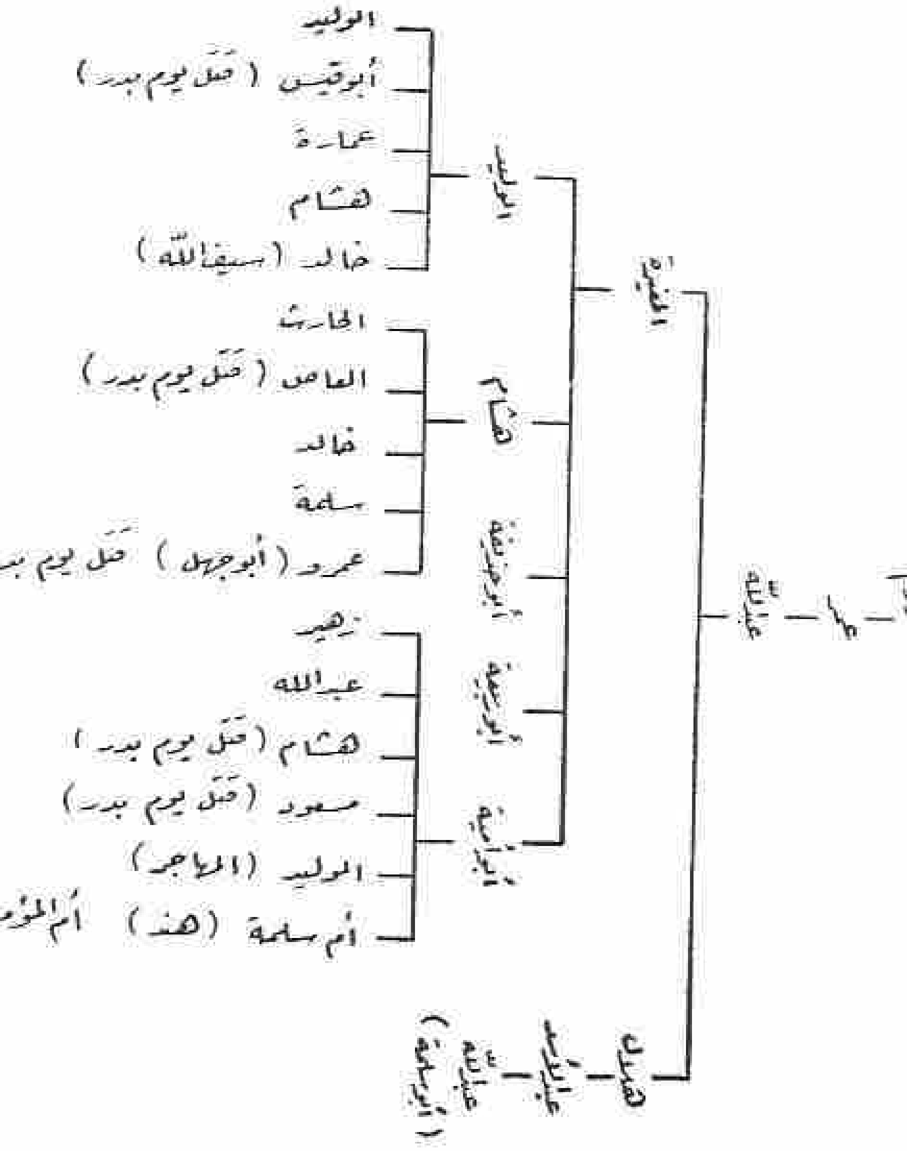
الوليد
أبو قيس (قتل يوم بدر)
عمارة
هشام
خالد (سيف الله)
الحارث
العاص (قتل يوم بدر)
خالد
سلمة
عمرو (أبو جهل) قتل يوم بد
زهير
عبدالله
هشام (قتل يوم بدر)
مسعود (قتل يوم بدر)
الوليد (المهاجر)
أم سلمة (هند) أم المؤ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين وبعد : تعدّ بنو مخزوم أشهر بطون قريش الاثني عشر بعد بني عبد مناف ، وكان المغيرة ابن عبد الله المخزومي أجلّ رجل فيها ، وله عدد من الأولاد ، أكبرهم أبو أمية الذي ورث الزعامة عن أبيه ، وكان على درجة من الكرم لدرجة أنه إذا كان في موكب لا يقبل أن يحمل أحد منهم زاداً أو طعاماً ، بل يكفيهم جميعاً ، لذا عرف باسم « زاد الركب » ، وكان أكبر رجل في قريش عام إعادة بناء البيت الحرام إثر سيل جارف هدّمه وذلك حوالي العام الخامس والثلاثين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في السنة الخامسة قبل البعثة النبوية ، وهو الذي أشار على قريش بعد اختلافها على وضع الحجر الأسود بتحكيم أول داخل ، وكان أن دخل الأمين محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، فارتفعت أصواتهم : قبلنا بالأمين حكماً ، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن بسط رداءه،

رئيس كل قبيلة أن يأخذ بطرف منه ، حتى إذا وصلوا إلى المكان المطلوب ، أخذ صلى الله عليه وسلم الحجر بكلتا يديه ، ووضعه في مكانه .

وكان هذا السيد المطاع أبو أمية بن المغيرة قد تزوج عاتكة بنت عبد المطلب فولدت له زهيراً وعبد الله، وهي عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تزوج أيضاً عاتكة بنت عامر بن ربيعة ابن مالك الكنانية فأنجبت له هشاماً ، ومسعوداً ، والوليد الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجر ، وهند (أم سلمة) أم المؤمنين رضي الله عنها .

وتوفي أبو أمية ، وورث عنه ابنه زهير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم المجد والسؤدد ، ونشأ سيداً من سادات بني مخزوم ، وأشراف قريش ، ولكنه مع وجود أعمامه وخاصة الوليد ابن المغيرة كان يعد شريفاً من الدرجة الثانية في بني مخزوم احتراماً لأعمامه وتوقيراً لهم .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآمن به وصدقه نفر من قريش منهم جماعة من السادات وأبنائهم ، ومنهم أصحاب الفكر السليم والرأي السديد ، ومنهم جماعة من المستضعفين . أما الزعماء وكبار القوم فقد رأوا في اتباعهم محمداً ضياعاً لزعامتهم ، وخسارة لمركزهم ، فوقفوا في وجه الدعوة ، وعملوا جهدهم في محاربتها ، إذ أن الوجاهة كثيراً ما تعمي وتصم عن الحق ، وإن

طلب الدنيا كثيراً ما يودي بالمرء إلى الهلاك ، فلم ير هؤلاء الوجهاء أمامهم إلا الزعامة ، ولم يشعروا إلا بالغطرسة والتكبر ، وظنوا بأنفسهم أنهم أكبر من أية قوة مهما علت ، وأنهم أكبر من الحق مهما ارتفع ، ولكن خاب ظنهم ، وضاع تفكيرهم ، فإذا بالباطل يسقط صريعاً ، ويعلو الحق عليه ، ويظهر كل شيء على حقيقته ، فمن أدرك نفسه واتبع الحق نجا ، ومن استمر على باطله خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

وكان من هؤلاء النفر ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم زهير بن أبي أمية إذ أراد أن يحتفظ لنفسه بموقعه مع كبار قريش ، وهو منهم ، وألا يضيع مركزه بينهم ، وهو أحدهم ، إذ حجبت الزعامة النور عن عينيه ، وحالت دون تفكيره ، ووقف طلب الدنيا دون وصوله إلى الحقيقة ، ولكنه كان في الوقت نفسه قليل الحرب للدعوة الإسلامية ، ومهادناً لها أشد المهادنة، بل كثيراً ما كان يميل نحو صاحبها صلى الله عليه وسلم ، لا لقريبه منه ، وإنما لما يجد في الإسلام مما يتفق مع العقل السليم والفطرة البشرية

وكان أبو طالب يمدح النفر الذين يساندونه في دعمه لابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم، وخاصة السادة منهم ، ليستميلهم إليه ، ويبقوا بجانبه ، وفي إحدى قصائده ذكر ابن اخته زهيراً هذا بقوله :

ونعم ابن أخت القوم غير مكذب ... زهيراً حساماً مفرداً من حمائل
أشم من الشم البهاليل ينتمي ... إلى حسب في حومة المجد فاضل

مقاطعة بني هاشم وعدم مبايعتهم أو مناكحتهم ، فانزووا إلى شعب أبي طالب ، ودخل معهم الشعب بنو عمهم بنو المطلب ، بينما اتخذ عنهم بنو عميهم بنو عبد شمس ، وبنو نوفل ابنا عبد مناف ، وبقوا في الشعب ما يقرب من ثلاثة أعوام ، لاقوا فيها العذاب ، وأكلوا ورق الشجر ، على حين كانت قريش في حرمها تتاجر ، وتعيش بطمأنينة ورخاء .

لم يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بقية المسلمين أن يدخلوا مع بني هاشم وبني المطلب في الشعب ، وإنما طلب منهم الاتجاه إلى الحبشة ، فكانت هجرة الحبشة الثانية ، ومن لم يستطع الهجرة لسبب من الأسباب كأن يمنعه أهله أو يحبسه قومه أو كان من المستضعفين والموالي فقد بقي في مكة مع قريش ، وقد يكون بعضهم ذا مركز كأبي بكر رضي الله عنه ، وما ذلك المنع من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدخول في الشعب للمسلمين إلا ليمنعهم من أن يعيشوا في حمى الجاهلية . أما بنو هاشم وبنو المطلب فقد دخلوا في الشعب كلهم ، مسلمهم وكافرهم، وكانت الكلمة فيه للجاهلية باستثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كان الدخول كله من أجله والمقاطعة بسببه ، وكان إذا آوى إلى فراشه عليه الصلاة والسلام ، ورأى الناس مكانه جاء أبو طالب

وطلب منه أن يغيّر مكان نومه، وطلب من أحد أبنائه أو أقربائه أن ينام مكانه حتى إذا كان قد بيّت بعضهم الغدر برسول الله أصاب غيره . فالمسلمون كجماعة لا تدخل بمجموعها في حمى الجاهلية كما لا يدخل عضو في حمى جماعة إذ تذوب شخصيته ضمنها أما كأفراد تحميهم عصبتهم أو يمنعهم قومهم فهذا أمر آخر ويمكن أن يقبل ، فقد دخل عثمان بن مظعون رضي الله عنه في جوار الوليد ابن المغيرة ، ودخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في جوار ابن الدغنة ، ودخل أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي في جوار خاله أبي طالب ، وفوق كل هذا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوار المطعم بن عدي ، وكذلك فالدخول إلى الشعب يعدّ جواراً إلا أن الصفة الفردية هي التي كانت واضحة السمة ، ومع هذا فالرسول صلى الله عليه وسلم كان العنصر المحرك فيها والأساسي ، ولم يكن لتفرض عليه الجاهلية كلمتها، إذ أن الحصار كله كان من أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد ثلاثة أعوام من البقاء في الشعب مشى هشام بن عمرو وكان قريباً لبني هاشم ، وواصلاً لهم ، يرسل إليهم الطعام سراً ، وكان ذا شرف في قومه، فمشى إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، وقال له : يازهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ، لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ أما إني أحلف بالله : أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ، ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه

حتى أنقضها ، قال : قد وجدت رجلاً لك ، قال : فمن هو ؟ قال : أنا ، قال له زهير : أبغنا رجلاً ثالثاً .

وسار هشام بن عمرو إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وقال له : يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك ، موافـق لقريش فيه ، أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً ، قال : ويحك ، فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، قال : قد وجدت ثانياً ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال : ابغنا ثالثاً، قال : قد فعلت ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، قال ابغنا رابعاً، ثم ذهب هشـام إلى أبي البختري بن هشام ، فكسبه إلى صفوفهم،ومن عنده انتقل إلى زمعة بن الأسود الأسدي ، فكلمـه في الأمر ، فوافقـه على ما وافق عليه الآخرون .

وتواعد هؤلاء النفر (خَطم الحجون) ليلاً بأعلى مكـة ، فاجتمعوا هنالك ، فأجمعـوا أمرهم ، وتعاقـدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير : أنا أبدؤكم ، فأكون أول من يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أمية وعليه حُلّة ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أقبل على الناس فقال : ياأهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب ،وبنو هاشم هلـكى ، لا يباع ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفـة

القاطعة الظالمة . فردّ عليه أبو جهل ، وكان في ناحية أخرى من المسجد ، وقال : كذبت والله لا تشق ، إلا أن زمعة صدّق زهيراً ، وقال : مارضينا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ، ولا نقرّ به ، ثم صدّق المطعم ماقاله أصحابه ، وكذّب من قال غير ذلك ، وتبرأ إلى الله منها ، ومما كتب فيها ، وأيدّ هشام بن عمرو رفاقه ، فقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد آكلتها إلا « باسمك اللهم » .

على الرغم من هذا الموقف النبيل والتعاطف الذي كان يبديه زهير تجاه المسلمين ، وعدم إظهار العداء الواضح الذي كان يبدو من بقية المشركين من سادة قريش ، إلا أن زهيراً بقي في موقفه المتنكر للاسلام ، ومعارضته لابن خاله محمد بن عبد الله رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، إذ استمر يشعر أنه واحد من وجهاء قريش ، ويجب ألا يتخلى عن موقفه أبداً كبقية الوجهاء ، إذ في تخليه عيب واضح ، وضعف لمركزه المرموق بين أفراد القبيلة جميعهم ـ حسب المفهوم الجاهلي ـ ، وهذا ليس بالأمر الغريب فإن خاله أبا طالب كان يثق بابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم بكل ما في ذلك من معنى الثقة ، ويحميه بكل ما يستطيع من حماية ، ويقف دونه الموقف الذي يحول دون أن يمكن قريشاً من القيام بعمل ضده ، بل إذا أخبره محمد بأمر غيبي يقول له : أربك أخبرك؟ فإن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم ، صدّق أبو طالب ابن أخيه ، بل أعلن ذلك لقومه ، وافتخر

محمداً .

وترك المسلمون الأوائل مدينتهم مكة المكرمة لما أصابهم من أذى قريش ، وهاجروا إلى المدينة ، وبقي زهير على موقفه الأول لا يتزحزح عنه ، يعيش سيداً في مكة ، وعلى الرغم من الانتصارات التي أحرزها المسلمون ، والدعم الذي كانوا يلقونه من السماء ، ولولاه لما كان انتصار ، بل لا يمكن تفسير تلك الانتصارات إلا به ؛ فلم يكن العدد ليتساوى ، ولم تكن العُدد لتتعادل ومع ذلك فالنصر كان دائماً بجانب المسلمين ، إلا أن زهيراً لم يأبه بالأمر كثيراً، بل لم يعمل عقله في ذلك ليتوصل إلى الحق والنور الساطع الذي عمّ سناه ما بين مكة والمدينة وما جاورهما .

وسارت قريش من مكة باتجاه المدينة تريد تأديب المسلمين ــ حسب زعمها ــ والقضاء عليهم ، وكانت معركة بدر الكبرى بين الفريقين ، وكانت فرقاناً بين الحق والباطل ، انتصر فيه الحق واتضح ، وهزم الباطل واختفى ، وفقدت قريش على أرض المعركة سبعين قتيلاً ، ومثلهم أسرى بيد المسلمين ، وكان بين القتلى أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة وأخوه العاص ابنا عم زهير بن أبي أمية بن المغيرة وابن عمه الآخر أبو قيس بن الوليد وأخوا زهير بالذات وهما : هشام ومسعود ، ومع هذه الفاجعة بالنسبة إلى

قريش عامة وبالنسبة إلى زهير خاصة ، إلا أن زهيراً لم يزدد حقده ولم يغيّر موقفه ، ولم يفكر بالانتقام أو بالغدر كما حاول غيره، وكما فكر آخرون .

وقويت شوكة المسلمين ، واتجهوا نحو مكة فاتحين، ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، ونزل بأعلاها ، وعندها شعر زهير بن أبي أمية بالخطر ، ورأى أنه يحدق به من كل جهة ، وظنّ كما ظنّ غيره من أهل مكة أنها القوة ، وأنه الملك . فلم يجد بدّاً من أن يفكر في النجاة ، إذ خاف على نفسه ، وأرشده عقله أن يستجير بابنة خاله أم هانىء بنت أبي طالب ، وكانت عند ابن عمه هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، فاستجار بها هو وابن عمه الحارث بن هشام أخو أبي جهل ، فأجارتهما ، تقول أم هانىء : فدخل عليّ علي بن أبي طالب أخي ، فقال : والله لأقتلنهما ، فأغلقت عليهما باب بيتي ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل في جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ، ثم انصرف إليّ ، فقال : مرحباً وأهلاً يا أم هانىء ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي ، فقال : قد أجرنا من أجرت ، وأمّنا من أمّنت ، فلا يقتلهما .

ودخل زهير في الاسلام مع من دخل من أهل مكة ، فكان من الطلقاء ، ولكن يبدو أن هذا الدخول إنما كان بالتبعية مع قومه ، وإن كان من المتبوعين .

وصلت أخبار فتح المسلمين لمكة إلى قبائل العرب كلها .

مالك بن عوف النصري ، وانضمت إليها كل من ثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وبعض بني هلال ، ولما سمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمع السير إليهم ، فخرج معه أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة وعددهم عشرة آلاف مقاتل ، وانضم إليهم ألفان من أهل مكة من الطلقاء ، وفيهم وجهاء القوم إذ كان من عادتهم الخروج ، فلو تخلفوا لعدّوا محاربين أيضاً ومتخاذلين . بل غير مؤمنين ، ولربما كان منهم من لم يدخل الإيمان إلى قلبه ، بل ربما كان أكثرهم على هذه الحال . ومن وجهاء القوم الذين ساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سفيان ، وزهير بن أبي أمية المخزومي ، وأبناء عم زهير الحارث بن هشام بن المغيرة وأخوه خالد ، وهما أخوا أبي جهل ، وهشام بن الوليد بن المغيرة ، أخو خالد بن الوليد وغيرهم كثير مثل صفوان بن أمية وأخيه .

وفي وادي حنين التقى الجمعان ، وكانت هوزان قد سبقت وجموعها إلى ذلك المكان ، وكمنت في بعض شعابه ، فلما وصل المسلمون إلى الوادي فوجئوا بالاغارة عليهم من كل مكان ، ولما كان معهم بعض الطلقاء ممن لم يؤمنوا بحق لذا ولوا الأدبار ، وتركوا أرض المعركة ، ولحقهم أكثر المقاتلين ، وأغلب أهل مكة من الطلقاء ، وعلى هذا فالمنافقون أو الكفار لا يزيدون المسلمين قوة إن كانوا معهم ، وإنما يضعفون من شأنهم ، ويقللون من عزيمتهم ، كما أن بعض المسلمين رأوا في الكثرة قوة، إلا أن الكثرة

بدون إيمان لن تفيد شيئاً « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » . فولى أكثر المسلمين الأدبار ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أهله وأصحابه ، وشمت بعض الطلقاء . وقالوا : بطل السحر ، إلا أن ثبات رسول الله ومناداة العباس رضي الله عنه قد أعادا المسلمين إلى رشدهم، فرجعوا إلى رسول الله والتفوا حوله وجاءهم المدد من السماء ، وحملوا على المشركين حملة واحدة أزالتهم عن مواقعهم ثم فروا هاربين ، وقد ربح المسلمون غنائم كثيرة .

وفرت ثقيف وبعض من معها إلى الطائف وتحصنت بها ، فلحقها المسلمون ، وحاصروا الطائف ، ثم تركوها بعد قتال ومفاوضات ، وأثناء العودة وفي منطقة « الجعرانة » قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم فأعطى المؤلفة قلوبهم الكثير منها فقد أعطى أبا سفيان وابنه معاوية وزهير بن أبي أمية وصفوان بن أمية كل واحد منهم مائة ناقة ، وعلى هذا يكون زهير من وجهاء القوم أولاً ومن المؤلفة قلوبهم ثانياً .

ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ومكث فيها قليلاً ، ثم عاد إلى المدينة ، وعاش الطلقاء في مكة كل يفكر في نفسه، ويجد في إعمال فكره، فمنهم من بقي على حاله مؤمناً عادياً ، ومنهم من اجتهد في العبادة ليعوض ما فات ، ويصحح ما كان منه، ومن هؤلاء زهير بن أبي أمية الذي ندم على ما مر من أيامه،

وكيف كان يساير سراة القوم الذين أضلوه السبيل ، والواقع أن زهيراً لم يكن إمعة يسير مع الناس ، يعادي الإسلام مع قريش ، ويسلم عندما يسلمون ، ويغزو عندما يغزون ، وإنما كانت الوجاهة قد أعمته عن الحق ، والثراء سيأتي عن طريقها،فعندما أخذمائة بعير عاد إلى صوابه ، وشعر أن المال ظل زائل ، ويأتي من طرق كثيرة وليست الزعامة هي السبيل إليه فقط ، وأن الدنيا منتهية لا محالة وسيذهب الانسان بلا مال ولا يستفيد إلا مما قدّم من عمل ، لذا بدأ يجتهد في العبادة والطاعة ، ويمحو كل ما كان من سلوكه السابق .

ومضى عامان أو مايقرب منهما، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى مكة حجّاجاً ، وكانت هذه الحجة بالنسبة إلى رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام حجة الوداع،والتقى زهير بنبيه وتعلق به ، وقرر أن ينتقل إلى المدينة ليعيش بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقى منه ، وينهل من ذلك النبع الصافي ، إلا أن رسول الله لم تطل به الحياة بعد حجة الوداع ، فعاش أشهراً وانتقل إثرها إلى الحياة الآخرة ، ولم تعد لزهير فائدة في ذلك الانتقال .

انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، واختار المسلمون خليفة لهم أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وطمع الأعراب فيما حدث ، بعضهم أراد أن يأخذ الزكاة كضريبة لنفسه ، ويمتنع من دفعها للدولة،ومنهم من أراد أن يتحكم بشؤون قومه حسب مصلحته تبعاً للجاهلية التي كانت سائدة قبل الإسلام،

ومنهم من لم يفهم الإسلام ولم يدخل الايمان إلى قلبه ، لكنه وجد في النبوة زعامة وشهرة، فادعاها ، ومنهم ... ومنهم ... وارتدت أكثر الأعراب وأهل القرى والبوادي ولم يبق على الإسلام سوى المدينة ومكة والطائف بل إن بعض النفوس قد اشرأبت للنفاق في مكة لولا موقف سهيل بن عمرو وبعض الوجهاء ومنهم زهير بن أبي أمية .

أعلن أبو بكر الصديق رضي الله عنه الحرب على المرتدين ، وانطلقت إليهم جند الله تندفع نحوهم جيشاً إثر جيش ، وكتيبة تلو كتيبة ، ينخرط في صفوفها المجاهدون ، ويسيرون في موكب واحد ، وترى في هذا الموكب الشاب اليافع الذي دفعه إيمانه ليستقبل شبابه بالجهاد عسى أن يحصل على الشهادة قبل أن يمتد به العمر ، أو يظفر بالنصر فيرى راية الإسلام خفاقة يعيش تحتها الناس في طمأنينة وسعادة ، وترى في ذلك الموكب الشيخ الهرم الذي لم تقعده سنه عن القتال فيسبيل الله يبغي الشهادة ولطالما طلبها ولكنه لم يظفر بها ، ولعلها تكون خاتمة حياته فيحصل على ماسعى إليه طيلة حياته .

كان زهير بن أبي أمية يقرأ القرآن الكريم في الحرم . واستوقفته آية « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين»، وجالت في نفسه الخواطر، أي علو نبغي بعد هذا العمر الذي انقضى ، ويوم طلبناه لم يغن عنا في الحياة الدنيا فماذا يغني في الآخرة ؟ إن العلو الذي نريده

ولنعوض عما فاتنا ..

وسمع زهير أن كتائب الله تتحرك نحو المرتدين فأسرع للانخراط فيها ، وودع مكة وداع من لايريد العودة إليها ، ليختم حياته بالجهاد ، عسى أن يكفّر عن أيامه التي وقف فيها في وجه الدعوة ..

وسار الجيش باتجاه الشرق ، وكان زهير فيه ، يسير تحت لواء ابن عمه خالد بن الوليد بن المغيرة ، وكأنه يريد أن يسبقه ليشترك في المعركة وليخضب سيفه بدماء أولئك المرتدين الذين أغرتهم الدنيا بمفاتنها ، وأغواهم الشيطان بغروره ، فعتوا عن أمر ربهم ، ونسوا ما كان ينساه في أيامه الخالية ، يسير ويذكر الماضي الذي لاتفارقه صورته أبداً ،ويرجو الشهادة ، وقد ذاق حلاوة الايمان عسى أن تكفّر عنه ما تلوّث من ماضيه ، يسير وكأنه يقبل إلى الموت الذي تبدو علائمه على وجهه .....

قد طالت به الحياةوعرف حلوها وذاق مرها فلم يجد شيئاً فيها ، لقد تذوق حلوها وهو وجيه ، وشعر بمرها وهو ضعيف ، ولم يجد شيئاً ، والآن فأمله كبير بأن يحصل على الشهادة ليجد عند الله الخير الكثير . يتذكر جنات النعيم فتنفرج أساريره ، ويتصور أنها وراء الشهادة فيقطب وجهه استعداداً للقتال ، ويسرع في جسمه الخطو ، ويرخي لفرسه العنان ، ليسابق بقية الجند نحو العدو فما يشعر إلا وجواده قد تقدم على جواد القائد فيعود إلى نفسه ويتأخر إلى مكانه .

والتقى الجيشان جيش الإيمان بقيادة خالد بن الوليد المخزومي وجيش الكفر بإمرة مسيلمة الكذاب الحنفي ، وأعطيت الأوامر للمسلمين بالقتال ، وكان زهير ينتظرها فاندفع اندفاعاً نحو المرتدين لم يرجع بعدها أبداً ، انطلق انطلاقة المودع ، فحصل على ما يريد ، الله أكبر لقد نال الشهادة ، وظفر بما يريد إنها جنات الخلد ثواباً من عند الله .. « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذ لكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

صدق الله العظيم .

سلسلة بطولات إسلامية

– ١ –

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

قائد المسلمين في معركة القادسية

تأليف

د. محمد إبراهيم نصر و محمد مصطفى سلام

تجد عددا من القصص والسير
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

دار اللواء
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار اللــــواء
المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع الملك فيصل
ص. ب ٢٨٥٦ هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤ - برقياً : نشر دار

مقدّمة

بقلم الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس

كم هي مطربة معجبة قصص أبطال الإسلام ، وفتوحات المسلمين ، بل إنّ هذه القصص التي ليس للخيال فيها نصيب يذكر يكاد قارئها ألا يصدقها ، لما فيها من بطولات خارقة للعادة، وشجاعات نادرة المثال ، وتضحيات ما فوقها من مزيد .

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقد سجل أبطال الإسلام من قادة وجنود صفحات مجد خالدة ، لا تمحوها الأيام مع تعاقب العصور ، وتطاول الدّهور ، بقيت نُجوماً يستدل بها في متاهات الزمن ، وضوءاً يهتدى به في حالكات الظُّلَم ، وستبقى هذه الصفحات خالدة خلود الأمة الإسلامية ، باقية ببقاء اعتزازها بتراثها الإسلامي ، ومآثرها المجيدة .

رضي الله عنه يُعدُّ أحد القادة الكبار في سجل التاريخ الإسلامي ، ولا بدع أو غرابة في ذلك فهو القائد الذي أطاح بدولة الفرس التي كانت إحدى امبراطوريتين في العالم في ذلك الزمان ، وهما : الامبراطورية الفارسية ، والامبراطورية الرومانية .

ولقد فتح « سعد بن أبي وقاص » بلاد فارس بالحنكة ، والرويّة ، والتفكير ، والتخطيط ، وبالصبر ، والمصابرة ، فهو لا يرتجل شنّ الحروب ارتجالاً ، بل يحسب حساباً دقيقاً لكل خطوة يخطوها ، ولكل احتمال ولو كان احتمالاً بعيداً من احتمالات خطط العدو وردود أفعاله ، حتى يدرأ عن جيشه نتائج الإقدام أو الإحجام على ما لم توضع له في المخطط الحربي حسابات مستوفية دقيقة .

ولأنّ سعداً من القادة العظام في التاريخ الإنساني فإنه لا يستبدّ برأيه في تخطيط المعارك وتنفيذها ، رغم دهائه وحنكته ، وآرائه الصائبة ، بل كان يستشير ذوي الخبرة ، والحنكة والكياسة من قواده وجنوده ، ويمحص آراءهم ويدرسها معهم دراسة مستفيضة ، حتى إذا قلبوا كل خطوة وكل احتمال ، على مختلف وجوه الإيجاب والسلب ، والنصر أو الهزيمة ، أقدم على خوض المعارك بإيمان الواثق من نصر الله ، بعد أن أعدّ لكل موقف عدّته ، وبعد أن يكون الجيش كله

قد تهيأ على هذا المستوى من الإيمان العميق ، بأنه إنما يقاتل لنشر رسالة الإسلام في الأرض ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

من هنا ندرك عظمة هذا الفتح الإسلامي العظيم الذي غيّر مسيرة التاريخ في العالم وجعل للعرب أولاً مكانتهم المرموقة بين أمم الأرض ، لأنهم كانوا قوام هذه الفتوحات الإسلامية الأولى ، ثم جعل للمسلمين لكلّ مكانتهم في العالم وهم خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، وبالتالي فقد كانت معركة القادسية من أهمّ المعارك الأولى في الإسلام .

وهذا الكتاب الذي ألفه الأستاذان الفاضلان الدكتور محمد إبراهيم نصر ، ومحمد مصطفى سلام عن قائد المسلمين في معركة القادسية « سعد بن أبي وقاص » كبداية لسلسلة « بطولات إسلامية » سيواليان إصدارها .

يعدُّ في رأيي مائدة شهيّة لا يكاد الآكل منها يشبع ...

وبطبيعة الحال فإن قراءة هذا الكتاب وما في مستواه موضوعاً وأسلوباً غذاءٌ للفكر والعقل ، ورصيدٌ في محصلّة الثقافة التاريخية بوجه خاص .

وحسبنا بالتاريخ الإسلامي المجيد حافظاً لمآثر ماضينا ، حافزاً لتطلعاتنا المستقبلية ، نستمد منهم القدوة والمثل ، ونربط

استعادة أمجاد ذلك الماضي ، وإضافة الجديد الصالح من معطيات الأزمنة المتغيرة إليه ، وما ذلك على الله بعزيز .

عبدالله بن عبد العزيز بن إدريس
أمين عام المؤتمر الإسلامي العالمي
لنهاية القرن الرابع عشر

سَعد بن أبي وقاص

اللهم سدد رميته وأجب دعوته

جلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مطرقاً يسرح بنظره إلى بعيد حين مر عليه عبد الرحمن بن عوف وقال له : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فانتزع عمر نفسه من هذا التفكير الذي ملك عليه نفسه وقال ، وهو يجرّ نفساً عميقاً : وعليك سلام الله ورحمته وبركاته .

ما لي أراك يا أمير المؤمنين كاسف البال مطرقا ، كأنك تعاني أمراً جسيماً وكأني بك عائد من مكان بعيد بعيد بعيد ؟!

فيقول أمير المؤمنين : وكيف لا ؟! يا عبد الرحمن ،

– لعل أخباراً جديدة قد وصلتك من أرض المعركة يا أمير المؤمنين ؟!

– إنها المحنة يا عبد الرحمن ... لقد وقع « أبو عُبيد ابن مسعود » في فخ نصبه له عدوّ الإسلام « جالينوس » ؛ حتى استشهد أبو عبيد وعدد كبير من المجاهدين .

وكيف كان ذلك يا أمير المؤمنين ؟

– أتذكر يا عبد الرحمن يوم دعوت المسلمين إلى جهاد الفرس والروم . فقلت لهم : إنكم قد أصبحتم في غير دار مُقام بالحجاز ، وقد وعدكم النبي ﷺ فتح بلاد كسرى وقيصر ، فسيروا إلى أرض فارس !

– أذكر ذلك جيداً يا أمير المؤمنين ؛ فقد قام « أبو عبيد ابن مسعود » وكان أول من استجاب لندائك وقال لك بصوت يملأه الحماس والإيمان :

يا أمير المؤمنين ؛ أنا أول من انتُدب من الناس .

ثم انهال المسلمون بعد ذلك وتقدموا إليك كلٌّ يريد أن يحظى بشرف الجهاد وفتح بلاد فارس والاستشهاد في سبيل الله .

ويومها قلنا لك يا أمير المؤمنين : أمِّر على الناس رجلاً

من المهاجرين أو الانصار .

فقلت : لا أؤمر عليهم إلا أول من لبّى النداء ، وأجاب داعيَ الله لا أؤمر عليهم إلا أبا عبيد بن مسعود الثقفي .

ـ إني أذكر هذه الأحداث ، وأستعيدها كأنها حدثت هذه الساعة .

ـ لكن قل لي بربك يا أمير المؤمنين ماذا حدث لهذا القائد ؟ وما الذي أصاب رفاقه في الجهاد والجلاد ؟

لقد نصب له « جالينوس » قائد الفرس كميناً ، وعقد له بعض الدهاقين جسراً بعد أن خلف نهر الفرات وراءه ، وقالوا له :

إما أن تعبر الجسر إلينا أو أن نعبر إليك ، وأعدوا له وراء الجسر مائة ألف من جندهم ، ودفعته حماسته وشدة إيمانه إلى أن يعبر الجسر بجنوده ، فقطعه عليهم أعداء الله ، ولم ينجُ من المسلمين في هذه الموقعة إلا العددُ القليل .

ـ وكيف يقطع هذا الجسر ؟ ألم يدرك الخديعة التي أعدّها أعداؤه ؟ وأين مجلس الحرب ؟! ألم تامره أن يأخذ برأيهم قبل الإقدام على تنفيذ أية خطة ؟!

ـ لقد أمرته أن يستشير « مَسْلَمَةَ بن أسلمَ بن جُرَيْش » و « سليط بن قيس » لا يقطع أمراً دونهما ، ولا يمضي إلا

وقال له :

– أيها الرجل : إنه ليس لك علم بما ترى ، وأنت تُخالفنا وسوف يهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك ، وكيف تأمر الجنود أن يقطعوا هذا الجسر ، وأنت لا تعلم ما خلفه ، ولا ما أعدّه لك أعداؤك ؟ أتريد أن يجد المسلمون أنفسهم في هذه الصحارى والبراري متطوعين فيها أو أن يقطع العدوّ عليهم الجسر فيبيدهم ويهلكهم ؟!

ولكن أبا عبيد ظنّ ذلك تخذيلا وتوهيناً ، فمضى في أول الجيش يقطع الجسر ويصيب من الأعداء ، ولكنهم قطعوا عليه الجسر ... واستشهد بذلك عدد كبير من المسلمين أربى على الأربعة آلاف . وزاد الأمر شدة أن أهل العراق نقضوا عهودهم ومواثيقهم !!

– يا لله ... يا لله ... لكنك يا أمير المؤمنين لم تقصّر في شيء ، فلقد سمعت نصيحتك لهذا القائد ووعيتها ، ولو أنه تمسك بها ، وعمل بما تقتضيه لنجا مما حدث ، وأنقذ نفسه وأنقذ المسلمين ... لكنّه أمرُ الله وقضاؤُه ، فلا تأس على ما حدث ، وإنها لمحنة يمتحن الله بها عباده المؤمنين ، ولكن جند الله في النهاية هم الغالبون ، فتدبر الأمر يا أمير المؤمنين فإن فاز الفرس في هذه الجولة ، فلنا عليهم جولات وجولات إن شاء الله ...

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »

– دعا عمر المسلمين إلى اجتماع عام في المسجد وقَصَّ عليهم أنباء الحرب في جبهة فارس ، ولم يخف عليهم شيئاً مما حدث ، ثم بين لهم أن الإسلام يتعرض لمحنة قاسية ، وأن أهل العراق بدأوا ينقضون عهودهم ومواثيقهم ، ولا ندري ماذا يحدث غداً في الجبهات الأخرى إذا أحسّتْ بتلك الأحداث ، فماذا ترون أيها المسلمون ؟

– الرأي لك يا أمير المؤمنين ، إن الله حافظٌ ذلك الدين ولن يضيّعه !! ونحن لا نقاتل هؤلاء الكفار بعدَد ولا عُدَّة ، وإنما نقاتلهم بذلك الإيمان القوي الّذي أنار الله به قلوبنا وبصائرنا ، فامض بنا إن شئت يا أمير المؤمنين إلى ميدان القتال في فارس لنبدّل تلك الهزيمة نصراً ، وهذه النكسة التي امتُحنّا بها نكبة ووبالاً عليهم ...

– هذا هو الرأي : سأمضي بنفسي على رأس الجيش ، أقوده حتى يكتب الله لنا النصر أو القبر ، والله ما أحلى الموت في ساحة المعركة ، وما أروعه في ميدان الجهاد !!

– هيا بنا يا جنود الله ... هيا بنا ... غداً يكون اللقاء ... ثم نمضي من هنا ... إن شاء الله .

– رتّب عمر الأمر ونظّم الجيش ، وأعدّ العدة ليكون

طالب فعهد إليه بولاية المدينة في غيبته ، والفصل في أمور المسلمين ، حتى يكتب الله له العودة أو الشهادة .

وفي الوقت الذي حدّده عمر ، واتفق عليه الصحابة ، مضى عمر على رأس الجيش حتى يَبْعُد عن المدينة ... وتوقف الجيش ليعيد عمر الرأي في تشكيله وتنظيمه ، ويستشير الصحابة في وضع الخطة للقاء العدو .

ـ نظر الصحابة ملياً في الأمر ، وذهبت سورة الحماسة الأولى وعاد العقل إلى هدوئه وتفكيره .

ـ قال عبد الرحمن بن عوف : ايها المجاهدون ـ إن الإسلام في هذه الأيام يعيش ايامه الفاصلة ... والمغامرة بحياة أمير المؤمنين في هذه الآونة لا يقرّها عقل ، ولا ترتضيها حكمة ... وأرى أن يرجع أمير المؤمنين وأن نختار قائداً آخر يقود الجيش ، ولئن هزم قائد في معركة فقد انتصر قوّاد وأبطال في معارك وغزوات ، ومنا من تربّى على يد الرسول ﷺ ، وشهدت له مواقفه ، وبطولاته في الغزوات فلنتريث قليلا ، ولنتخير لقيادة الجيش بطلاً آخر من أبطال المسلمين وليبق أمير المؤمنين يدبر المعارك من المدينة ، ويُعِدُّ لها الوفود ، ويشرف عليها ، ويغذيها بآرائه ووصاياه .

– وتعالت أصوات من المسلمين توافق « عبد الرحمن بن عوف » وتؤيده فيما ذهب إليه ، ولم يجد عمر بدّاً من دعوة المسلمين إلى الصلاة ... واجتمعوا بعد أداء الصلاة في مؤتمر عام ، وأرسل إلى عليّ بن أبي طالب فحضر هذا اللقاء الكبير ومعه صفوة من أهل المدينة .

وتبادل الصحابة الرأي ، وانتهى رأيهم جميعا إلى ما ارتآه « عبد الرحمن بن عوف » ، وهو أن يعود أمير المؤمنين ويختارَ المسلمون لقيادة الجيش بطلاً آخر من أبطالهم .

وكان « عبد الرحمن بن عوف » يحوطه التوفيق من جوانبه ، فقد ألهمه الله سداد الرأي ، وسرعة البديهة ، ونور البصيرة ، وأطرق الصحابة مفكرين ، مَنْ ذلك البطلُ العظيم الذي يرجى لهذا اليوم الخطير ؟ مَنْ ذلك الذي يردّ الهزيمة التي مُني بها المسلمون في موقعة الجسر إلى نصر ؟ مَنْ ذلك الذي يقع عليه الاختيار خلفاً لأمير المؤمنين ؟

ولم يطل تفكيرهم فقد انطلق صوت « عبد الرحمن بن عوف » قائلا في لهفة : وجدته يا أمير المؤمنين ، أصلح القادة لهذا اليوم الخطير !!

واشرأبّت الأعناق ، واتجهت إليه الحدقات ، وسأله ابن الخطاب من تراه يا عبد الرحمن ؟

– **إنه أوّلُ من رمى بسهم في سبيل الله ... إنه الذي**

إنه الذي قال فيه رسول الله ﷺ : **اللهمَّ سدِّدْ رميته وأجب دعوته ... إنه سعد بن أبي وقاص !!!**

ــ وتعالت أصوات المسلمين : نِعْمَ الرأي يا بن عوف ، نعم ما وقع عليه اختيارك ، إنه هو هو !!

المرجوُّ لهذا اليوم ، المنتظر لهذا الموقف !!

فمن يكون سعد بن أبي وقاص ؟

ذلك الذي أجمعت عليه الآراء ، ولم يختلف على اختياره اثنان ، وما كاد أمير المؤمنين يستمع إلى اختياره حتى هدأ نفساً ، واطمأن بالاً ، وأمّل فيه خيراً ؟

هو سعد بن مالك ، بن وُهَيْب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، ابن غالب ، بن فهر ، بن النضر، بن كنانة ، القرشيُّ الزهري يكنى أبو إسحاق ، ويكنى أبوه : أبو وقاص ، وشهرته سعد بن أبي وقاص . أمُّه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس . وقيل بنت أبي سفيان يلتقي نسبه مع النبي ﷺ في عبد مناف بن زهرة ... فآمنة أمّ النبي ﷺ : هي بنت

(١) كما جاء في أسد الغابة في معرفة الصحابة .

وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، ولذلك روى عن جابر قال :

« أقبل سعد فقال رسول الله ﷺ « هذا خالي ، فليرني امرؤ خاله » .

فهذه المكرمة العظيمة التي نالها سعد حتى إن النبي ﷺ يفتخر بنسبه وخؤولته لم تتأت لأحدٍ غيره ! !

ومكرمات سعد كثيرة لا تخالنا نقف عليها جميعاً فلنذكر منها ما يتسع له هذا المقام ...

أول من أراق دماً في سبيل الله :

كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا في أول عهدهم بالإسلام يخفون صلاتهم ، ويذهبون إلى شعاب الجبال ، خوفاً من قومهم الذين يناصبونهم العداء ، ولا يطيقون انضمامهم الى دعوة محمد ، ذلك الذي يعيب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، فبينا « سعد بن أبي وقاص » في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ؛ فأنكروا عليهم ما رأوه منهم ، وعابوا عليهم دينهم ، ولم يقف الأمر عند ذلك فاقتتلوا قتالا شديداً ، فضرب سعد رجلا من

أريق في الإسلام .

وهو أول من رمى بسهم في الإسلام !!

كان سعد بطلا مقداماً ، شجاعاً غير هياب ، يملأه الإيمان حماسة وقوة لازم رسول الله ﷺ في غزواته كلها ، شهد بدراً ، وأحداً والخندق ، والمشاهد كلها ، لم يتخلف في مشهد من المشاهد ، وكان من أعظم المجاهدين في أحد ، أبلى فيها بلاء عظيما ، حتى أعجب به النبي ﷺ ، وقال له في حماسة بالغة : **ارْمِ يا سعد فداك أبي وأمي ، إرم أيها** الغلام الحزَوَّر[2] ــ وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما جمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لأحد إلا لسعد بن أبي وقاص ، وقد أنبأنا الزهري : أن سعداً رمى يوم أحد ألف سهم ، وقال سعد عن نفسه : **إني لأول من رمى بسهم في سبيل الله ، والله** إن كنا لنغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا

---

(١) لحن الجمل : ضبته التي فيها أسنانه .

(٢) الحزور : القوي .

طعام إلا ورق الحبلة[1] وهذا السَّمُر[2]، حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط[3].

كان مستجاب الدعاء

كان سعد لا يدعو الله جلت قدرته إلا حقق الله دعاءه، واستجاب رجاءه، وكان الناس يعرفون ذلك عنه ويخشون دعوته، ويقيمون لها وزنا، وكيف لا يحظى بهذا الفضل العظيم، وقد دعا له النبي ﷺ ربّه يوم أحد فقال:

« اللّهم سدِّدْ رميته، وأجِبْ دَعوته »

وروى سعد بن حازم: أن رسول الله ﷺ قال « **اللهم استجب لسعد إذا دعاك** ».

ومن أدعية سعد المستجابة ما روي أن رجلا سَبَّ علياً، وطلحة، والزبير، فنهاه سعد عن ذلك، فركب الرجل رأسه وتمادى في غيّه، فقال له سعد: « إذا لم تنته أيُّها الرجل دعوت عليك ».

فقال الرجل في سخرية: أتهدِّدني؟! والله إنك تقول

(1) الحبلة: شجر العنب.
(2) السمر: نبات صحراوي. شجر ذو شوك.
(3) الخلْط: كل ما خالط الشيء ومن الثمر المختلط من أنواع شتى.

فمضى سعد في طريقه ، وصلى لله تعالى ركعتين ، ثم رفع يديه إلى السماء ودعا الله قائلا :

« اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد أساء إلى أقوام سبقت لهم منك الحسنى ، وأن هذا يغضبك ــ فاجعل منه عظة وعبرة » .

* * *

صدر هذا الدعاء من قلب يفيض إيمانا ، ويتدفق حبًّا وإخلاصا ، ويمتلىء غيرة على المؤمنين ... ولم يكن بينه وبين السماء حجاب ...

فلم يكد سعد ينتهي من دعائه حتى شردت ناقة قوية من بين النوق ومضت تجري في السوق بين الناس ، وكأنها تعمد إلى شيء بعينه ، وما هي إلا لحظات حتى كان هذا الرجل الطعَّان السَّبابُ قد صار تحت أخفافها تدوسه وتدك عنقه حتى فارقت روحه الجسد !!

وليس ذلك غريبا على سعد ، وهو يمتلىء يقينا ، ويتدفق إخلاصا ويتحرَّى الحلال في مطعمه ، وفي مشربه وفي ملبسه ، ولا يدعو الله في إثم وإنما يدعوه على من ارتكب إثماً واقترف ذنبا ، وصدق الله العظيم إذ ينادي عباده قائلا :

« وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم [1] » .

وقال : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون » .

كان سعد وثيق الإيمان

كان لا يعدل إيمانه بشيء ، مهما كان ذلك الشيء ، حتى ولو كان ذلك الشيء هو أباه أو أمه ! !

فقد روى : أن سعداً كان باراً بأبويه قبل إسلامه ، شديد البر بهما ، لا يعصي لهما أمراً ، ولا يخالف لهما توجيها ، فلما أسلم وعلمت أمه بأنه ترك دين آبائه وأجداده نادته وقالت له :

لقد علمت يا سعد أنك تركت دينك ، ودين آبائك وأجدادك واللاّت والعزّى لتتركن هذا الدين أو لأمتنعنّ عن الطعام والشراب حتى أموت ، فيعيرك الناس بموتي ، وتصبح مضغة في أفواههم ! ! ! فقال لها : لا تفعلي يا أمّ ... لا تفعلي ... فإنني لن أترك هذا الدين بعد أن هداني الله إليه .

---

(١) سورة البقرة : ٦٠ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

جهدت ، ونال منها الجوع والعطش .

فقال له الناس : إن أمَّك في خطر شديد ، وجهد جهيد فاذهب لرؤيتها قبل أن تفارق الحياة .

فذهب إليها سعد ورآها على هذا الحال .

فقال لها : اعلمي يا أمي : أنَّه لو كان لك ألْفُ نفسٍ فخرجت نَفْساً نفْساً ما تركت ديني لهذا الشيء !! فارجعي عن عزمك وعودي إلى طعامك وشرابك .

فلما يئست أمُّه من عودته إلى دينه القديم ، أقلعت عن صيامها ، وعادت إلى طعامها وشرابها .

هذا هو الإيمان الوثيق الذي أشار إليه القرآن الكريم في تلك الآيات الكريمات ، فقال تعالى :

« ووصَّينا الإنسان بوالديه حملته أمُّه وهْناً على وهنٍ ، وفِصالُه في عامين أن أشكر لي ولوالديك إليَّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا »[1] .

---

(١) سورة لقمان : ١٤ ، ١٥ .

كان سعد غنيا شاكرا :

ظلّ سعد يجمع بين خيري الدين والدنيا حتى جمع من المال الشيء الكثير ، ولكن هذا المال لم يفتن سعدا ، ولم يزدهه ، فكان شديد الحرص على تنفيذ ما أشار إليه القرآن الكريم في إنفاق المال .

ولذلك ذهب إلى النبي يسأله عن هذا المال فيم ينفقه ؟

فقال له : يا رسول الله ، إن لي مالا كثيرا ، وليس لي وارث إلا ابنة أفأوصي بمالي كله ؟

فقال له ﷺ : لا

فقال : فبثلثيه ؟ فقال له : لا

فقال : فبنصفه ؟ قال ﷺ : لا

قال : فبثلثه ؟

قال : بالثلث والثلث كثير .

ولأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم فقراء يتكففون الناس وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك ، فأوصى سعد بثلث ماله وترك الثلثين لورثته .

* * *

ولم يفتنهم وإنما كان وسيلة التقرب والطاعة إلى الله .

لقد فهم المسلمون الصادقون أن المال مال الله « يؤتيه من يشاء وينزعه مِمّن يشاء » .

« وآتوهم من مال الله الذي أتاكم [1] »

يطلع عليكم رجل من أهل الجنة

ومن المكرمات التي مَنَّ الله بها على سعد شهادة النبي ﷺ له ، فقد روى أن النبي ﷺ كان يجلس بين أصحابه يتحدث معهم ويعظهم فقال لهم :

يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة .

ولم يمض طويل وقت حتى أهلَّ عليهم سعد بن أبي وقاص ، فعلموا أنه المعنيُّ بقول الرسول الكريم ، ووقر في نفس أحدهم وهو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فلما قام سعد ومضى في طريقه ، تبعه عبد الله وسأله :

– كيف تعبد الله ؟

– كم تصلي في اليوم والليلة ؟

---

(١) سورة النور : ٣٣ .

ـ ماذا تفعل حتى فزت بهذه المنزلة العظيمة ، وتلك المكانة السامية الكبيرة ؟

قال سعد : والله إني لا أزيد على أحدكم في عبادته ، ولكني لا أنام وفي قلبي حقد على أحد .

أما إسلامه :

فقد روت عنه ابنته عائشة أنه قال : رأيت في المنام قبل إسلامي كأني في ظلمة لا أبصر شيئاً فإذا قمرٌ يضيء جوانب الدنيا فاتّبعته فكأني أنظر إلى من سبقني إلى ذلك القمر فأنظر إلى زيد بن حارثة وإلى علي بن أبي طالب ، وإلى أبي بكر : وكأني أسألهم متى انتهيتم إلى ها هنا ؟ قالوا : الساعة .

وبلغني أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام مستخفياً فلقيته في شعب « أجياد » وقد صلّى العصر فأسلمت فما تقدمني أحدٌ إلاّ هُمْ .

وقد روى : أنه أسلم بعد سنة ، وقيل بعد أربعة وروى أنه قال : كنت « ثلث الإسلام يوم أسلمت » .

كان عمره عندما أسلم سبع عشرة سنة ، وقد أسلم قبل أن تفرض الصلاة .

كان سعد أحد العشرة من الصحابة المبشَّرين بالجنة وكان واحداً من الستة أصحاب الشورى الذين أخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راضٍ .

وكان واحداً من الستة الذين عهد إليهم عمر قبل وفاته ، وكانت له عصبية كبيرة ، تريده على الخلافة ، غير أنه رفضها وقال له ابن أخيه : إن مائة ألف سيف تريدك على الخلافة ، فرفض وأبى ... هذا هو سعد بن أبي وقاص الذي اختاره عبد الرحمن بن عوف لقيادة جيش المسلمين إلى بلاد فارس ووافق عمر على اختياره لم يتردد في ذلك ، ولم يراجع .

هذا هو سعد الذي قاد جيوش المسلمين في أعظم موقعة وأهمها وهي موقعة القادسية ... مفتاح الطريق إلى بلاد فارس فإلى القادسية لنرى براعة هذا القائد الملهم الذي برَّ أعظم القادة في كثير من العصور .

استعداده للقيادة :

كان سعد شاباً كبير العقل ، مولعاً بأدوات القتال ، وكان ماهراً في الرمي لأنه كان يصنع النبال في الجاهلية ، وكان محباً للتنقل والأسفار فطبيعة الجندي كانت بارزة في

حياته ، وحاسة القيادة كانت في أعماقه ، فلما توّج ذلك بالإيمان ، وشرح الله صدره للإسلام ، اضطرمت روح الجهاد في نفسه ، واتّقدت نار الحمية الإسلامية والبسالة في صدره ، فلما وطئت قدمه ساحة الحرب أبلى البلاء الحسن ، ومن عجب أن هذا القائد قد برع في قيادته حتى فاق أبرع العسكريين في جميع الأزمان وكانت له مبادىء عسكرية هامة منها :

المفاجأة في الحرب :

لقد انفرد سعد بتنفيذ مبادىء الحرب قبل أن يعرفها العالم الحديث فتراه في معاركه يبدأ بدراسة الموقف ليكون لقواته ميزة المبادأة ، ويمعن في التستر ليحتفظ بمبدأ (المفاجأة) ، ويبعث العيون تكشف عن تحركات العدوّ حتى يضمن الوقاية ، وحين يبدأ بالهجوم يضرب بشدة ليكون في الساعة الحاسمة أكثر قوة وأعظم استعدادا .

كان عيناً لرسول الله في يوم أحد ، فقد أرسله الرسول لمتابعة المشركين عقب انتهاء المعركة لكي يستطلع أخبارهم ، ويعرف اتجاههم ، فإن ركبوا الإبل وجنّبوا الخيل فهو الطعن ، وإن ركبوا الخيل وجنّبوا الإبل فهي الغارة ، وقد تبعهم سعد في حذر وحيطة حتى بلغ نقطة المراقبة فرآهم يركبون الإبل ويجتنبون الخيل فعاد وأخبر النبي ﷺ بعدو لهم عن

– كان يعمد إلى رأس الجيش (أي قائده) لأنه يعلم أن القائد إذا هزم فتّ ذلك في جنده ، ولذلك كان يخشى على الرسول ﷺ ويعمل على حراسته ، وفي إحدى الليالي الحافلة بالأحداث قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يسهر ليلة مقدمه المدينة فقال ليت رجلا صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة فبينما نحن كذلك إذ سمعنا خشخشة سلاح فقال من هذا ؟ قالوا سعد بن أبي وقاص فقال رسول الله ﷺ : ما جاء بك ؟ فقال سعد وقع في نفسي خوف على رسول الله فجئت لأحرسه فدعا له النبي .

كان سعد يعلم أن الإسلام دين سلام ، ولم يكن السيف غايته ولهذا كان يبدأ بعرض الإسلام عـلى خصومه ، فإذا لم يستجيبوا عرض عليهم الجزية وإلا كانت الحرب ، فعل ذلك مع الفرس في حرب القادسية .

إلى القادسية :

كان سعد قبل أن يقع عليه الاختيار لقيادة جيوش المسلمين في أعظم المعارك وأجلها خطرا ، كان عاملا لعمر يجمع الصدقات من « هوازن » وكان فيمن كتب إليه عمر حين أعلن التعبئة العامة بانتخاب ذوي الرأي والنجدة ممن كان له سلاح

أو فرس ، فلبي نداء عمر وأرسل إليه كتابا يقول فيه : « إني قد أنتخبت لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأي ، وصاحب حيطة في الحرب وحذر ، يحوط حريم قومه ، ويمنع ذمارهم ، إليهم انتهت أحسابهم فشأنك بهم » .

وصادف مجيء كتابه مشورة عمر لأصحابه في اختيار القائد الذي يقوم مقامه في قيادة الجيوش الإسلامية فوثب « عبد الرحمن بن عوف » من مكانه وقال : وجدته يا أمير المؤمنين إنه هو هو .

فقال عمر من ؟

قال : الأسد في براثنه ، الأسد عاديا ، سعد بن أبي وقاص . وما هي إلا أويقات حتى كان سعد ماثلا أمام عمر ؛ يستمع إلى نصيحته ، ويشرف على الجنود التي تجمعت في ضاحية من ضواحي المدينة ، تتأهب للانطلاق وتُعِدّ العدة للزحف .

وصية عمر :

وكانت وصية عمر من خير ما حفظه لنا التاريخ الإسلامي بل من خير الدساتير في الحروب من ناحية التخطيط الحربي ومن الناحية الإنسانية ومن الناحية الأدبية فاستمع إلى هذه الوصية :

« يا سعد ، سعد بن وهيب ، لا يغرَّنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحبه ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا طاعته ، شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية . ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيتَ النبي ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر . هذه عظتي إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين » .

وسار سعد على رأس الجيش وشيَّعهم عمر إلى ضاحية من ضواحي المدينة تسمى « الأعوص » وخطب في الجيش قبل أن يفارقه فقال : « إن للعدل أمارات وتباشير ، فأما الأمارات فالحياء والسخاء ، وأما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمرٍ باباً ، ويسّرَ لكل باب مفتاحا فبابُ العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق » .

ولا تصانع في ذلك أحداً .

واكتف بما يكفي من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ، إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ،

وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه [1] ، فانهوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلغنا نأخذ له الحقَّ غير [2] منقوص » .

* * *

مضى سعد بعد ذلك في طريقه ، وأمدَّه عمر بالمحاربين الذين تجمعوا من شتى البقاع ، واستنفر سعد القبائل في طريقه ، وأثار فيهم حمية الإسلام ، وعزة العربي الذي يأبى الذل والهوان .

فنفر معه من بني تميم والرباب أربعة آلاف ، ومن بني أسد ثلاثة آلاف فأمرهم أن ينزلوا على حدود أرضهم بين الكوفة وحزن بني يربوع وانتظر سعد في مكان يسمى « شراف » مَقْدِم المثنى بن حارثة ، الذي ولي أمر الجيش الإسلامي بعد مقتل أبي عبيد في موقعة الجسر ... ولكن المنية عاجلت المثنى من أثر الجراح التي أصابته في معركة الجسر ... وقبل أن يموت أرسل رسالة إلى « سعد » يوضح له الموقف ، ويوصيه باتخاذ الحيطة ، ويبصِّره بطبيعة الفرس ، وبطبيعة مكان المعركة ، وما يلائم الجيش الإسلامي من الأماكن والمعسكرات .

وجاء سعداً كتابٌ من عمر يقول له فيه « إذا جاءك كتابي هذا فقسِّم الجيش إلى عشرات ، واجعل على كل

---

(١) أحكم بينكم بحكم الله .

(٢) إنصاف المظلومين .

[illegible] ما [illegible] الخيل [illegible] لكل مجموعة من الجند ، وأثر حماستهم للحرب ومر رؤساءهم بالحضور إليك ، واعرف عددهم ، ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله ، واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمرهم » .

* * *

أحسن سعد تنفيذ وصية عمر ، فقسم الجيش كما أمره وتخير أمراء العشرات وقواد الجند وكانت له فراسةٌ مكنته من أن يضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وبعد أن أتم تقسيم الجيش وتنظيمه جمع أمراء الأجناد والعرفاء ، وأمراء الرايات ، وقواد المقدمة ، والمجنبات والساقة والطلائع فأدى فيهم حق التعبئة المعنوية وألهب مشاعرهم ، وأذكى حماستهم ، حتى ودَّ كل منهم أن يلقى عدوه على عجل فإما النصر وإما الشهادة .

ومضى سعد لا يقطع مرحلة ، ولا يصل إلى مكان إلا ويرسل إلى أمير المؤمنين بوصفه ، وما يشاهده فيه وما يحيط به ، وما يتجمع فيه ، وصفاً دقيقاً حتى يحقق رغبة الخليفة في أن يشاركه الرأي ، ويوقفه على الأمر بوضوح كأنه يرى ويشاهد .

واستفاد سعد بنصائح عمر وتوجيهاته ، كما استفاد من نصائح المثنى ابن حارثة وتوجيهاته ... فلم يتعجل مداهمة

الفرس في بلادهم ، وإنما رابط بجنوده على الحدود ، وهناك على طول النهر عسكر جنوده ورابطوا ، وظلوا فترة من الزمن لا يغفلون الحيطة ، ولا يتوانون عن الاستعداد ، وظلت عيون سعد ورقباؤه يستطلعون أحوال الفرس ، ويدرسون المكان ، ويقفون على أحوال عدوهم وشئونه .

وراحت رسل سعد تترى إلى ملك الفرس ، تدعوه إلى الإسلام ليعصم بذلك دمه ودم شعبه ، ويضمن الحياة في ظل الإسلام في أمن ودعة وسلام ، فيعود الجيش الإسلامي من غير حرب ولا قتال ويتحقق للفرس ما للمسلمين ، فلهم إذا أسلموا ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات .

فان أبوا الإسلام ، وامتنعوا عن اعتناقه فعليهم أن يدفعوا الجزية التي حددها الإسلام على الذمي حتى يأمن بذلك على نفسه ، وعلى ماله ، وعلى حرماته ، وهذه الجزية ليست بدون مقابل ، وإنما هي في مقابلة الجهاد والدفاع وحماية الذميين ... فان أبوا الأولى والثانية فليس أمام المسلمين إلا الحرب .

وقد تخير سعد للسفارة بينه وبين كسرى بعض فصحاء العرب الذين بهروا لب الفرس ، وناظروهم حتى أحسوا بما طرأ على العرب من تغير بفضل هذا الدين الجديد ، ولولا الكبرياء والغطرسة ، لما كان هناك مانع يمنع الفرس من الدخول في دين الله أفواجاً ... ولكن عز عليهم وهم أصحاب الملك

عرفوا من ماضيهم أنهم كانوا يعيشون على السلب والنهب والرعي ، وأكل الضِّباب ، ولم يألفوا غير حياة الشظف والخشونة وقد حفظ التاريخ لنا تلك المناظرات التي جرت بين رسل المسلمين وبين الفرس ومن المهم في هذا المقام أن نورد طرفاً منها .

* * *

أرسل سعدٌ إلى « يزدجرد » ملك الفرس نفراً من أصحابه تكسوهم المهابة والجلال ، ويبدو عليهم حسن المنظر وروعة الأجسام ، ويزينهم عقول راجحة ، وآراء سديدة ، وفيهم النعمان بن مُقرّن ، وبُسْر بن أبي رُهم ، والمغيرة بن زرارة ، والأشعث بن قيس ، وعاصم بن عمرو ، وعمرو بن معديكرب ، والمغيرة بن شعبة .

وكان « يزدجرد » في عاصمة ملكه « المدائن » وقد ولّى قيادة الجيوش التي تحارب المسلمين أعظم قواده ، وأكثرهم حنكة وتجربة « رستم » فلما دخل الوفد على « يزدجرد » سألهم :

ما الذي جاء بكم إلى أرضنا ؟ وما الذي دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا ؟ هل أطمعكم فينا أننا تركناكم وانصرفنا عنكم ، فاجترأتم علينا ؟!

فقال النعمان بن مقرّن :

أيها الملك : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة وقد عرفنا جميعا فضل ما جاء به ، ودعانا إليه ، على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حَسّنَ الحسَن ، وقبح القبيح ، فإن أبيتم ، كان عليكم أن تدفعوا لنا الجزية ، فإن أبيتم كان بيننا الحرب والمناجزة .

فان أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم .

وإن اتقيتمونا ودفعتم إلينا الجزية ، قبلنا ، ومنعناكم ، ودافعنا عنكم وإن أبيتم الأولى والثانية قاتلناكم .

• • •

فقال يزدجرد :

إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ، ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكّل بكم قرى الضواحي فيكفونا غاراتكم ، لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان غرور لحقكم فلا

لكم قوتا إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم .

فقام المغيرة بن زرارة فقال :

أيها الملك : أما ما ذكرتَ من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا وأما جوعنا فكم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان [1] ، والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا .

فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك .

فبعث الله إلينا رجلاً نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وكان أصدقنا وأحلمنا فدعا إلى أمر ، فلم يقل شيئا إلا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : إني أنا الله وحدي لا شريك لي ،

---

(١) الجعلان : جمع جعل بفتح الجيم وهو دويبة سوداء من دواب الأرض.

كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء ، وإليّ يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحلكم داري دار السلام .

فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق .

وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه .

فاختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجيّ نفسك :

فقال يزدجرد : أتستقبلني بمثل هذا !! لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي .

ثم قال يزدجرد :

ائتوني بوقر [1] من تراب ، واحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . وقال : ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليكم رستم حتى يُدفيه ويُدفيكم [2] في خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ،

---

(١) الوقر : الحمل الثقيل .

(٢) يدفيه ويدفيكم : يجهز عليه ويجهز عليكم .

من سابور .

وقد حَمَّل عاصم بن وقر التراب على عنقه استهزاء به وسخرية بقومه فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته فحمله عليها ، ثم أسرع في سيره حتى دخل هو وصحبه على سعد وأخبروه الخبر .

فقال : أبشروا فقد أعطانا الله مقاليد ملكهم .

* * *

وتحققت نبوءة سعد ، فقد أخذ المسلمون يزدادون في كل يوم قوة ويزداد عدوهم في كل يوم ضعفا .

* * *

وظلت الرسل تروح وتجيء بين سعد ويزدجرد ملك الفرس حتى جهز الفرس جيشا كثيف العَدَد والعُدد بقيادة قائدهم المحنك « رستم » نزل رستم على « نهر العتيق » وسايره حتى بلغ مكانا يسمى « خفان » قرب القادسية .

اليوم الأول : يوم أرمات :

تقع القادسية في مكان تحيط به المياه من على يساره ومن على يمينه ، فعن يسارها بحر أخضر يجري في مكان مطمئن ضيق

من الأرض متجهاً إلى الحيرة وعلى شاطىء هذا النهر طريقان ، أحدهما يتجه بمن يسير فيه إلى ما بين الخورنق والحيرة .

وعن يمين القادسية إلى مكان يسمى « الولجة » فيض من المياه .

وكان الفرس قد تجاهلوا سعداً ولم يهتموا بلقائه أكثر من أربعة أشهر حتى يدفعوه إلى ترك المكان الحصين الذي يتوافر فيه الماء والخصب ويدفعوه إلى لقائهم ومهاجمتهم في أماكن تجمعاتهم وحصونهم .. وفي الوقت نفسه أثاروا أهل السواد عليه من سكان المناطق المحيطة به ولكن سعداً استشار أمير المؤمنين كما استشار مجلس الحرب فاستقر على مطاولة الفرس ، والإقامة في هذا المكان ، وشن الغارة على أهل السواد من وقت إلى آخر ... حتى ينغص عليهم .

فلما رأى الفرس أن حيلتهم لم تحقق هدفها ، وأن المسلمين قد فطنوا لها وعسكروا على طول مياه الأنهار ، وتمكنوا منها ... لم يجدوا بدا من لقائهم في القادسية ، فسار رستم ، على رأس جيش كثيف العدد والعدد وقد لبس درعين على صدره ، ووضع مغفرا من الزرد على رأسه ، واعتلى فرسه المسرج ، وامتشق سلاحه ، ونظم جيشه ، فوضع في القلب ثمانية عشر فيلا عليها الصناديق والرجال ، وقسم الجيش إلى أقسام وضع على جزء منه « الجالينوس » وجعله بينه وبين ميمنته ، وعلى القسم الثاني ولى « البيرزان » وجعله بينه وبين ميسرته .

استولى عليها المسلمون فأرادوا القنطرة ، فمنعهم سعد منها ، فراحوا يصنعون لهم طريقا على نهر العتيق فردموا جزءا منه ضيقا بالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقا .

عبر أهل فارس إلى مكان المعركة وأخذوا مصافهم ، وجلس رستم على سريره يدير المعركة ويقوي قلب الجنود .

أما سعد فكان على أهبة كاملة ، وكان قد نظم جيشه ، وعرف كل فرد دوره وموقفه ، من أمراء العشرات ، والعرفاء والقادة ، أما هو فكان يومئذ لا يستطيع أن يركب ولا أن يجلس ، لأن جسمه قد امتلأ بالبثور والدمامل ، فولى « خالد بن عرفطة » قيادة الجيش بدلا منه وأشرف على الجيش من القصر ، وصار يرمي بالرقاع فيها أمره ونهيه إلى خالد ولكن بعض المسلمين يرموا بسعد ، وتندّروا بمرضه ، واختلفوا على خالد فقال « سعد » احملوني ، وأشرفوا بي على الناس ، فارتقوا به ، فأكب مطلعا عليهم وتحت صدره وسادة ، وأخذ يأمر خالداً وينهاه فلما رآه الجند على هذا الحال وأنه في وسطهم على الرغم مما أصابه ، عذروه والتزموا جانب الطاعة .

وكان ممن خرج على خالد بعض وجوه الناس ، فهمّ بهم سعد وشتمهم وقال لهم : أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم .

ثم أمر بجماعة منهم « أبو محجن الثقفي » فحبسوا وقيدهم في القصر وحينئذ أعلن القوم ولاءهم وطاعتهم .

خطبة سعد :

وأخذت سعداً الحماسةُ فنسي ما هو فيه من علة ومرض ، وخطب في الجيش قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس : إن الله هو الحق لا شريك له في الملك وليس لقوله خلف ، قال الله جل ثناؤه « **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**[1] » .

إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها وتقتلون أهلها ، وتجبونهم[2] وتسبونهم إلى هذا اليوم ، وقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيارُ كل قبيلة وعز من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا ، وترغبوا في الآخرة يجمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرّب ذلك أحداً إلى أجله ، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم[3] » .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٥ .

(٢) تجبونهم : تجمعون الخراج منهم .

(٣) ريحكم : أي قوتكم .

ابن عرفطه » وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني ، وما بي من الحبون فاني مكب على وجهي وشخصي لكم بادٍ[1] فاسمعوا له وأطيعوا فإنه إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي .

التعبئة المعنوية :

لم يكتف سعد بما فعل ، وإنما طلب من الخطباء والشعراء ، وأهل الرأي أن يقوموا بواجبهم ، فتخللوا الصفوف ، وأثاروا حماستهم ، وذكروهم بوعد الله لهم ، فقال عاصم بن عمرو :

« يا معاشر العرب ، إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونُن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيْناً على العرب غدا وقال مثل هذا القول : قيسُ بن هبيرة الأسدي ، والهذيل الأسدي ، وبشر ابن أبي رهم الجهني ، وربيع السّعدي ، وربعي بن عامر .

فقوى قلب المسلمين ، وتعاهدوا وتواصوا .

ثم أمر سعد أن يقرأ على الناس سورة الجهاد ، ثم قال

---

(١) باد : ظاهر .

لهم : الزموا مواقفكم ولا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتموه ، فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم .

ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ، ولتستقم عدتكم .

ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم وقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وبدأت الحرب بالمبارزة ، فبرز غالب بن عبد الله الأسدي فخرج إليه هرمز — وكان متوجا — فأسره غالب وجاء به سعداً .

وخرج عاصم بن عمرو فطارد رجلا من أهل فارس فهرب منه ، واتبعه حتى إذا خالط صفّهم التقى بفارس معه بغلة فترك الفارس البغل واعتصم بأصحابه فحموه فاستاق عاصم البغل حتى أفضى به إلى الصف ، فاذا الفارس خباز الملك ، وإذا الذي معه هدايا الملك من حلوى وعسل معقود ؛ فأتى به سعدا ورجع إلى موقفه فلما نظر فيه سعد قال : انطلقوا به إلى الجنود وقولوا لهم : إن الأمير قد أهداكم هذا فكلوه .

ومر عمرو بن معديكرب بين الصفوف يحض الناس على

رجلا أعجميا قد أرسل عليه هذا السهم فحمل عليه حتى أمسكه بيديه من رقبته ورفعه إلى أعلى ثم ضربه في الأرض ووضعه بين يديه فكسر عنقه ، وذبحه بسيفه ثم نظر إلى أصحابه وقال لهم هكذا فاصنعوا بهم .

وكبر سعد التكبيرة الرابعة آية الزحف العام ، وحمل أصحاب الفيلة من الفرس فتفرقوا كتائب المسلمين ، وذعرت خيلهم ، ونفرت ، وصمدت الرجالة من أهل المواقف فلما رأى سعد ما حلّ بهم أعانهم ببني أسد فصمدوا لها ولكن الدائرة بدأت تدور عليهم ، وكادت خيلهم تحجم وأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمي ، وسأله : أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟! قال : بلى والله .

فنادى قومه من بني تميم ، وقال لهم : اضربوا ركبان الفيلة بالنبل واستدبروا الفيلة وقطعوا وضنها [1] ، فأقبل أصحاب عاصم على الفيلة ، واستدبروها وقطعوا أوضانها فوقعت الصناديق التي كانت عليها وقتل أصحابها ، وتنفست قبيلة أسد الصعداء ، واقتتلوا حتى غربت الشمس ، واستمروا حتى هدأ الليل ، ورجع هؤلاء وهؤلاء ، واستشهد من أسد وحدهـا في هذا اليوم خمسمائة ، وهذا هو اليوم الأول من أيام القادسية واسمه يوم أرمات .

---

(١) الوضن : ما يوضع على ظهر الفيلة حتى يسهل ركوبها كالسرج للحصان .

وفي اليوم الثاني :

أصبح القوم على تعبئة كاملة ، وعهد سعد إلى بعض الرجال بنقل الشهداء وعهد إلى آخرين بنقل الجرحى إلى مكان يسمى (العذيب) بينه وبين القادسية أربعة أميال ليقوم النساء بتمريضهم ومداواتهم .

وكان سعد لا يطيق الجلوس إلا على ركبتيه ، أو على بطنه ، وكان شديد الضجر من نفسه ومن أصحابه .

ومع ذلك فقد سمع زوجته سلمى التي تزوجها بعد وفاة زوجها المثنى ابن حارثة . سمعها تقول : وامثناه ! لا مثنى للخيل اليوم !!

فلطم وجهها وقال : أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى ؟ يعني أسداً وعاصماً وخيله .

فقالت : أغيرة وجبناً ! قال : والله لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني ، وأنت ترين ما بي !!!

وقبل أن تبدأ المعركة في صباح اليوم الثاني جاءت تباشير الإمدادات التي أرسلها الخليفة من الشام ، فتقدم « القعقاع ابن عمرو » على مقدمة الجيش وتبعته بقية الجيش القادم من الشام عشرات وعشرات ، وكلما جاءت عشرة منهم هللوا وكبروا ، فقوي قلب المسلمين ، وقت الوهن والخوف

قوي يرن صداه في الآفاق :

– أيها الناس إني قد جئتكم في قوم ، والله لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم خطوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع ثم تقدم ونادى قائلا :

– من يبارز منكم أيها الجبناء ؟

– فبرز إليه رجل من الفرس فقال القعقاع : من أنت ؟

– قال : أنا بهمن جاذويه .

– فنادى بالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر !!

– وتجالدا ، وما هي إلا لحظات حتى اعتصره القعقاع ، ودك عنقه .

– ثم نادى مرة ثانية ، فقال : هأنذا قد قضيت على صاحبكم أيها القوم فهل فيكم رجل آخر يريد أن أدك عنقه ؟!

– فخرج إليه رجلان أحدهما البيرزان والآخر البندوان .

فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان ، وما هي إلا لحظات حتى أطار القعقاع رأس البيرزان ، وكذلك فعل الحارث بن ظبيان بمنازله البندوان وزادت حماسة القعقاع فنادى في المسلمين قائلا :

يا معشر المسلمين ، باشروهم بالسَّيف فانما نحصدهم به حصدا ، فخرج الناس من كل ناحية ، وبدأ الحرب والطعان ، وزاد المسلمين نشاطا أنهم لم يروا الفيلة بينهم ، وأن الحيلة التي دبرها القعقاع في تقسيم الجيش القادم من الشام قد نجحت فقد قسم الجيش عشرات عشرات ، وكلما هلّت عشرة كبروا وانضموا إلى جيش المسلمين وباشروا الطعن والضرب .

وحيلة أخرى ابتكرها بنو عم القعقاع فقد برقعوا الإبل بقطع حمراء من القماش حتى أصبحت تشبه الفيلة فاندفعت نحو الفرس تطؤهم بأقدامها ، ولقي أهل فارس من الإبل في هذا اليوم أعظم مما لقى المسلمون من الفيلة في يوم أرمات .

* * *

أبو محجن الثقفي :

وفي أثناء هذه المعركة كان أبو محجن الثقفي من بين الذين حبسهم سعد بن أبي وقاص في قصره ، ولما اشتدت المعركة دبت الحماسة في نفس أبي محجن وعز عليه أن يحرم في هذا اليوم من الصولان والجولان ، فراح يستعطف سعداً ويرجوه في أن يخلي بينه وبين الحرب والقتال ، ولكن سعداً زجره وعنّفه وطلب إليه أن يبقى في سجنه يرسف في أغلاله .

فلما رأى سلمى زوج سعد قال لها :

تؤجرين عليه من الله ؟

– قالت وما هو ؟

– قال : تفكّين وثاقي ، وتطلقين سراحي ، وتعيريني البلقاء وسيفاً صمصاماً أخوض به هذه المعركة الطاحنة ، وعليّ عهد الله ويمينه أن أعود بعد انتهاء المعركة إلى السجن ، وأضع قدمي في هذا القيد .

قالت ليلى : وما أنا وذاك ... وأعرضت عنه .

فراح يتغنى بهذه الأبيات :

كفى حزَناً أن تَردِي [1] الخيل بالقنا
وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عنّاني [2] الحديدُ وأُغلِقَت
مصاريعُ دوني قد تُصِمّ المناديا
وقد كُنتُ ذا مالٍ كثير وإخوةٍ
فقد تركوني واحداً لا أخاليا

---

(١) تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .
(٢) عنّاني الحديد : أثقلني وأتعبني .

ولله عَهْدٌ لا أخيس [١] بعهده
لئن فرِّجت ألا أزور الحوانيا [٢]

فلما سمعت سلمى هذا الشعر .

ـ قالت : رضيت بعهدك غير أنني لا شأن لي بالبلقاء ، وأطلقت سراحه .

ـ فانطلق كالسَّهم نحو البلقاء ، وكانت بجانب القصر فوثب على ظهرها وراح يتوشها ، وما هي إلا لحظات حتّى كان بين ميمنة الجيش يصول ويجول ويرمي بقوسه ويطيح برؤوس الأعداء بسيفه ، ويتحرك من الميمنة إلى الميسرة ويبدي من فنون القتال ، ومن الكر والفر ما يبهر الأبصار أطل سعد من شرفته على المعركة الرهيبة الدائرة ، ورأى الناس هذا الفارس يشق وسط الجموع ، ويطيح بالأعداء ، فقال :

ـ والله لولا أن أبا محجن ، يرسف في قيوده لقلت إنه أبو محجن !!

وراح يتساءل عنه .

ـ ولم يكن ينتهي هذا اليوم ، ويتحاجز الفريقان ويحقق

(١) لا أخيس : لا أغدر .
(٢) الحوانيا : أماكن بيع الخمر .

وهو يتغنى بهذه الأبيات :

لقد علمت ثقيفٌ غيرَ فخرٍ
بأنا نحن أكرمُهـــم سيوفـــا
وأكبرهم دروعـــاً سابغات
وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فان أحبس فذلكم بـــلائي
وإن أترك أذيقهم الحقوفا

فلما سمعت منه سلمى هذه الأبيات ، ورأت منه ما صنعه في وسط المعركة ولهيبها سألته :

— فيم حبسك هذا الرجل ؟ (تعني سعداً — وكانت منه غاضبة) .

— فقال لها : والله ما حبسني في حرام طعمته أو شربته ، ولكنني امرؤ شاعر ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية ، أشربها وأتغنى بها في شعري وجاء الإسلام ، فتركت الشراب غير أن لساني يجري بذكرها في شعري فسمع سعد أنني أقول :

إذا مِتُّ فادفنِّي إلى أصلِ كرمةٍ
تروِّي عظامي بعد موتي عروقهـــا

ولا تدفننّي بالفلاة فإنّني
أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فحبسني لذلك .

فذهبت سلمى إلى سعد ، وتوددت إليه وصالحته ، وقصّت عليه ما جرى مع أبي محجن ، وما أبداه أبو محجن من بطولات في المعركة ، وطلبت أن يطلق سراحه .

فأطلق سعد سراحه .

وقال له : إذهب فلن أؤاخذك بشيء تقوله بعد الآن حتى تفعله .

قال أبو محجن : والله لا أجيب لساني بعد ذلك إلى صفة قبيحة أبدا .

اليوم الثالث : يوم عِماس :

انتهى اليوم الثاني وقد أبلى فيه المسلمون بلاء حسنا ، حيث قتلوا من المشركين عشرة آلاف ، واستشهد منهم ألفان ... فدفنوا موتاهم ، ونقلوا جرحاهم إلى مكان بعيد لتقوم النساء على العناية بهم ، وتضميد جراحهم .

وباتوا ليلتهم على تعبئة كاملة ، ولم ينسوا الحيلة والتدبير ، فقد جمع « القعقاع بن عمرو » رجاله وأشار عليهم أن ينسحبوا إلى مكان بعيد عن المعركة ، حتى إذا ذرّ قرن الشمس ،

[illegible]
وراء مائة حتى يوهموا الأعداء بأن الإمدادات تتوالى فيفت ذلك في عضدهم ويرفع روح المسلمين المعنوية ، وتطيب نفوسهم بالجهاد .

ذرَّ قرن الشمس وأخذ الفرس أماكنهم ، وأخذ المسلمون أماكنهم ، وراح كل فريق يذكي الحماسة في نفوس أصحابه ، ولم تكد السيوف تتعانق ، والرماح ترمجر حتى أقبلت الخيل تصهل من بعيد ، ويردد المسلمون في قوة الله أكبر ، الله أكبر ، وطابت نفوس المسلمين بالجهاد والجلاد وظنوا أن الإمدادات تتوالى ، كلما سمعوا صيحات التكبير ، ورأوا التراب الذي يعقد سحابة دكناء في الأفق من أثر سنابك الخيل القادمة غير أن الفرس استعانوا مرة ثانية بالفيلة ، وحموها برجالهم خشية أن يتمكن المسلمون من قطع وضنتها كما فعلوا في اليوم الأول ، وكانت الفيلة في أول المعركة قد ألفت حرّاسها فصارت تمشي بينهم دون أن تصيب أحداً بأذى ... غير أنها حين أحسّت باشتداد المعركة هاجت ونفرت فوجّهها الحراس نحو كتائب المسلمين القوية التي يتوجسون منها الخطر فبدأت تطحنهم بأخفافها ، وتستخدم فيهم خراطيمها ، فلما رأى سعد ذلك ... أرسل بعض الأسرى من الفرس وسألهم :

– كيف يمكن التغلب على الفيلة ؟

– فأجابوه ... لا يمكن التغلب عليهم إلا إذا أصيبوا في

عيونهم وإلا إذا قطعت خراطيمهم .

فأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو .

قال لهما : اكفياني الفيل الأبيض .

وأرسل إلى « حمّال والرِّبّيل » الأسديين وقال لهما : اكفياني الفيل الأجرب . وشرح لهما طريقة القضاء عليهما .

فأخذ القعقاع وعاصم رمحين وصوباهما نحو عيني الفيل الأبيض فأقعى ودلّى مشفره ، فاستل القعقاع سيفه ، وضرب خرطوم الفيل ضربة أطاحت به .

وفعل « حمّال والرِّبّيل » مثل فعلهما بالفيل الأجرب ، فولى كل منهما الفرار وتبعهما بقية الفيلة ، تدوس من الفرس بأقدامها المتين ، وتفتك بكل من يقف في طريقها وظلت تجري في طريقها لا يقوى أحد على ردّها حتى وصلت إلى عاصمة الملك تحمل تباشير الهزيمة .

اشتد المسلمون وقويت سواعدهم حين رأوا تفكك صفوف الفرس وما حدث بينهم من ذعر واضطراب فحملوا عليهم ، وأعملوا السيوف في رقابهم تارة ، وفي ظهور المنهزمين تارة أخرى .

وسلط الله على الفرس ريحاً عاتية شديدة أطارت سرير « رستم » وأزرت به في الهواء ، فجرى رستم مطلقا لساقيه

فتبعه . حتى ألقى رستم بنفسه في النهر ذعراً وفراراً وهو يظن أن جيش المسلمين يتبعه فوثب هلال وراءه في النهر وجذبه من رجله حتى خرج به إلى الشاطىء وضربه بسيفه فشج هامته ، وألقى جثته بين سنابك الخيل والبغال تنوشه حتى صار أشلاء ممزقة .

ونادى القعقاع بن عمرو : أيها المسلمون ، إن الدائرة بعد ساعة فاصبروا ساعة فإن النصر مع الصبر .

وراح الفرس يولون الأدبار ، ويفرون مذعورين ، فدعاهم « الجالينوس » أحد القواد العظام عندهم أن يعبروا النهر على الرَّدم لكن الردم انهار بهم في النهر فغرق بانهياره ثلاثون ألف فارس لم يفلت منهم أحد .

وجمع المسلمون في هذا اليوم من الأسلاب والأموال والغنائم ما لم يجمع مثله وتعقب « زهرة » المنهزمين ، ولحق بالجالينوس . وحمل عليه فقتله وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر :

« أما بعد ؛ فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال شديد ، وقد لَقُوا المسلمين بعُدَّة لم ير الراءون مثل زُهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك واتبعهم المسلمون على الأنهار وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلانٌ وفلانٌ ورجال من المسلمين لا تعلمهم

الله بهم عالم وكانوا يدوّون بالقرآن إذا جَنّ عليهم الليل دويّ النحل ، وهم آساد الناس ، لا يشبههم إلا الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم » .

واستقبل الخليفة أخبار النصر وأذاعها على الناس ففرحوا واستبشروا وأحسّوا بأن القادسية قد فتحت الطريق أمامهم إلى إيوان كسرى في عاصمة ملكه ، ومهدت للقضاء على دولته ، وسيكون لها أثر كبير في توجيه الحضارة الإسلامية .

إلى المدائن :

مكث سعد بجنوده بعد معركة القادسية نحو شهرين حتى استراح الجند واستعادوا نشاطهم ، وجاءهم أمر الخليفة بالتحرك بعد ذلك إلى « المدائن » عاصمة الفرس .

وكان الفرس بعد أن دارت عليهم الدائرة في القادسية قد أصابهم الوهن وحلّ بهم الضعف والتفرق ، غير أن دهاقينهم [1] ورؤساءهم ، ومن كان فيهم صاحب سطوة ومنزلة ، عزّ عليهم أن يستسلموا في ذلة وانكسار فراحوا يجمعون القلوب المنهزمة ، ويتربصون بجيش المسلمين ،

---

(١) الدهقان : زعيم فلاحي العجم .

الأماكن .

وكان سعد بن أبي وقاص يوجه إليهم قطعا من الجيش تفاجئهم في عقر دارهم ، فتقضّ مضاجعهم ، وتذهلهم عما يعزمون عليه ، فيفرّون مذعورين بعد أن يتركوا وراءهم من الغنائم والأسلاب ما تطيب به نفوس المسلمين المنتصرين .

ومن بين الأسباب التي كانت تعجل بنصر المسلمين ، وهزيمة الفرس ، أن كثيرا من أبناء الفرس الذين نالهم بطش سادتهم كانوا يتقربون إلى المسلمين ، ويدلّونهم على عورات الفرس ، وأماكن تجمعاتهم ، ويرشدونهم إلى الطرق المأمونة ، وأحيانا يقيمون لهم القناطر والجسور ...

وبعد أن حاصر سعد « بهرسير » نحو شهرين ، رماها بالمجانيق ، والعرّادات نادى رسول من قبل الملك فقال :

أيها المسلمون : إن الملك يقول لكم هل إلى المصالحة ، على أنّ لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ؟

أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم !

فرد عليه أبو مُفَزِّرٍ الأسود بن قطبة ، وقد أنطقه الله بكلام لا يدري ما هو باللغة الفارسية .

فلما سمع الفرس هذا الكلام قال الملك :

واويلاه !! ألا إن الملائكة تتكلم على ألسنتهم ، ترد علينا وتجيبنا عن العرب .

والله لئن لم يكن كذلك ما هو إلا شيء ألقي عليَّ من هذا الرجل لننتهي ... وفروا هاربين إلى « المدائن » بعد أن أحرقوا الجسر وجمعوا كل السفن التي تجري فوق دجلة .

واجتمع المسلمون على « مُقَرِّز الأسود بن قطبة » يسألونه ماذا قلت لهم : قال لا أدري .

غير أن نفراً من الفرس الهاربين أخبروهم بما سمعوا فقالوا : لقد سمعنا صوتا يرد علينا قائلا :

لا يكون بيننا وبينهم صلح أبدا حتى نأكل عسل أفريذين بأترُج كُوثي (١) ، دخل سعد والمسلمون « بهرسير » وحاولوا عبور دجلة ، فلم يجدوا جسراً يعبرون عليه ، ولم يجدوا سفناً تحملهم .

وفي جوف الليل رأوا إيوان كسرى العظيم الذي كان يعد إحدى عجائب الدنيا وقد شاده كسرى أنو شروان سنة ٥٥٠ م ، فقال ضرار بن الخطاب : الله أكبر ! هذا أبيض كسرى !! هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا .

---

(١) أفريذين ، وكوثي : موضعين .

جسور معامة عليه فلم يجد وبحث عن السفن ليعبروا بها فوجد الفرس قد أخلوها ، فاستعان ببعض الفرس وسألهم عن طريقة فدلّوه على مخاضة تخاض إلى صلب الوادي فأبى وتردد . فبات ليلته وهو يتوجّه إلى الله أن يختار له وأن يدلّه على ما ينبغي أن يفعل .

فرأى في منامه : أن خيول المسلمين تقتحم النهر وتعبر في أمان ، وتخرج من الماء نشيطة لم يمسسها سوء .

فلما أصبح الصباح جمع المسلمين وخطب فيهم قائلا : بعد أن حمد الله وأثنى عليه « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فينا وشوتكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتَوْا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا حماتهم وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدوّ بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا .

ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم ... »

فصاح المسلمون جميعا : عزم الله لنا ذلك على الرشد ، افعل أيها القائد ما تراه فنحن وراءك .

كان سعد شديد الحيطة والحذر ، لا تنسيه حماسة الإيمان ، ولا قوة اليقين أن يحتاط من العدو ، وأن يكون

يقظاً لكل مفاجأة ، ويحمل حساباً لكل أمر ولو كان صغيراً .

قبل أن يأمر جنوده بعبور النهر على ظهور خيلهم ، انتدب عدداً من أهل النجدة والقوة ، وولى عليهم « عاصم ابن عمرو » ، وأمرهم أن يعبروا هم أولاً ليكونوا في حماية الجند عند عبورهم .

عبر عاصم وأصحابه إلى الضفة الثانية ، وانتشروا على شريط طويل من النهر ، وأمنوا المكان تماماً .

ثم أمر سعد بعد ذلك بقية الجند بالعبور ، غير أن العدو علم بعبورهم على هذا النحو فحاول أن يعترض طريقهم ، وينتهز هذه الفرصة لإغراقهم غير أن عاصما وأهل النجدة كانوا على يقظة تامة ، فتعرضوا لهم وبددوا شملهم ، وأذهلوهم عن أنفسهم ... وعبر جند المسلمين النهر على ظهور خيلهم ، وهم يرددون قول الله تعالى :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً[1] » .

وكان سعد يثير حماسة الجند ويدفعهم إلى خوض النهر قائلاً : اعبروا أيها المسلمون ، وقولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ؛ حسبنا الله ونعم الوكيل ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! !

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٥ .

[illegible]
يتحدث مع بعض في مسيرهم على الأرض وكان سعد وراءهم يسايره في الماء « سلمان الفارسي » ، فعامت بهم الخيل وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرنَّ الله وليَّه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمَنّ الله عدُوه ، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات ويقول « سلمان الفارسي » ذللت لهم والله البحور ، كما ذلل لهم البر أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجُنّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً .

فلما رأى الفرس ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء ، وانتهى المسلمون إلى القصر الأبيض وفيه قوم قد تحصنوا ، فعرضوا عليهم ثلاثا يختارون منها أيها شاءوا ، قالوا وما هن ؟

قالوا لهم : الإسلام فان أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزية ، وإن أبيتم فمنا جزتكم ، حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، فأجابوهم لا حاجة لنا في الأولى ولا في الآخرة ولكن الوسطى .

ودخل سعد المدائن وانتهى إلى إيوان كسرى ، وأقبل يقرأ :

« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ،

ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين [1] » .

وصلى سعد صلاة الصبح في هذا القصر ، واتخذه مسجدا ، وأتم الصلاة في المدائن إذ نوى المقام بها ، وكانت أول جمعة بالعراق في صفر سنة ست عشرة .

جمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والغنائم والطرف وأصاب الفارس من المغنم أثنى عشر ألفاً ، وكلهم كان فارساً ، ثم قسم دور المدائن بين الناس ثم جمع الخمس ، وجمع فيه كل شيء يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه ، وسيفه ونحو ذلك ، وما كان يعجب العرب ، وأرسل كل ذلك إلى عمر ، وكان فيما أرسله إليه بساط ذرعه ستون ذراعاً في مثلها ، صورت فيه طرق فارس ، وبسطت فيه الأرض مذهبة تجري خلالها أنهارٌ رصِّعت بالدر وجعلت حافاته كالأرض المزروعة فيها نبات الربيع على سوق الذهب ، وجعل ورقه من الحرير وثمره من الجوهر وأشباه ذلك .

* * *

أصدر عمر بعد ذلك أمره بولاية « سعد بن أبي وقاص » العراق ، فبذل سعد جهوده الموفقة في استقرار الأمر ، وتنظيم الدولة ، وتعقب الفلول المنهزمة ، وتوزيع الدُّور على

---

(١) سورة الدخان : ٢٥ — ٢٨ .

حقد عليه بعض من أهلها ، وذهبوا إلى عمر يشكونه بأنه لا يحسن الصلاة بهم .

استقدمه عمر إليه وسأله في أمر هؤلاء القوم ، وتحرّى عمر أمره وسأل عنه « عمرو بن معد يكرب » فقال : « متواضع في خبائه ، عربي في نمرته ، أسد في تامورة ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة » .

وخيره عمر في العودة إلى « الكوفة » من جديد فأبى وقال : كيف أذهب إلى قوم يتهمونني بأنني لا أحسن الصلاة ؟!

* * *

ظل سعد في المدينة يشارك في أحداثها ، ويسهم في كل عمل من أعمال الخير وكان دائماً مع الأنصار ، يشاركهم في أعمالهم ، ويسهر على رعايتهم حتى لفت ذلك نظر ابنه « عامر » فقال له :

يا أبت إني أراك تصنع بهذا الحي من الأنصار شيئاً ما تصنعه بغيرهم .

فقال : أي بنيّ ، هل تجد في نفسك من ذلك شيئاً ؟ قال : لا . ولكني أعجب من صنيعك قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق) .

عاش سعد بن أبي وقاص حتى شهد الفتنة الكبرى التي أدت إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وشهد آثارها ... فآلى على نفسه أن يتجنبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

دعاه ابنه « عمر » ، وابن أخيه « هاشم بن عتبة » بن أبي وقاص أن يدعو إلى نفسه بعد مقتل عثمان وقال له : يا عم ، ها هنا مائة ألفا سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر .

فيجيبه سعد : « أريد من مائة ألف سيف ، سيفاً واحداً ، إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع » .

ودعاه علي بن أبي طالب إلى مبايعته فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس .

ودعاه معاوية بعد مقتل علي إلى مبايعته فأبى وكتب إليه أبياتا من الشعر ، منها :

معاوي داؤك الداء العياء ... وليس لما تجيء به دواء
أيدعوني أبو حسن علي ... فلم أردد عليه ما يشاء
أتطمع في الذي أعيا علياً ... على ما قد طمعت به العناء
ليوم منه خير منك حياً ... وميتاً ، أنت للمرء الفداء

ذكرت الكتب والمصادر بعضا من أولاده ، ولم تحصهم إحصاء دقيقا ، فجاء في أسد الغابة ذكر : عائشة وعمر ، وعامر ، ومصعب ، ومحمد ، وإبراهيم .

* * *

وقد روى سعد عن النبي ﷺ كثيراً من الأحاديث ، وروى عنه ابن عمرو بن عباس وجابر بن سمرة ، والسائب ابن يزيد ، كما روت عنه ابنته عائشة ، وأولاده عامر ، ومصعب ، ومحمد ، وإبراهيم ... وغيرهم .

وفاته :

توفي سعد بعد أن تجاوز الثمانين ، وتعددت الروايات في تحديد السنة التي لقي فيها ربه فقيل سنة خمس وخمسين ، وقيل سنة أربع وخمسين ، وقيل سنة ثمان وخمسين .

وعندما حضرته الوفاة بالعقيبة على بعد سبعة أميال من المدينة ، أشار إلى أحد أبنائه ، وطلب منه أن يفتح خزانة ويخرج منها ثوباً خلقاً وقال لهم : كفنوني في هذا الثوب ، فهو أول ثوب شهدت فيه غزوة بدر وقد أخبأته لهذا اليوم .

استقبل سعد الموت فرحاً بلقاء الله تعالى وكيف لا ؟

وقد بشره النبي ﷺ بأنه من أهل الجنة ، وهو أحد الستة الذين مات النبي وهو عنهم راض .

حُمل بجثمانه من البقيع إلى مسجد رسول الله ﷺ حيث صلى عليه مروان وأزواج النبي ﷺ .

وكان سعد آخر من مات من المهاجرين .

* * *

رحم الله سعد بن أبي وقاص ، فقد كان بطلاً لا يشق له غبار ، ارتبط اسمه بأعظم المعارك ، وبأعظم الفتوحات ، والانتصارات ، فهو بطل القادسية بغير منازع ، وهو فاتح المدائن ، ومؤسس مدينة الكوفة وهو الذي تعقب فلول الشرك في فارس حتى ضيق عليها الخناق .

رضي الله عن سعد ورحمه رحمة واسعة .

وأسكنه فسيح جناته .

عظماء مجهولون
٧

تجد عددا من قصص وسير الصحابة
رضوان الله عليهم
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

سعد بن معاذ

رضي الله عنه

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ ـ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ـ برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ ـ هاتف ١١١٦٣٧ ـ برقياً: اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه وبعد : فليست السعادة في الحياة الدنيا ان يجمع الانسان المال ، ويملك المتاع ويتحرك في سبيل ذلك فقط ، انما السعادة في راحة النفس وهدوءالبال،ولا يتم هذا إلا بإرضاء الله سبحانه وتعالى .

ليس من المال والمتاع والشهوة إلا متاع للجسد ، وهو شيء زائل فان، وليس الانسان مادة فحسب وإنما روح إلى جانب تلك المادة ، وإذا كانت المادة فيه تجد لذتها في هذه الدنيا بما فيها من مغريات ، فإن الروح لاتجد راحتها في الدنيا إلا إذا استطاع صاحبها تحقيق المنهج الذي يدعو له وهذا التحقيق لا يتم إلا بالعمل الدائب والحركة المستمرة .

إن السعادة الصحيحة هي التي تؤمن حاجات الجسم كاملة بما فيه من روح ومادة وحركة الانسان يجب ان تسير في هذا الاتجاه، تؤمن حاجات الانسان المادية، وتسعى لتحقيق المبدأ الذي يؤمن به والعقيدة التي يعتقدها ، ولم تكن حركة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في هذا الخط .

صحابة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اسوة لنا ، فحركتنا يجب ان توازي حركتهم ، وتسير معها ، حتى نستطيع ان نصل إلى ما وصلوا اليه من مجد ورفعة في هذه الدنيا ، وفوز في الآخرة،

وسلك الطريق الذي اتبعوه ، ولعل في دراسة سيد الانصار سعد ابن معاذ رضي الله عنه مايؤمن هذا الجانب ، فنرجو ان يوفقنا الله في اعطاء صورة قريبة من واقع حياة الرجل الفذ .

هذا . . وليس سعد بن معاذ رضي الله عنه من العظماء المجهولين ولكن حياته في الاسلام كانت قصيرة بحيث لم تزد على السنوات الست ، لذا فإن ذكره كان قليلاً بالنسبة إلى الصحابة الذين عمروا في الاسلام ، فخاضوا المعارك وقادوا الفتوح ، ولو عاش طويلاً فلربما كان له اثر اكبر ، إذ يعد بين الانصار كأبي بكر بين المهاجرين.

والله وحده نسأل ان يلهمنا الصواب ، ويجنبنا العثرات ، ويسدد خطانا على الطريق الصحيح .

هجـرة القبـائل اليمنـية

كانت الأحوال المناخية في الجزيرة العربية غير التي هي عليه الآن ، فقد كانت الأمطار أكثر غزارة ، والجـو أكثر رطوبـة ، فاشتغل أبناء المناطق المطرة كاليمن بالزراعة وانطلقـوا يبنـون السدود في سبيل حفظ ماء المطر أثناء التهطال إلى أوقات الشح والجفاف والاستفادة منه في الري وسقي المزروعات ولعل أكبر هذه السدود وأشهرها السد الذي بني على وادي (مزاب) اليمن الشرقي الذي يصب فيه عدد من الأودية ، ويسقي أرض الجنتين والذي يعرف باسم سد (مأرب) وقد وصفه ياقوت الحمـوي بقوله « هو بين ثلاثة جبال ، يصب ماء السيل إلى موضع واحد ، وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة ، فكان الأوائل قـد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص ، فيجتمع فيـه ماء عيون هناك مع مايجتمع من مياه السيول ، فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السـد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة ، فيسقون حسب حاجتهم ، ثم يسدونه إذا أرادوا » .

ومع الزمن بدأ المناخ يميل بالتدرج نحو الجفاف . وبدأت الحاجة الى المياه تزداد ، ولكن هذه السدود بـدأت تتداعـى

مواطنها لتستقر في مناطق أخرى ، خوفاً من طوفـان مرتقـب ، وطغيان للماء منتظر ، وعندما تهدم السد انطلقت بقية القبائل تتنقل في بلاد اليمن وترسل الرواد لاختيار منازل جديدة لها ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال . (لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) .

كانت الهجرة برأي سيد ولد الأزد من كهلان وهو عمرو بن عامر فخرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الأزد ثم توزعوا في الجزيرة . فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، وأقام بين الثعلبية وذي قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ، ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو يثرب وبها جماعة من اليهود متفرقون في نواحيها ، فاستوطنوها ، وأقاموا بها ، وغلبوا أهلها ، ومن أبناء ثعلبة هذا حارثة أبو الأوس والخزرج .

كما نزلت خزاعة قرب مكة ، وخزاعة هو حارثة بن عمرو . واتجهت قبائل الأزد نحو عمان وأقامت بها ، ورئيسها عمران بن عمرو وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وهو أبو الغساسنة .

وسارت قبيلة لخم بن عدي إلى أطراف العراق واستقرت

قرب الحيرة • ونزلت بعض أزد سراة العسير • أما طيء فقد نزلت شمال شرقي يثرب •

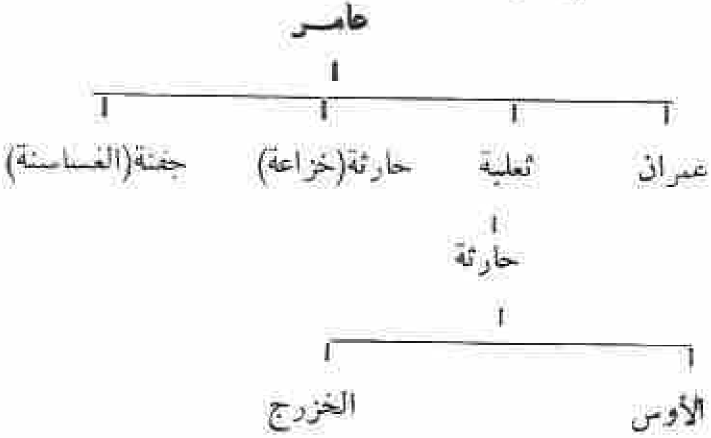

اليهود في يثرب

سكن اليهود يثرب منذ وقت طويل ، وقد وصلوا إليها في عدة أوقات متباعدة يرجع أولها إلى حوالي ١٢٠٠ق.م أيام سيدنا موسى عليه السلام . فقد روي أن نبي الله موسى أثناء عودته من مصر ببني إسرائيل إلى الشام بلغه أن قوماجبارين من العمالقة في منطقة يثرب قد بغوا في الأرض ، وساموا الناس سوء العذاب ، فجرد عليهم حملة عسكرية من قومه بني اسرائيل وأمر قائد هذه الحملة أن يستأصل شأفة هؤلاء العمالقة ، ولا يبقي على أحد منهم، وقد وصلت هذه الحملة الى يثرب وأبادت العمالقة إلا واحداً منهم عادت به معها ، وعند وصولها إلى بلاد الشام وجدت أن موسى عليه السلام قد توفي وقد منع زعماء بني اسرائيل بعد موسى جنود هذه الحملة من البقاء بينهم لمخالفتهم أوامر موسى بإبقاء أحد العمالقة، وقالوا لهم والله لاتدخلن علينا الشام أبداً .

تشاور قادة الجيش فيما بينهم عن المكان الذي يقيمون فيه، وأخيراً استقر رأيهم أن يعودوا بكامل جيشهم الى يثرب ، فرجعوا ، واستقروا هناك .

أما الوقت الثاني الذي نزح فيه اليهود إلى المدينة فيعود إلى المدة الواقعة بين عام ٧٠ و ١٣٢ م حيث استولى الروم على بلاد

الشام عام ٦٤ ق.م . وفتكوا باليهود ونكلوا بهم ، فاضطر هؤلاء اليهود إلى الفرار بأنفسهم ، والتفرق في أنحاء آمنة بعيدة عن مجال الروم . وكان بنو النضير وبنو قريظة ممن خرج واتجه نحو يثرب آنذاك .

أصبحت يثرب تحت زعامة اليهود مدة طويلة من الزمن وكان يعيش بجانبهم قبائل عربية مثل بني الحرمان وبني مرثد وبني بكي وغيرها ، ولكن لم يكن لهذه القبائل العربية كبير وجود ، فلم تستطع منع اليهود من التحكم في المدينة أو منع دخول نزلاء جدد إليها . بقي اليهود في سيطرتهم هذه حتى أخذتها منهم قبائل الاوس والخزرج .

الأوس والخزرج

نزل الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة يثرب، ولكنهم ظلوا ضعفاء أمام سيطرة اليهود وتماسكهم ، فعاشوا في ضيق من العيش ، بينما كان اليهود يتمتعون بسلطان الملك ، والثروة كلها بأيديهم .

فكر الأوس والخزرج في الاستعانة بإخوانهم الغساسنة من ملوك الشام فأرسلوا أحد زعمائهم وهو مالك بن العجلان ليطلب العون العسكري منهم ضد اليهود ، فحصل على مايريد ، وسار الملك الغساني بجيشه لنجدة أبناء عمومته في يثرب ، وهناك أوقع باليهود وأذلهم ، وصار الأوس والخزرج أنداداً اليهود يصاولونهم ويجاولونهم بعد ان كانوا لايجرؤون على التعرض لهم ، ومع هذا بقي اليهود على جانب كبير من القوة والتماسك ولهذا دامت الحرب بين الفريقين زمناً غير قصير .

دبر الأوس والخزرج مكيدة لليهود أفنوا فيها عدداً كبيرا منهم مما أضعفهم وأذلهم، ولم يستطيعوا بعدها الوقوف على أقدامهم في يثرب إلا بعد أن قبلوا الاندماج معهم بالتحالف،فتحالف بنو قريظة ومن تبعهم مع الأوس . وتحالف بنو قينقاع وبنو النضير ومن تبعهم مع الخزرج . وهذا ما ضمن لهم البقاء في يثرب .

مع هذا الذل الذي أصاب اليهود فإنهم ظلوا ذوي مركز مالي كبير

ونفوذ اقتصادي ضخم حيث يعملون بالربا والمتاجرة بالخمر والسلاح وإذكاء نار الفتنة بين الأوس والخزرج لانهاك القبيلتين واستعادة سيطرتهم .

وما انتهت قوة اليهود وظهر سلطان الاوس والخزرج ، حتى نزغ الشيطان بين هاتين القبيلتين ، وبدا قرن العصبية، وابتدأت الحروب بينهما ، وتمكنت العداوة وتأصلت الكراهة .

وهكذا كانت الجاهلية تحكم يثرب ، تحركها العصبية ، وتدفعها اليهودية التي لا تعيش إلا على الحروب وسفك الدماء وإثارة البغضاء، وتشجيع أقوام على آخرين، ولا يعرف اليهود السعادة إلا عندما يرون دماء غيرهم تراق وتتم السعادة أكثر إن كانوا هم سبب الفتنة وإذكاء نار الحرب .

وكانت عبادة الاوثان هي المعروفة بين القبائل العربية ، وكانت (مناة) صنماً تعظمه الأوس والخزرج ، وكان منصوباً على البحر بناحية المشلل[1] بـ(قديد) بين مكة والمدينة ، وتذبح عنده القرابين إضافة إلى تعظيم القبائل العربية الأخرى له .

وتعددت الايام والحروب بين الأوس والخزرج وكان أكثرها لصالح الخزرج حيث هم أكثر عددا ، وهذا ماجعل الأوس يفكرون في ايجاد حلفاء لهم يستطيعون بمساعدتهم احراز النصر على خصومهم من الخزرج ، فإن حرباً جديدة محتملة الوقوع بين

---

(١) المشلل : جبل هناك يشرف على البحر .

من بني قريظة أن ينزلوا عند طلب الخزرج لولا أن منعهم حلفاؤهم من الأوس ونزل بعض رجالهم معهم في حصونهم يدافعون عنها ضد اعتداء الخزرج .

اتجهت أنظار الأوس إلى قريش في مكة لتكون حليفة لهم، وأرسلوا وفداً إليها برئاسة أبي الحيسر أنس بن رافع . ويضم إياس بن معاذ أخا سعد بن معاذ رضي الله عنه(٢).

نشبت بين الطرفين المتنازعين في يثرب معركة (بعاث) وكان النصر فيها للأوس على الخزرج، والتي كاد الاوس فيها يستأصلون شأفة إخوانهم الخزرج ويهدمون دورهم . لولا أبو قيس بن الاسلت أحد قادة الأوس الذي منع قومه من عملية الابادة التي اعتزموا القيام بها ضد اخوانهم الخزرج بعد أن هزموا في تلك المعركة .

---

(١) كانت منازل الخزرج غير ملائمة صحيا ، وفيها سباخ ، بينما كانت منازل بني قريظة افضل مناخا ، واعذب ماء .

(٢) لم يتم الحلف مع قريش . وبعد انصراف الوفد من مكة نشبت حرب (بعاث) .

البعثة المحمدية

بعث الله محمد بن عبد الله في مكة رسولاً للناس كافة . وخاتماً للنبيين ، بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

صدع محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، وحمل الامانة . وبلغ الرسالة ، وما آمن معه إلا القليل ، وانكرت قريش عليه دعوته ، ووقفت في وجهه ، وصدت عن سبيل الله خوفاً على زعامتها ومصالحها وتمسكاً بوثنيتها ودفاعا عن أصنامها وآلهتها ، ووضعت كل العراقيل حتى تحول دون انتشار الاسلام فآذت المسلمين بأجسامهم وأبدانهم ، واضطهدتهم ، وقاطعتهم : وحاصرتهم ولم ينج صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم من هذا فقد أصابه ما أصاب أصحابه من أذى كثير واضطهاد كبير .

كان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعرض نفسه على القبائل في كل موسم ، يدعوها للإسلام ، ويوضح لها الطريق ، وهي تعرض عنه وتنأى متأثرة بجاهليتها ووثنيتها أو يستجيب له أفراد ممن كتب له الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، وكانت قريش تستقبل هذه القبائل في كل موسم تتصل معها قبل أن يلتقي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحذرها منه ، وتخوفها من دعوته، وتنشر

القبائل القادمة إلى الحج أيضا حذرا من كل احتمال .

التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي كان بعد حرب بُعاث بجماعة من الخزرج حضروا الموسم ، فدعاهم للاسلام ، وكان في انفسهم شيء مما كانوا يسمعونه وهم في يثرب من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره ، يستظهر به اليهود عليهم، فقال بعضهم لبعض : إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الاسلام ، فقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، وعسى أن يجمعنا الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لأمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا إلى بلادهم ، وكانوا ستة نفر من الخزرج[1] ، فلما قدموا يثرب اتجهوا إلى قومهم فذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها ذكر رسول الله .

فلما كان الموسم الثاني وافاه من أهل يثرب اثنا عشر رجلا[2] والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة ، وبايعوه بيعة العقبة الأولى وعندما رجعوا إلى يثرب ، أرسل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير .

---

(١) منهم اسعد بن زرارة .

(٢) منهم أسعد بن زرارة وعبادة بن الصامت .

إسلام سعد

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير[1] إلى يثرب مع من أسلم ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرىء ، وكان منزله على أسعد بن زرارة[2] أبي أمامة .

وخرج أسعد مرة بمصعب يريد دار بني عبد الأشهل ، ودار بني ظفر[3] ، فدخل به حائطا من حوائط دار بني ظفر ، فجلسا ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، يومئذ سيدا قومهما من بني الأشهل ، وكلاهما على دين قومه ، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : لا أبا لك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ، ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث علمت ، كفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ، ولا أجد عليه

---

(١) مصعب بن عمير بن هاشم . من جلة الصحابة وفضلائهم ويكنى أبا عبد الله ، هاجر الى الحبشة وبعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ليعلم المسلمين فيها ، وكان يحمل راية المسلمين في بدر وأحد واستشهد يوم أحد رضي الله عنه .

(٢) أسعد بن زرارة من الانصار ، من الخزرج ، شهد بيعة العقبة ، وكان نقيب بني النجار ، وكان أول من صلى الجمعة بالناس في المدينة ، مات قبل بدر .

(٣) ظفر: هو كعب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك ابن الاوس ، وظفر هو عم عبد الاشهل .

... قريباً ، ثم أقبل إليهما . فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب إن جلس فكلمه ، فوقف عليهما متشتماً ، فقال : ماجاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفّ عنك ماتكره ؟ قال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالاسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا في نفسيهما : والله لقد عرفنا في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله ، ثم قال : ماأحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون كي تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له : تغتسل فتتطهر وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما : إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه . وسأرسله اليكما الآن ، وهو سعد بن معاذ ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلاً ، قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي ، قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساء وقد نهيتهما ، فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه .

وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفروك . قال : فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة ، فأخذ الحربة من يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع

منهما ، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : ياأبا أمامة ! أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره ، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير : أي مصعب ! جاءك والله سيد من وراءه قومه ، وإن يتبعك لايتخلف عنك منهم اثنان . فقال له مصعب : أوتقعد فتسمع ؛ فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته . وإن كرهته عزلنا عنك ماتكره؟ قال سعد : أنصفت ثم ركز حربته وجلس ، فعرض عليه الاسلام وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنا والله في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله ثم قال لهما : كيف تصنعون إن أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين قالا : تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير .

فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال . يا بني عبد الاشهل ، كيف تعلمون أمري منكم ؟ قالوا : سيدنا ، وأوصلنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلامكم علي حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى في دار بني عبد الاشهل رجل ولا امرأة إلا مسلم ومسلمة .

وبعد ان اسلم سعد بن معاذ رضي الله عنه انتقل مصعب بن عمير إلى بيته الذي أصبح المركز الاسلامي في المدينة وقد بدأ سعد ابن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا الأوس يومئذ يكسران أصنام قبيلتهما .

اسلم سعد وعمره ثلاثون عاما ، وترك دفعة واحدة ماضيه

جاهلية أو رواسب منها .

وهكذا يستطيع إنسان إن صدق مع الله وأخلص أن يفعل مالا يفعله عدد كبير ، والانسان المخلص هو الذي يتمثل فكرته تمثلا صحيحا ، فقد استطاع مصعب بن عمير أن يؤثر في أهل يثرب جميعا ، واستطاع سعد بن معاذ أن ينقل قبيلة كاملة لما عرف عنه رضي الله عنه من الامانة وسداد الرأي وهذا مايجب أن يتوفر في الداعيــة .

وفي الموسم الثاني رجع مصعب بن عمير إلى مكة ، وخرج معه من خرج من الانصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة ، دون علم قومهم الجاهليين ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية[1] ؛ وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم اثني عشر نقيبا[2] وعاد أهل المدينة إلى بلدهم ، وقد بلغ الخبر قريشا فلحقوا بهم وأخذوا سعد بن عبادة، وكان عبد الله بن أبي بن سلول قد انكر من قبل ، حيث لم يعرف من الأمر شيئاً .

(١) حضر بيعة العقبة الثانية : العباس بن عبد المطلب ليستوثق لابن اخيه محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن العباس قد اسلم بعد ، وإنما كان على دين آبائه .

(٢) منهم : اسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، وعبادة بن الصامت من الخزرج .

ومنهم : اسيد بن حضير وسعد بن خيثمة من الاوس .

بنو عبد الأشهل

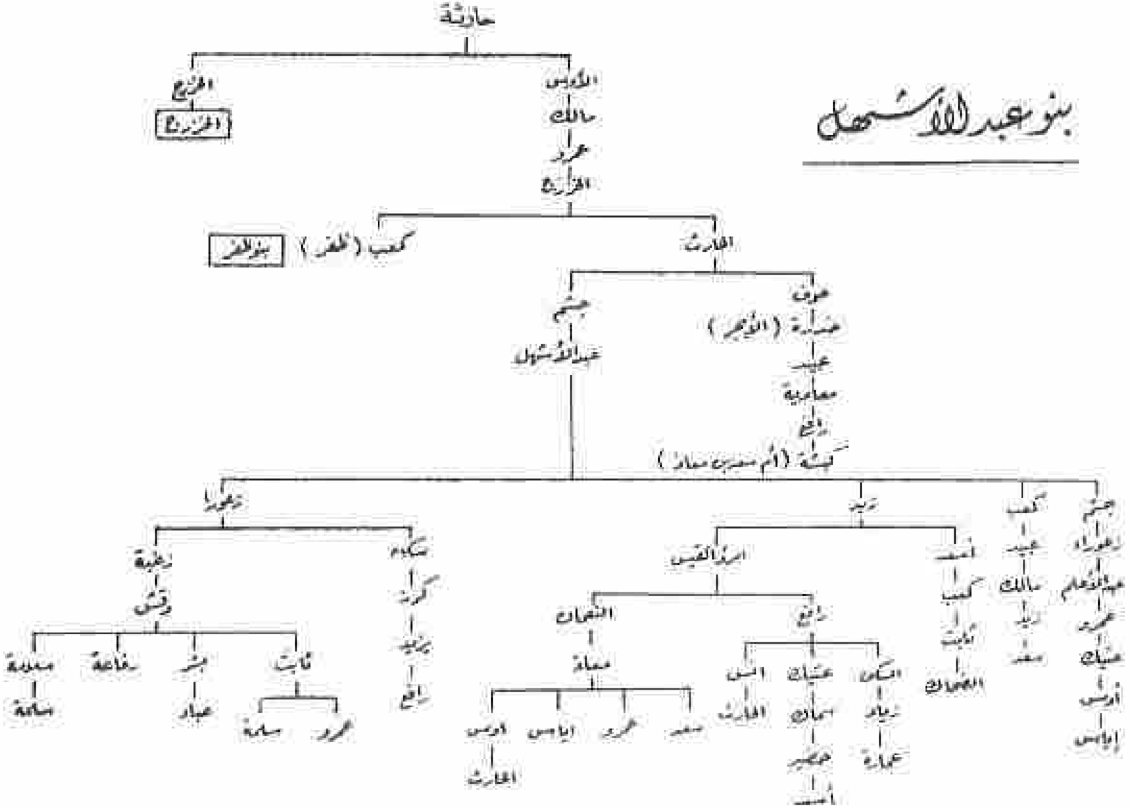

بنو ظفر

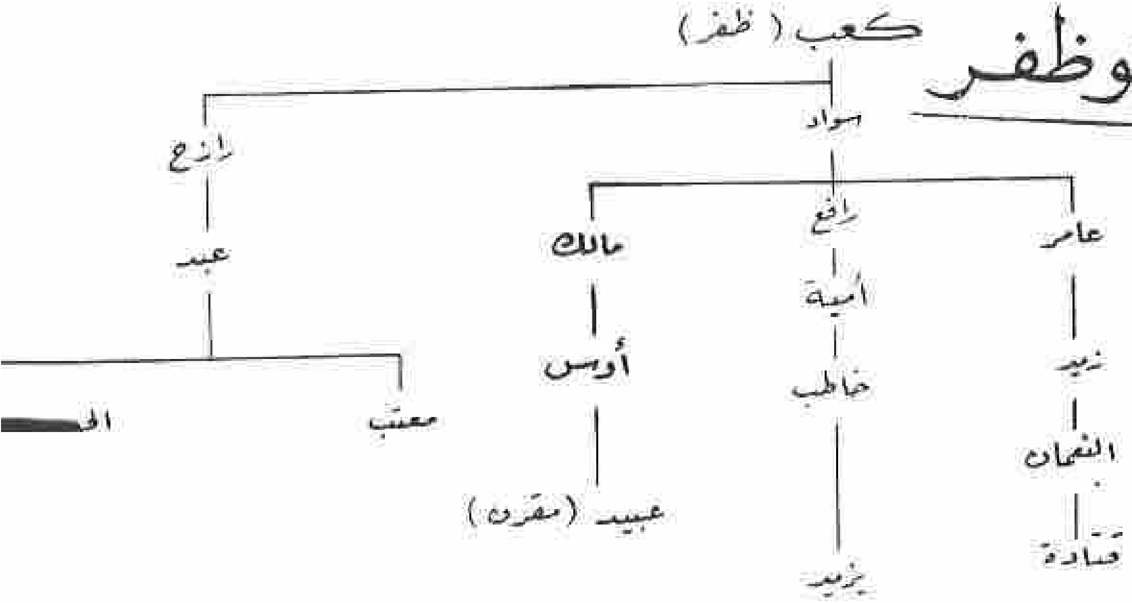
كعب (ظفر)
سواد
رازح
عبد
معتب
عامر
زيد
النعمان
قتادة
رافع
أمية
خاطب
يزيد
مالك
أوس
عبيد (مقرن)

عنصر الخير

ان في النفس البشرية عنصر خير كما فيها عنصر شر « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » فمن زكى الخير فيها قوي ، وأصبح ظاهراً عليها ، بل وسمة رئيسية من سماتها وكان صاحبها خيراً، ومن قوى عنصر الشر ، غلبه الهوى ، واستبدت به الشهوة ، وأصبح الشر من علامات تلك النفس وصفاتها ، وكان الانسان شريراً،ومن كان للخير فاعلاً ، وللحق متبعاً ، ونمى هذه الصفات في ابنائه ، وأورثها لأحفاده ، غلبت على تلك الاسرة ظاهرة الخير واتباع المعروف ، ويسهل على النفس منها الوصول إلى الحق بشكل سريع ولا يمكن أن تحيد عنه مادامت قد عرفته ، وتضرب بكل مايقف أمام سيرها في سبيل الحق . ولا يمكن أن تقف مع الباطل أبداً فإنها لم تتعود على ذلك ، وإنه لشديد على الانسان ما لم يعود .

وقد تكون اسرة بني عبد الأشهل بين الانصار ، من هذه الأسر التي تسعى وراء الحق ، وتتبع له ، وتتبناه بقوة، وتدافع عنه بشدة ، وبصفة خاصة عائلة معاذ بن النعمان والد سعد ، فقد رأينا أتباع سعد للحق ودخوله في الاسلام مجرد سماعه حديث

ليلة واحدة ، ولم يعرف فيها منافق ، أو إنسان غير مسلم ،رجلاً كان أو امرأة ، وهذا مالا تخلو منه اسرة ثانية ، وقد يقول بعضهم إن موقف سعد بن معاذ هذا كان بعد انتشار الاسلام في يثرب فلننظر الى أخيه إياس الذي قبل الحق رغم صغره ورغم رفضه من بقيةأعضاء الوفد الذي كان معهم ، وثبت على ذلك وهو لايستطيع أن يبدي شيئاً أو يضغط على أعضاء الوفد فقد كان أصغرهم كما أن أهل يثرب لم يكن قد وصل إليهم خبر الدعوة الجديدة بعد ، فلما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع[١] مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش ، على قومهم من الخزرج ، فسمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله، بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولايشركوا به شيئاً . وأنزل علي الكتاب ، ثم ذكرلهم الاسلام، وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا : أي قوم هذا والله خير مما جئتم له ؛ فأخذ أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء،فضرب بها وجه إياس ، وقال : دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت

---

(١) أنس بن رافع : هو ابن عم معاذ والد سعد .

إياس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الاوس والخزرج •

ولم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، وقد ذكر من حضر موته: أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل ويكبر ويحمد الله ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما ، لقد كان استشعر الاسلام في ذلك المجلس •

وانظر إلى اخيه الآخر عمرو بن معاذ وهو يدافع عن الحق في أحد حتى استشهد ، وابن أخيه الحارث بن أوس بن معاذ ، وهو يجول في بدر ثم في أحد يقاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد رضي الله عنه •

ومرة أخرى نقف أمام أم سعد وقد خرجت تستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد • رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزيها بابنها عمرو فتجيب أما وقد رأيتك يارسول الله فقد اشتويت عندي المصيبة أي قلّت وهانت ، وكان سعد رضي الله عنه يأخذ بلجام فرس رسول الله ، لايبالي هو وأمه أمات أهله أم عاشوا مادامت الدعوة باقية ببقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو صاحب الدعوة التي عنها يدافعون ، ومن أجلها يحيون ، وفي سبيلها يموتون ، وعليها يلقون وجه الله تعالى • وهذه طبيعة أهل الدعوات والمبادىء الصادقين في دعوتهم المخلصين في سيرهم، وإن كثيراً من الناس من إذا مات لهم محب نسوا ماحولهم وأضاعوا طريقهم ، وفقدوا رشدهم ، أما المسلم الصادق فلايعرف

وكما كانت أم سعد كانت زوجه وهي من بني عبد الاشهل وعمة أسيد بن حضير . فقد بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدقت ، وصبرت على البلاء . وكذلك كان عقبه من بعده فلم يدخلوا في معترك الحياة السياسية عندما اختلط الأمر وضاعت معالم الحق فانصرفوا إلى اعمالهم وعباداتهم وجهادهم جنوداً مجهولين في سبيل الوصول إلى الحق الذي يعتقدونه فإن جهلوه اعتزلوا .

❋ ❋ ❋

نسب سعد وحياته

هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرؤ القيس بن زيد بن عبد الأشهل . ويكنى أباعمرو ، وأمه كبشة[1] بنت رافع بن معاوية ابن الأبجر[2] وزوجه هند[3] بنت سماك بن عتيك بن رافع بن امرؤ القيس بن زيد بن عبد الاشهل وهي عمة (أسيد بن حضير) الصحابي المعروف وأحد سادات الأوس ، ولد سعد في السنة التاسعة عشرة قبل البعثة ، وبذا يكون أصغر من رسول الله صلى الله عليه وسلم باحدى وعشرين سنة .

اسلم على يد مصعب بن عمير قبل الهجرة بعامين . وطلب من مصعب أن ينتقل إلى بيته ، بعد ان كان ينزل في منزل أسعد بن زرارة ابن خالته ومن قبيلة الخزرج وذلك لان أسرته قد أسلمت جميعاً فكان العمل لمصعب أسهل كما أن هذه الاسرة المسلمة حديثا بحاجة الى تفقه في الدين وقراءة القرآن فيجب أن يكون المقرىء

---

(1) وهي من اللواتي بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(2) الأبجر : هو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الاوس .

(3) هند : وقد بايعت رسول الله .

استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة ، وآخى الرسول بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح ، حضر بدرا وشهد أحدا وأصيب في الخندق وحكم على بني قريظة وهم حلفاء الأوس في الجاهلية ، ومات رضي الله عنه متأثرا بجرحه الذي أصابه يوم الخندق فقضى شهيدا عام خمسة للهجرة. وكان عمره سبعة وثلاثين عاما ترك من بعده تسعة اولاد ، عرف منهم واشتهر : عمرو ، وعبد الله .

صفات سَعْد

كان سعد بن معاذ رضي الله عنه رجلاً جسيماً جميلاً طويلاً، أبيض اللون، محبباً إلى النفس. وكان هادئاً قليل الكلام حتى إذا وجد أن وعداً قد أخلف أو حقاً قد هضم أو أن الكلام الموجه إنما يقصد به هو أو قومه تكلم بحرارة؛ فيخرج كلامه قوياً فيه جمال اللفظ وقوة التعبير وصدق العاطفة، كما يظهر فيه إخلاصه وتفانيه في سبيل ما يدعو له، وفي سبيل مايعتقد أنه الحق، فكانت في طبعه حدة، كما كانت فيه غيرة قوية على الحق، شديدة على الدعوة الاسلامية وصاحبها عليه الصلاة والسلام: لا يمكنه أن يسمع كلمة لاتضع الحق في نصابه أولا تعطي للدعوة قيمتها. وهذا مايظهر جليا واضحاً في كل مواقفه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان سعد رضي الله عنه سيد الأوس منذ بداية شبابه لاينازعه فيها أحد رغم صغر سنه، ووجود من هو أكبر منه ومن المعلوم أنه في المجتمعات القبلية يلعب السن دوراً كبيراً، وما هذه السيادة إلا بسبب ما أوتي من رجاحة العقل، وقوة التفكير، وسداد الرأي وثبات القلب، والشجاعة في المعركة وعند النوائب.

وهو سيد الأنصار جميعاً ومقامه بينهم كمقام أبي بكر الصديق بين المهاجرين.

الهجـــرة والمؤاخـــاة

لم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة التي تحكمها الجاهلية الحماية التي ينشدها لأصحابه خوفاً من أن تنالهم يد قريش في العذاب أو الفتنة ، فأشار عليهم صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى يثرب التي بايعه أهلها على أن يمنعوه . فامتثل الصحابة وهاجروا في سبيل الله . وتركوا في مكة أموالهم وأهليهم وكل مايملكون في سبيل أن يتمتعوا في ظل حياة اسلامية وهو أسمى شيء في الحياة بل هو الحياة الفاضلة ، وأن يعبدوا الله دون أن يقف مانع يحول دون ذلك فإن ساعة لله خير من الدنيا وما فيها .

وأخيراً هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقبله أهل يثرب مستبشرين فرحين باستقبال حياة جديدة بجانب رسولهم الكريم ، طالما كانوا يحلمون بها ، وعرفت مدينتهم يثرب باسم (المدينة المنورة) أي التي أنيرت بالخير بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن وصل إلى المدينة أن بنى المسجد الذي أضحى ناديا للمسلمين جميعا بعد ان كان لكل قبيلة أو بطن أو فخذ أو فرع ناد يجمعون فيه

ويسمرون به ، ويتبادلون الرأي فيما بينهم . وهكذا فقد توحدت القبائل في صف واحد بعد ان كانت متفرقة .

وبعد ذلك آخى الرسول بين المسلمين من أنصار ومهاجرين. وقد تكون المؤاخاة بين مهاجرين أو أنصار، أو بين مهاجر وانصاري ولذا فليست هذه المؤاخاة لأسباب اقتصادية كما يحلو للمؤرخين أن يجعلوها . وإنما كانت لتوحيد قلوب المسلمين جميعا ليتمكنوا من الوقوف في وجه يهود جيرانهم في السكن . وليكون المسلمون أمة واحدة من سائر الناس .

ولكن بدت بعض الجوانب الاقتصادية من باب الاخوة لا من باب المادة وذلك عندما تكون المؤاخاة بين مهاجر وأنصاري فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع . فقال سعد لعبد الرحمن: إني اكثر الانصار مالاً فاقسم مالي نصفين . ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها . قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك ، ولكن دلني على السوق .

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سعد بن معاذ وأبي عبيدة بن الجراح[1] فكانت العلاقة بينهما علاقة الأخ مع أخيه الأخ في الله لا في الدم أو الجنس أو اللغة أو الارض أو المصلحة

---

(1) ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آخى بين سعد بن معاذ وسعد بن أبي وقاص والله أعلم .

رابطة أو صلة أو نسب . ولم تكن هذه المؤاخاة بناء على الظروف التي اقتضت ذلك . وإنما مؤاخاة أمر الله بها من فوق سبع سموات، وجعلها الاخوة الوحيدة لا أخوة غيرها بقوله سبحانه وتعالى « إنما المؤمنون إخوة » .

وبعد ان توحدت القلوب قلوب المسلمين جميعا في المدينة ، وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود لتكون المدينة كلها كتلة واحدة تستطيع الوقوف امام قريش أو غيرها فيما إذا فكرت في مداهمتها ، وحتى لاتبقى ثغرة يستطيع العدو أن ينفذ من خلالها إلى المدينة .

سعد رضي الله عنه

في معركة بدر

سعد المسلمون بالحياة الفاضلة مع رسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولكن لم يصلوا إلى هدفهم بعد ، فلا الحصول على المال هو غاية المسلمين في الحياة ، ولا الراحة البدنية ، ولا تملك المتاع والوصول الى الرغبات ، وإنما غايتهم تطبيق حكم الله في أرضه، وهذا لايتم إلا بالجهاد ولن تكون دعوة آنذاك إلا بإزالة أكبر قوة تقف في وجه المسلمين وهي قريش ولم يكن القتال قد شرع بعد .

شرع القتال بقول الله: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف . ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور » ثم أنزل الله تبارك وتعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » أي حتى لايفتن مؤمن عن دينه ولا يعبد غير الله ويكون الدين منهج الناس

لهذا الغرض وهو منازلة قوافل قريش التي تغدو وتروح إلـى الشام وفيها أموال قريش لإثبات الكيان الاسلامي ، وإجبارقريش على الاعتراف بهذا الكيان ، ولتسمع القبائل بالاسلام وتعلم مركز دولته ، فتسأل ، وتصل إلى الحقيقة فينتشر الاسلام، فإن اية فكرة ليست لها قوة تدعمها ، فإن ذكرها لن يرتفع ولن يقبـل النـاس عليهـا .

وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذه المناطق التي حول المدينة وبخاصة الجهات القريبة منها حيث تمر قوافـل قريش لابد من أن تكون نقطة التماس بين المسلمين وقريش . وستدور فيها رحى الحرب المنتظرة، لذا لابد من دراستهاومعرفة طبيعتها ، والاتصال بقبائلها ومحاولة كسبهـم إلى الدعـوة الاسلامية أو إلى صفهم أو على الأقل وقوفهم على الحياد فيمـا إذا جرت الحرب في ديارهم بين المسلمين وقريش ، ولهذا كانت غايات كثيرة لهذه الغزوات والسرايا التي سبقت غزوة بدر.وكانت إحدىهذه القوافل بقيادة أبي سفيان بن حرب ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مائتي راكب للتعرض لها ، ولكن ما إن وصل العشيرة حتى علم أنها مرت قبل يوم ، ولا يمكنه أن يدركها، فعاد الى المدينة بعد ان ابقى سعيد بن زيد وطلحة بن عبيدالله رضي الله عنهما يرصدانها حتى تعود ، فقاما بالأمر ، ولما أدركا عودتها ، أخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين للخروج إلى القافلة بقوله :

« هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها »

وهذه الدعوة لم تكن إجباراً ليخرج المسلمون جميعاً ولا استنفارا ليضع المسلمون كل إمكاناتهم، وإنما كانت تخييراً فإن عدد الركبان في القافلة لا يزيد على الاربعين ولا يحتاج التغلب عليهم إلى قوة كبيرة ، كل ذلك لأمر أراده الله حتى لا يخرج المسلمون بأجمعهم وعندها تتكافأ القوتان ، ولا يكون للنصر أهمية كبيرة وصدى عظيم حيث تحتمل الغلبة ولا يظهر تأييد الله ومدده ، وأثر الإيمان وقوته .

خرج المسلمون يقودهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يزيد عددهم على ثلاثمائة إلا قليلا ، واعتقدوا أن الخروج ليس إلا للقافلة . وشعرت القافلة بخروج المسلمين فاستنجدت بقريش . وغيرت طريقها فنجت ، بينما جاءت قريش بقوتها وجبروتها وخيلائها لتنقذ القافلة ، وتؤدب المسلمين ــ على زعمها ــ .

اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر سير قريش ، وعلم انها الحرب وكان يريدها فأراد أن يستوثق من صحبه .

فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال ، وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو(١) فقال:

---

(١) المقداد بن عمرو بن ثعلبة العامري ، ويقال له: المقداد بن

قاعدون ، ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه[2] .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له ، ثم قال : اشيروا علي أيها الناس ــ وإنما يريد الانصار ، وذلك أنهم كانوا أكثر الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فخشي رسول الله أن يفهم الأنصار أن هذه الحرب خارج المدينة وليسوا ملزمين بالقتال ، أو يروا أنهم خرجوا للعير وأنهم على غير استعداد لهذه المعركة غير المتكافئة،فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ رضي الله عنه:

الاسود الكندي الحضرمي ، لان اباه اصاب دما في قومه ، فلحق بحضرموت ، وحالف كندة ، وتزوج منهم امرأة ، فولدت له المقداد، ولما كبر المقداد تشاجر مع ابي شمر بن حجر الكندي فضرب المقداد رجله بالسيف ، وهرب إلى مكة ، وحالف الاسود بن عبد يغوث فتبناه الاسود ولذلك قيل له ابن الاسود وغلب عليه ذلك ولما نزلت (ادعوهم لآبائهم) سمي المقداد بن عمرو . هاجر الهجرتين وكان مقداما رضي الله عنه ، توفي سنة ثلاث وثلاثين للهجرة .

(١) برك الغماد : مكان في آخر الجزيرة في بلاد اليمن .

(٢) وفي رواية اخرى ، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك .

والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل ، فقال سعد : يارسول الله قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك . فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله [1] .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الى مصارع القوم [2] .

وقف سعد بن معاذ رضي الله عنه مرة أخرى قبل المعركة مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم : يانبي الله ، ألا نبني لك عريشا [3] تكون فيه ونقعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا،فإن أعزنا

---

(١) وفي رواية أخرى : لعلك أن تكون يارسول الله قد خرجت لأمر ، وأحدث الله اليك غيره فانظر الذي أحدث الله إليك فامض . فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت، وسالم من شئت خذ من اموالنا ما شئت ، واعطنا ما شئت ، وما أخذت منا ، كان أحب إلينا مما تركت .

(٢) روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول هذا مصرع فلان ويضع يده هاهنا وهاهنا ، قال فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) العريش : شبه خيمة يستظل به .

[illegible]

يانبي الله، مانحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك[1] .

فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له بخير ، ثم بني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه .

يظهر من قول هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه طاعتـه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تخوفه من الموت ، وانـه قادم عليه لامحالة وذلك في سبيل الدعوة ولكنه إن خاف فإنمـا يخاف على مستقبل الاسلام فيحرص كل الحرص علـى حيـاة رسوله الكريم فيرغب في انقاذه والقتال دونه حتى تستمر الدعوة وينفذ أمر الله .

وبناء على اقتراح سعد رضي الله عنه بني العريش، وتـم انشاء حرس لقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي فرقة تـم اختيارها من فتيان الانصار ، وتولى سعد رضي الله عنه قيادتهـا

---

(١) كان ممن تخلف عن بدر أحد سادات الاوس وهو أسيد بن حضير رضي الله عنه ؛ وقد اسرع للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم في الروحاء يهنئه بالنصر ، وقد قال له معتذرا : والله يارسول الله ماكان تخلفي عن بدر وأنا أظن انك تلقى عدوا . ولكن ظننت أنها عير ، ولو ظننت انه عدو ماتخلفت ، فقال له الرسول صلى الله عليـه وسلم : صدقت وكان رضي الله عنه مقداما ، فقد شهد احدا وثبت ، وجرح سبع جراحات وتوفي سنة إحدى وعشرين للهجرة .

بنفسه ليطمئن على سلامة الصحابة .

ودارت المعركة وحمي الوطيس . وأنزل الله سكينته على المؤمنين ، وأيدهم بنصره ، وأمدهم بجند لم يروها ، وجعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وفرت قريش ووضع المسلمون أيديهم يقتلون ويأسرون،ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش ، وسعد بن معاذ رضي الله عنه قائم على باب العريش، متوشح السيف ، في نفر من الانصار يحرسون الرسول ، يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس من أسر الرجال ، فقال رسول الله : والله لكأنك ياسعد تكره مايصنع الناس ، قال : أجل والله يارسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال .

إنه رضي الله عنه لايحب أن يرى رجالا تمكن المسلمون منهم ، وبقوا أحياء ، وقد حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخرجوه وقاتلوه ، إنه لايحب إلا أن يرى عاقبة امرهم قتلا في الدنيا وخسرانا في الآخرة ، إن النفس البشرية لا ترغب إلا أن ترى عاقبة عدوها المبين سريعة أمام عينيها .

وكان سعد يرى أن عداء قريش سيستمر وأن عداءهم بعيد بعد أن فعلوا مافعلوا برسول الله وأن أمر نبوته واضح تمام الوضوح، ولا ينكره الا من كتب الله له الضلالة ومن كانت هذه الحال حاله فالقتل أولى به .

وعاد الجيش الاسلامي المنتصر إلى المدينة يحمل معه الأسرى ويزيد عددهم على السبعين وهم من وجهاء قريش وزعمائها ، ومن

وسلم [illegible] في [illegible] . [illegible] رأي [illegible] بن معاذ وعمر بن الخطاب أن يقتل الاسـرى فلم يتأثرا لرؤيتهـم صاغرين، ولم يرثيا لحالهم، وهم أذلاء مقيدون.والبطل يرثي لحال البطل ، ويشفق الوجيه على حال الكبير ، ويرحم السيد عزيز قوم ذل ولكن من أين تأتي الشفقة والرحمة وقد ارتكبوا أكبر ذنب في الدنيـا في نظر هذا الصحـابي الجليل سعد بن معاذ ، ذنـب محاربة الله ورسوله وايذاء نبيه واخراجه من داره وموطنه بغـير حـق .

قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاسرى الفدية بناء على رأي أصحابه الآخرين بما فيهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ومن هؤلاء الاسرى عمه العباس بن عبـد المطلب ، وابنـاء عمومته عقيل بن ابي طالب ، ونوفل بن الحارث ، وزوج ابنته زينب أبو العاص بن الربيع .

مضى الاسرى إلى مدينتهم مكة بعد أن ادوا الفدية وجـاء قول الله تعالى من فوق سبع سموات مؤيدا رأي سعد وعمر في الاسرى « ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » .

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لقي عمر بعد ذلك فقال : « كاد يصيبنا في خلافك بلاء »(١) .

---

(١) أورده السيوطي في الدر ٣/٢٠٢ عن أبي نعيم في الحليـة عن طريق مجاهد عن ابن عمر .

سَعْد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

في مَعْرَكَة أُحُد

بعد ان رجعت فلول قريش من بدر ، ووصلت العير ، بدأ التحريض لحرب المسلمين ، واستعان المشركون بمال القافلة في حربهم واجتمعت قريش على ذلك ، وخرجت مع من انضم اليها من العرب والأحابيش[1] ، وأخرجوا معهم النساء في الهوادج للالتماس الحفيظة ولئلا يفروا .

وصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشار الناس في الأمر فقال : « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فان أقاموا أبشر مقام، ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » وكان رأي بعضهم البقاء في المدينة ورأي بعضهم الآخر الخروج وهم غالباً ممن فاتهم يوم بدر ومن المتحمسين والذين يخافون أن يوصفوا بالجبن ، أما سعد بن معاذ رضي الله عنه فلم يتحدث في الأمر ، وترك الرأي لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الاحابيش قبائل تحالفت بعضها مع بعض بواد يقال له الاحبش بأسفل مكة ، فنسبوا بعدها إلى ذلك الحلف، واشهر هذه القبائل بنو الحارث بن عبد مناة وبنو المصطلق .

للخروج في أي مكان يراه رسول الله عليه الصلاة والسلام وإلى أي جبهة يختارها •

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته بعد خروجه من صلاة الجمعة ولبس لأمته وخرج عليهم ، وقد ندم الناس ،وقالوا: استكرهنا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك فلما خرج عليهم قالوا : يارسول الله ! استكرهناك ، ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ، ثم سار بأصحابه ، وما إن قطع مسافة خارج المدينة حتى انخذل عنهم عبد الله بن أبي سلول بثلث الناس ، وهو يومئذ رأس المنافقين •

وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبل أحد فوضع خمسين من الرماة على الجبل الذي عرف باسمهم ، وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم ، مهما كان من أمر ، وادار ظهره للجبل وابتدأت المعركة ، وانزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، وكانت هزيمة قريش لاشك فيها ، وظن الرماة أن الامر قد انتهى وأسرعوا يلاحقون المشركين ويجمعون الغنائم ، فانكشف ظهر المسلمين فالتف عليهم من خلف الجبل خالد بن الوليد بخيله ــ لم يكن قد أسلم بعد ــ ووقع المسلمون بين نارين ونادى منادي المشركين أن محمداً قد قتل ، وعادت قريش إلى لوائها ، فانكشف المسلمون وأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء عظيم• وانخذل المسلمون

عن رسولهم، فشج وجهه الكريم . وجرحت شفته، وكسرت رباعيته ، ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر الفاسق[1] قبل بدء المعركة ولم يعرفها المسلمون . وثبت من ثبت ، وكان منهم سعد بن معاذ رضي الله عنه . وارتقى المسلمون برسولهم الجبل . وانصرفت قريش بعد ان نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القابل،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل : نعم هو بيننا وبينكم موعد .

وكان قد استشهد من المسلمين سبعون رجلا منهم حمزة بن عبد المطلب[2] وعبد الله بن جحش[3] وسعد بن الربيع[4] وعمرو ابن معاذ أخو سعد بن معاذ ، والحارث بن أوس ابن أخ سعد ،

---

(١) أبو عامر : هو ابن صيفي النعمان بن مالك بن امة بن ضبيعة من الاوس وقد ذهب إلى قريش ، واخبرهم بأن الاوس إن رأوه لم يختلف عليه اثنان ، وعندما ناداهم قبل احد خذلوه وكان يدعى الراهب فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ، وهو والد حنظلة الذي استشهد يوم أحد رضي الله عنه.

(٢) حمزة بن عبد المطلب : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخوه في الرضاعة من ثويبة .

(٣) عبد الله بن جحش : ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم امه اميمة بنت عبد المطلب من السابقين في الاسلام وهو أيضا أخ لرسول الله في الرضاعة من ثويبة .

(٤) سعد بن الربيع : احد سادات الخزرج . واحد النقباء الاثني عشر .

المؤمنين ومحق به المنافقين ممن كان يظهر الايمان بلسانه ، وهو مخف الكفر في قلبه ، وكان يوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته •

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقبل أن يدخلها جاءت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على فرسه ، وسعد آخذ بلجامها فقال سعد : يارسول الله أمي ••• فقال: مرحباً بها ، فوقف لها ، فلما دنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم عزاها بابنها عمرو بن معاذ •

فقالت: أما إذ رأيتك سالما فقد اشتوت[٢] عندي المصيبة •

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل من قتل بأحد، وقال لأم سعد: ياأم سعد أبشري، وبشري أهليهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً •

قالت: رضينا يارسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : يارسول الله ، ادع لمن خلفوا منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ،

---

(١) مصعب بن عمير : كانت زوجه حمنة بنت جحش أخت عبد الله بن جحش ، وابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها طلحة بن عبيد الله بعده .

(٢) اشتويت : قلت وهانت .

واحسن على من خلفوا .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدار من دور الأنصار من بني (عبد الاشهل) و (ظفر) ، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم . فذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى ثم قال : لكن حمزة لا بواكي له . فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بني عبد الاشهل ، أمر نساءهم أن يتحزمن، ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن على باب مسجده يبكين عليه . فقال : ارجعن يرحمكن الله . فقد آسيتن بأنفسكن ، ونهى يومئذ عن النوح . وقيل: إنه لما سمع بكاءهن، قال : رحم الله الانصار ، فإن المواساة ماعتمت[1] لقديمة،مروهن فلينصرفن وعلى الرغم من أن المسلمين قد لحقوا قريشا الى حمراء الاسد[2] ليرهبوا العدو ولتعرف قريش أن بهم قوة، وأنهم على غير ما ظنت وأن ماأصابهم لم يفت في عضدهم ، إلا أن يوم أحد كان حادثا أليماً أضعف قوة المسلمين في نظر القبائل العربية وممن حول المدينة من الأعراب ، فطمعوا في غزو المدينة .

---

(١) ماعلمت .

(٢) حمراء الاسد : موقع جنوب غربي المدينة على بعد ١٠٠ كم منها ويقع شمال شرق بدر .

ليتفهوهم في الدين .

ثم كانت حادثة بئر معونة حيث غدرت بنو سليم بسبعين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلهم ليدعوا أهل نجد .

وحاول بنو النضير من اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غدراً ، فحاصرهم ، وأجلاهم عن المدينة ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام .

وقد قسم غنائم بني النضير على المجاهدين دون الانصار بعد استشارة الانصار وموافقتهم على ذلك ، ولم يعط أحدا من الانصار من غنائم بني النضير إلا رجلين فقيرين، هما: سهل بن حنيف وأبو دجانة، وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف سيد بني النضير سلام بن ابي الحقيق إلى سيد الاوس سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان لذلك السيف ذكر عند العرب [٢] .

---

(١) عضل والقارة : اسم قبيلتين .

(٢) انظر للتوسع بشأن هاتين الغزوتين : احد وبني النضير ، كتابنا : السيرة النبوية ، صدر عن المكتب الاسلامي .

سعد رضي الله عنه

في غزوة بني المصطلق

وصل خبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سيد بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار قد أخذ يحشد قومه ومن أطاعه من قبائل العرب لغزو المدينة ، وقد جمع لذلك جموعاً كثيرة .

ولما تأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخبر ، أسرع اليهم في أوائل شعبان من السنة الرابعة للهجرة ، وعندما التقى بهم أحاط بهم فما أفلت منهم رجل واحد ، فقتل منهم عشرة قتلى ، ثم استولى الجيش الاسلامي على منازلهم وعلى كل مافيها واستاق كل ما يملكون من الخيل والشاء والابل وسبى نساءهم وذراريهم .

وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت الحارث زعيم بني المصطلق بعد أن افتداها أبوها ، وأسلمت هي وأبوها .

ثم اطلق سراح الاسرى والسبايا ، وأثناء عودة المسلمين إلى المدينة حدثت حادثة الافك وتكلم فيها رأس النفاق عبدالله بن أبي .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في خطبته على المنبر : من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ماعلمت

[illegible]
عنه . فقال : يارسول الله أنا والله أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك .

فقام سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو سيد الخزرج وقد أخذته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله ، لاتقتله ولا تقدر على ذلك .

فقام أسيد بن حضير فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين[1] .

---

(١) انظر كتابنا « السيرة النبوية » .

سَعْـد رَضِيَ اللهُ عَنه

في معركة الخندق

استطاع اليهود الذين أُجلوا عن المدينة ، واتجهوا نحـو خيبر ، أن يخضعوا أهل خيبر لنفوذهم ، كمـا استطـاع بعض زعمائهم أمثال : سلام بن ابي الحقيق وحيي بن أخطب أن يحرضوا قريشا وغطفان على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يحزبوا الاحزاب ضده .

خرجت هذه الاحزاب لتقاتل رسول الله وكان ابو سفيان بن حرب يقود قريشاً ، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر[1] والحارث[2] ابن عوف بن أبي حارثة المري يقودان غطفان . وعندما وصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الخندق حول المدينـة باقتراح من سلمان الفارسي .

---

(١) عيينة لقب واسمه الصحيح حذيفة ، وانما لقب بـ (عيينة) لشتر كان في احدى عينيه ؛ وكان زعيم بني فزارة ، اسلم ، ثـم ارتد ، وكان مع طليحة المتنبيء ، اخذ أسيرا اثناء حروب الردة ، ومن عليه أبو بكر رضي الله عنه فاظهر الاسلام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه الاحمق المطاع .

(٢) الحارث زعيم بني مرة .

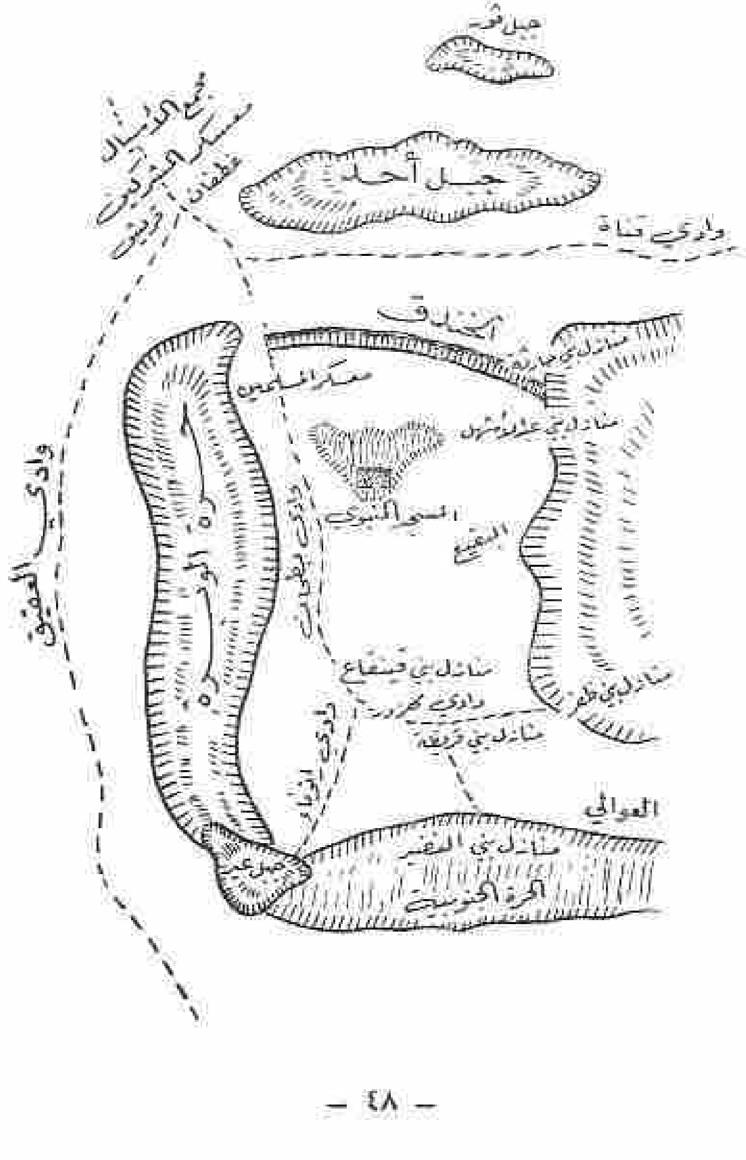
جبل ثور
جبل أحد
وادي قناة
مجمع الأسيال
معسكر الأحزاب
غطفان
قريش
الخندق
منازل بني حارثة
معسكر المسلمين
منازل بني عبد الأشهل
المسجد النبوي
البقيع
حرة الوبرة
وادي بطحان
وادي العقيق
منازل بني قينقاع
وادي مهزور
منازل بني ظفر
منازل بني قريظة
وادي رانوناء
العوالي
منازل بني النضير

وصلت الاحزاب الى المدينة ، وبلغ تعداد جندها عشرة آلاف مقاتل وتمركزوا جنوب غربي جبل أحد في مجمع الأسيال وخرج إليهم رسول الله في ثلاثة آلاف من المسلمين وتمركزوا شمال جبل سلع، ويفصل الخندق بين المعسكرين •

نزل حيي بن أخطب دار بني قريظة في المدينة ، ودخل على كعب بن أسد زعيم بني قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل به حتى نقض العهد وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ونزل حيي معه في حصنه •

ولما وصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نقض بني قريظة العهد بعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبدالله بن رواحة وخوات بن جبير ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا ، فالحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بينهم ، فاجهروا به للناس ، فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث مابلغهم عنهم ، فيما نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : من رسول الله ؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، فشاتمهم سعد ابن عبادة، وكان رضي‌الله عنه فيه حدة فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ونصح سعد بن معاذ بني قريظة وهم حلفاؤه في محاولة أخيرة يدعوهم بالرجوع عن غيهم ، ويخوفهم من عاقبة نقض العهد فقال لهم :

مثل يوم بني النضير أو أشد منه ولكنهم سخروا من سيد الاوس وتكلموا معه كلمات قذرة .

فقال لهم سعد : « غير هذا القول كان أجمل بكم وأحسن يابني قريظة » فتمادى يهود في غيهم ، ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما يئس سعد ، ويئس الوفد الذي معه تركوهم . وعادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ، ثم قالوا : عضل والقارة[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يامعشر المسلمين .

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن اسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير[2]: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وحتى قال أوس بن قيظي : يارسول الله ، إن بيوتنا عورة على العدو ، وذلك على ملأ من قومه ، فأذن لنا

---

(1) اي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، خبيب واصحابه .

(2) معتب بن قشير من الانصار من قبيلة الاوس من بني عمرو ابن عوف ، ولم يكن من المنافقين وقد شهد بدرا .

أن تخرج، فنرجع ، إلى دارنا ، فانها خارج المدينة .. فأنزل الله سبحانـــه :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعلمون بصيرا ، إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارا » فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون بضعاً وعشرين ليلة ، ولم تكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصار . فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف بن ابي حارثة المري ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع عليه الشهادة ولا عزيمة الصلح الا المراوحة في ذلك ، واستشارة زعماء الانصار . فلما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك ، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له : يارسول الله أمراً تحبه فتصنعه ، أم شيئا أمرك الله به ، لا بد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني

معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولا نعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك ، فتناول سعد ابن معاذ الصحيفة ، فمحا مافيها من الكتاب ثم وجه كلامه إلى سيدي غطفان عيينة بن حصن والحارث بن عوف ، ورفع صوته وقال ارجعا ليس بيننا وبينكم سوى السيف ، ثم قال : ليجهدوا علينا وكان لهذا الكلام أثره الحسن في إضعاف معنويات الخصم، وزيادة معنويات المسلمين بما فيه من قوة العقيدة وشحنات الايمان الشديدة .

وأقام المسلمون خلف الخندق، والاحزاب يحاصرون المدينة من خلفه، وحاول بعض أبطال الاحزاب اقتحام الخندق منهم عمرو بن عبدود العامري وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم وبرز علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعمرو بن عبدود العامري الذي دعا إلى المبارزة فقتله علي رضي الله عنه فولت خيل الأحزاب الادبار واقتحمت الخندق منهزمة إلى خلفه .

ولم يكن من قتال بين الطرفين غير ذلك إلا الرمي بالنبال

والحصار وأثناء هذا الحصار كانت نساء المسلمين في الحصون ، كما كان بعض الرجال يحمون الحصون ، ويدافعون عن النساء فيما اذا تعرضن لغارة أو لمكيدة من الخلف من قبل بني قريظة .

وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في حصن بني حارثة، وكان من أحرز حصون المدينة . وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن ، فقالت عائشة : يا أم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ(١) مما هي ، وقالت عائشة في نفسها وخفت عليه حيث أصاب السهم منه ، وكان قد مر وعليه درع مقلصة(٢) ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفي يده حربته يرقد (٣) بها ويقول :

لبث قليلا يشهد الهيجا جمل لابأس بالموت إذا حان الأجل(٤)

وما إن وصل سعد الى جانب الخندق حتى رمي بسهم أصابه في الأكحل . ويقال ان الذي رماه هو حبان بن قيس بن العرقة(٥).

---

(١) اسبغ : اكمل واطول .
(٢) قصيرة ، تقلص الشيء ارتفع وانقبض .
(٣) يرقد : يسرع .
(٤) البيت ليس لسعد بن معاذ وانما كان يتمثل به .
(٥) هو ابن قيس ابن عبد مناف بن منقذ بن عمرو بن معيص ابن عامر بن لؤي والعرقة هي قلابة بنت سعد بن سعد بن سهم وتكنى أم فاطمة ، وسميت العرقة لطيب ريحها وهي جدة خديجة . ام أمها هالة .

ويروى أن الذي أصاب سعداً رضي الله عنه هو اسامة الجشمي حليف بني مخزوم ، كما ويروى أن الذي رمى سعدا هو خفاجة بن عاصم بن حبان .

شيئاً ، فأبقني لها ؛ فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم مـــن قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ، ولا تمتني حتى تقر عيني مـــن بني قريظة[1] .

---

(١) انظر كتابنا « السيرة النبوية » .

سعد رضي الله عنه

في غزوة بني قريظة

أقام المسلمون على الخوف والشدة، لتظاهر عدوهم عليهم، واتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من غطفان وهو نعيم بن مسعود وقال له: يارسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال : يابني قريظة،قد عرفتم ودي إياكم ، وخاصة مابيني وبينكم ، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من اشرافهم يكونون بأيديكم ثقة

ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه ، نصحا لكم، فاكتموا عني ، إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد اتفقوا أن يأخذوا رهائن منكم ويضربوا أعناقهم ، وأن يقاتلوا مع محمد، فإن بعثوا اليكم يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحداً •

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يامعشر غطفان ، إنكم أصلي وعشيرتي ، وأحب الناس إلي ، ولا أراكم تتهموني، ثم قال لهم ماقال لقريش ، وحذرهم ماحذرهم •

وقعت الفرقة بين الأحزاب ، وبعث الله عليهم ريحا عاتية في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تطفىء قدورهم ، وتقلع خيامهم • فلما أصبحوا قال أبو سفيان : يامعشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة،وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا إني مرتحل •

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم • وارتحلت الأحزاب ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه

وسلم عن الخندق راجعا إلى المدينة ، ووضع المسلمون السلاح •

فلما كان الظهر ، أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أوقد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال : نعم ، فقال جبريل عليه السلام : فما وضعت الملائكة السلاح بعد • إن الله عز وجل يأمرك يامحمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عامد اليهم فمزلزل بهم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا في الناس : من كان سامعاً مطيعاً ، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة •

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وسارع المسلمون إلى بني قريظة • وتحصن اليهود داخل حصونهم وطال الأمر عليهم ، ولم يجدوا بدا من النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حصار دام خمسا وعشرين ليلة •

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتواثبت الأوس ، فقالوا : يارسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ماقد فعلت ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه • فسأله إياهم عبد الله ابن أبي بن سلول، فوهبهم له ، فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك إلى سعد بن معاذ ، وكان رسول الله صلى الله عليه

بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ، وكان رسول
نفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق
اجعلوه في خيمة رفيدة ، حتى أعوده من قريب ، فلما حكّمه
رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة ، أتاه قومه فحملوه
على حمار وقد وضعوا له وسادة من ادم، وكان رجلا جسيما جميلا،
ثم أقبلوا معه على رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وهم يقولون: ياأبا عمرو ، أحسن في مواليك فان رسول
الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا
عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم • فرجع
بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل ، فنعى لهم
رجال بني قريظة ، قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التي سمع
منه فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين،
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم • فأما
المهاجرون من قريش ، فيقولون : إنما أراد رسول الله صلى الله
عليه وسلم الأنصار ، وأما الأنصار ، فيقولون : قد عم بها رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا عمرو ،
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم
فيهم ، فقال سعد : أخشى ألا أصيب فيهم حكم الله ، قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: احكم، فقال سعد بن معاذ ــ وقد اتجه

نحو الأوس ــ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أن الحكم فيهم كما حكمت؟ قالوا : نعم ، وعلى من هاهنا؟ في الناحية التي كان فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم،وهو معرض عن رسول الله إجلالا، فقال رسول الله : نعم . قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[1] ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار رملة بنت الحارث[2] من بني النجار ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة ، فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالا[3] وفيهم كعب بن أسد رأس القوم ، وحيي بن أخطب من بني النضير، وهو الذي حرض بني قريظة على نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد نزل معهم في حصونهم ، وكان عدد بني قريظة ستمائة أو سبعمائة ، وتقول بعض الروايات إنهم كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة .

---

(١) أرقعة : جمع رقيع وهو السماء .

(٢) رملة بنت الحارث : قد اختلف في نسبها وهي من بني النجار .

(٣) أرسالا : طائفة بعد أخرى .

وفاة سعد رضي الله عنه

فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه ، وقد كان برأ حتى مايرى منه شيء إلا مثل الخرص ، واستجاب الله دعوته . وقد شهد مصير بني قريظة وجعلها الله له شهادة ، وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقد ذكر الحمى: من كانت به فهي حظه من النار ، فسألها سعد بن معاذ ربه ، فلزمته فلم تفارقه حتى فارق الدنيا ، وأجابه الله على سؤاله ، وسمع دعاءه .

أعيد سعد إلى قبته التي ضربها له رسول الله ، فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، قالت عائشة رضي الله عنها : فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي من بكاء عمر وأنا في حجرتي ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس سعد ووضعه في حجره ، وسجي بثوب أبيض ، فقال رسول الله : اللهم إن سعدا قد جاهد في سبيلك ، وصدق رسولك ، وقضى الذي عليه ، فتقبل روحه بخير ماتقبلت به روحا ، فلما سمع سعد كلام رسول الله فتح عينيه ثم قال: السلام عليك يارسول الله ، أما إني أشهد أنك رسول الله ، ولما رأى أهل سعد أن رسول الله قد وضع رأسه في حجره ذعروا

واعتقدوا أن أجله قد حان ، وقال سعد : جزاك الله خيراً يارسول الله من سيد قوم ، فقد انجزت الله ماوعدته ، ولينجزنـك الله ما وعـــدك .

وقد روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض سعد بن معاذ من جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق ، فقال : يامحمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش ؟ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلـم يجر ثوبه إلى سعد ، فوجده قد مات .

وجاء بنو عبد الاشهل واحتملوا سعداً إلى ديارهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هنيئاً لـك أبا عمـرو ، هنيئا لك أبا عمرو ثم غسل ، وكانت أمه تبكي وتقول :

ويـل أم سعـد سعـدا ... صرامـة وحـدا
وسـؤدداً ومجـدا ... وفارسـا معـدا
سُـدَّ بـه مَسَـدّا ... يقـد هاماً قـدا

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مهلا أم سعد لاتذكري سعداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ .

وحمل الناس جنازته ، فوجدوا له خفة ، مع أنه كان رضي الله عنه رجلا جسيما ، فقالوا ذلك ، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : إن له حملة غيركم ، والذي نفسي بيـده ، لقـد استبشرت الملائكة بروح سعد ، واهتز له العرش ، ولما دفن سعد

الله أكبر . فكبر الناس لله ، فقالوا : يارسول الله ، لم سبحت ؟ قال : لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره ، حتى فرّجه الله عنه .

وروت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن للقبر لضمة لو كان أحد منها ناجياً لكان سعد بن معاذ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم سعد بن معاذ : ألا يرقأ دمعك ويذهب حزنك أن ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش ؟ . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب من حرير ، فجعل أصحابه يتعجبون من لينه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لمناديل سعد بن معاذ في الجنة ألين من هذا .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد حضر جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفاً من الملائكة نزلوا إلى الأرض لأول مرة ، وذكر من حضر قبره أن رائحة المسك كانت تفوح من ذلك التراب .

ودفن بالبقيع ، وكان عمره يومئذ سبعا وثلاثين سنة . وما كان أحد أشد فقدا على المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أو أحدهما من سعد بن معاذ .

وقضى سعد بن معاذ رضي الله شهيداً وقد صدق الله في كل أعماله فأثابه الله جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ونرجو من الله أن تكون دراسة هذا الصحابي الجليل أسوة حسنة لنا في أعمالنا وسلوكنا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الخاتمة

إن حياة الصحابي الجليل سعد بن معاذ رضي الله عنه لتبين أنه كان أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين امتازوا برجاحة عقلهم وعظيم ايمانهم وكبير ثقتهم بربهم ، ولم تكن أقواله مجرد كلمات يلقيها وإنما كانت تترجم إلى أعمال وأفعال تتم عن إخلاص كبير وإيمان عميق ، فإن الفكرة لا تؤخذ بالنظريات ومن صفحات الكتب وإنما من الرجال الذين يتمثلونها .

وإن قوة ايمانه قد جعلته يخلع كل رواسب الجاهلية دفعة واحدة ، ويأخذ الاسلام جملة واحدة عقيدة وعبادة وتشريعاً . وقد صقله هذا الاسلام بتربيته فكان سعد بن معاذ الذي عرفنا حياته رضي الله عنه .

ولقد كان قائد حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه بعض أبطال الأوس أمثال محمد بن مسلمة وعباد بن بشر رضي الله عنهما .

الفهرس

المقدمة	٣
هجرة القبائل اليمنية	٥
اليهود في يثرب	٨
الأوس والخزرج	١٠
البعثة المحمدية	١٣
إسلام سعد	١٥
عنصر الخير	٢١
نسب سعد	٢٥
صفات سعد	٢٧
الهجرة والمؤاخاة	٢٨
سعد في معركة بدر	٣١
سعد في معركة أحد	٣٩
سعد في غزوة بني المصطلق	٤٥
سعد في معركة الخندق	٤٧
سعد في غزوة بني قريظة	٥٥
وفاة سعد	٦٠
الخاتمة	٦٣

سعيد بن العاص

بطل الفتوح وكاتب المصحف

تأليف

محمد الصباغ

تجد عدداً من القصص والسير
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد فهذه رسالة موجزة في حياة علم من أعلام العهد الأول من العهود الزاهرة ، كنت قد نشرت أصلها منذ بضع سنوات ، ورأيت أن أخرجها الآن في رسالة ، رغبةً في أن تكون سيرة هذا البطل الفذ معروفة معلومة حتى تغدو قدوة للراغبين في الخير .

أسأل الله أن ينفع بها وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

بيروت في ٢ رجب ١٣٩١ هـ
٢٢ آب ١٩٧١ م

محمد بن لطفي الصباغ

سعيد بن العاص

١ ــ علم من أعلام الإسلام ، وشاب عظيم من شباب الصحابة ، ورجل المروءة الصادقة ، والشجاعة الخارقة ، والإباء الوافر ، والسخاء الكريم .

وما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رجالاً، آمنوا بالدعوة فانشرحت بها صدورهم ، واستنارت بها بصائرهم، وقويت بروحها عزائمهم وسواعدهم ، فانطلقوا في أرض الله يدكون عروش الفساد عرشاً عرشاً ، ويقضون على المظالم ويردون على الانسان كرامته التي سلبتها منه طواغيت البشر .

كان أمر هؤلاء الفتية عجباً من العجب ، ترى فيهم الصغير الحدث ، لكنه ليس كالصغار الأحداث ، لأن دعوة الله قد صنعته صنعاً جديداً وأشعرته أنه بهذه الدعوة أكبر من كل الناس الكافرين .

كان لسعيد عند موت النبي صلى الله عليه وسلم تسع سنين ومع ذلك فقد كان يعي ما يسمع أتم الوعي ، وروى بعض الأحاديث أخرج له مسلم في الصحيح وأبو داود والنسائي والبخاري في الأدب المفرد(١) ، وعدّه من الصحابة . وأود أن

(١) تقريب التهذيب والخلاصة للخزرجي .

أعرض حياة هذا الفتى نموذجاً لهذه الفئة المختارة ، لنرى فيها تأثير الإسلام في صنع الرجال .

٢ ــ نشأ سعيد في بيت عز ورفعة ، ينتسب إلى أمية ، وأمية في قريش معروفة المكانة ، سامية المنزلة ، كان لها المجد في الجاهلية ، وشاركت في حمل أعباء الدعوة في الاسلام ، وكان منها عثمان ذو النورين الذي ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجاً لابنته وقدم من التضحيات من أجل دعوته الشيء الكثير ، وما زال يجود بماله حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ارض عن عثمان فاني عنه راض ، ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » .

وانتشر الاسلام في ظل دولة أمية في أصقاع الأرض شرقاً وغرباً حتى شمل المد الاسلامي الدنيا المعمورة كلها .

٣ ــ وكان جده سعيد بن العاص ، ويكنى بأبي أحيحة ، رئيساً في قريش[١] يقال له : ذو التاج ، لأنه كان اذا اعتمّ لا يعتمّ أحدٌ يومئذ إعظاماً له . أما أبوه فقد كان من فرسان الجاهلية قدم إلى بدر مع الكفار وقتله عليّ بن أبي طالب ، ويقال : إن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص يوماً : مالي أراك معرضاً

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٨٣ .

عني كأنك تظن أني قتلت أباك . ما أنا قتلته . ولو قتلته ما اعتذرت من قتل مشرك ، ولكنني قتلت خالي بيدي العاص بن هشام .

فأجابه سعيد جواب المؤمن الصادق : يا أمير المؤمنين لو قتلته كنت على حق وكان على باطل[1] .

لقد أذاب الاسلام من سعيد كل عصبية ، ووضع من اعتباره كل علاقة . ولم يبق في تلك النفس الكريمة إلا رابطة الإيمان

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم[2]

أما أمه فهي أم كلثوم بنت عبد الله بن أبي قيس بن عمرو العامرية وهكذا اجتمع لسعيد طيب الأرومة وحسن المنبت قبيلة وجدوداً وأخواً لأم .

٤ ــ وبدت عليه مخايل النبوغ وأمارات التفوق . وسمت بسعيد مواهب نادرة . وخلال حميدة . ورعته مثالية ذاك الجيل فوفرت له أسباب السمو والمجد .

خالطت بشاشة الإسلام قلبه من نعومة أظفاره ، فلم يتدنس بشرك ، ولم يتلوث عقله بخرافة ، بل تقلب في ظلال تعاليم الإسلام ، وشب على المعاني الإسلامية وهي مهيمنة على الحياة ، وتلقى من مدرسة النبوة الدروس ... فتخرج منها بطلاً عظيماً خالداً .

وعاش يرى بأم عينه الحياة السامية النظيفة ، وذروة العدالة

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٠ وتهذيب ابن عساكر ج ٦ ص ١٣٢

(٢) البيت لنهار بن توسعة اليشكري .

الشريفة ، في عهد أبي بكر وعمر .

٥ ــ ثم رشحته مواهبه وإمكاناته إلى الولاية فكان من عمال عمر على السواد[١] وكان عمر يحبه ويسترضيه ويحقق له كثيرا مما يطلب[٢] .

٦ ــ ولما عزم عثمان على كتابة المصحف وجمعه جعله في عداد اللجنة التي وكل إليها هذه المهمة الجليلة : فكان من أبرز أعضائها لفصاحته وبلاغته .

قال ابن أبي داود في « المصاحف » :

حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز أن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] .

٧ ــ واستنابه عثمان على الكوفة ، فذهب إليها والياً : وكان ما يزال في أول الشباب ، ولم يلبث أن انتظم في جيوش الفتح الاسلامي الظافرة مقاتلاً باسلاً ، وفارساً شجاعاً ، وقائداً منصوراً ، وفتح طبرستان وجرجان[٤] .

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٨٣

(٢) طبقات ابن سعد

(٣) الخلاصة للخزرجي . والبداية والنهاية : والاصابة ج ٢ رقم الترجمة ٣٢٦٨ ، وانظر كتاب المصاحف لابن ابي داود ص ٢٤ تحقيق آثر جفري .

(٤) كل المصادر .

قال الاستاذ رفيق العظم في كتابه « أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة » ج ٤ ص ٧٢٤ :

[وأما طبرستان فقد كان فتحها على يدي سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة ٣٠ هـ ، وذلك أن سعيداً سار من الكوفة يريد خراسان بجيش فيه جماعة من الصحابة منهم حذيفة بن اليمان ، وفيه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم] .

ثم يتحدث الأستاذ رفيق العظم عن مراحل هذا الفتح ويذكر مآثر سعيد في البطولة والبلاء الحسن فيقول :

[وأتى جرجان فصالحه أهلها على مائتي ألف ، ثم أتى طميسة ــ وهي كلها من طبرستان ــ متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر الخزر أي بحر قزوين فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى صلى صلاة الخوف ، وضرب يومئذٍ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه ، وحاصرهم فسألوا الأمان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند ...]

وبذلك يكون قد كتب ــ رضي الله عنه ــ بعزيمته وعزمه ، وشجاعته وحزمه ، سطور المجد لأمة الاسلام، ورفع راية التوحيد في شرقي الدنيا المعمورة يومذاك ...

٨ ــ وعندما عاد الى الكوفة حدثت مناوشات بينه وبين أهلها انتهت به الى ترك الإمارات والعودة الى المدينة ، وظل في

المدينة مجاهداً صامتاً يحسن إلى البائسين . ويسنح المحتاجين .

ولم يزل بالمدينة حتى وثب الناس بعثمان فحصروه . فأقام سعيد معه في الدار يلزمه فيمن يلزمه . لم يفارقه أبداً ... وفي يوم من الأيام جاء سعيد إلى عثمان فقال : يا أمير المؤمنين إلى متى تمسك بأيدينا ! قد أكلنا أكلاً . هؤلاء القوم : فمنهم من قد رمانا بالنبل ... ومنهم من قد رمانا بالحجارة ... ومنهم من هو شاهر سيفه فمرنا بأمرك .

فأبى عليه عثمان . ولكن سعيداً خرج فقاتل قتال الأبطال ودافع عنه مدافعة الاشداء من الرجال ، وما زال كذلك حتى ضربه رجل يومئذ ضربة مأمومة فغشي عليه ...

وقتل عثمان رضي الله عنه ، واشتعلت نيران الفتنة الكبرى التي تجرع المسلمون غصصها دهوراً طويلة ، والتهمت بضراوتها أكبادهم ، وقامت الحروب الطاحنة بين عليّ ومعاوية ، فاعتزل سعيد الطرفين وخرج الى مكة ولم يشترك في صفين ولا في الجمل . جاء في طبقات بن سعد :

[لما خرج طلحة والزبير وعائشة من مكة يريدون البصرة خرج معهم سعيد بن العاص ومروان بن الحكم .. والمغيرة بن شعبة ، فلما نزلوا مرّ الظهران .. قام سعيد بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فان عثمان عاش في الدنيا حميداً

وخرج منها فقيداً ، وتوفي سعيداً شهيداً ، فضاعف الله حسناته ، وحط سيئاته ، ورفع درجاته مع الـذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحـين وحسن أولئك رفيقاً ، وقـد زعمتم أيها الناس أنكم إنما تخرجون تطلبون بدم عثمان ، فإن كنتم ذلك تريدون فإن قتلته على صدور هذه المطي وأعجازها فميلوا عليهم بأسيافكم وإلا فانصرفوا إلى منازلكم ، ولا تقتلوا في رضى المخلوقين أنفسكم ولا يغني الناس يوم القيامة شيئاً] .

فلم يرض مروان هذا الرأي ، وقبله المغيرة وتبعه ناس من هوازن ، ورجع سعيد بن العاص بمن اتبعه حتى نزل مكة ، فلم يزل بها حتى مضى الجمل وصفين .

ولا بد للمرء من أن يقف طويلاً أمام هذه الحادثـة مكبراً رجاحة عقل سعيد ، وسداد بصيرته ، وخوفه من الله ، فلقد ترك أموية جانباً لأنه لم يجد هذه الحرب في محلها ورأى أن عقيدته لا تقرها فما بالى بما سوى ذلك .

٩ ـ وعندما استتب الأمر لمعاوية ولاه المدينة وكان يعاقب بينه وبين مروان بن الحكم في ولايتـه ، ولقد حـاول بعضهم الإيقاع بينه وبين مروان ففوت عليه ذلك ، وكان لا يتكلم علـى مروان إلا خيراً[١] .

---

(١) انظر في ذلك الطبري ج ٥ ص ٢٩٣ و ص ٢٩٥ ط دار المعارف بمصر .

وتوفي رضي الله عنه في المدينة وله عشر من الولد ذكوراً وإناثاً وكانت إحدى زوجاته أم البنين بنت الحكم بن أبي العاصي أخت مروان بن الحكم[1] .

١٠ ــ تلك أحداث حياته ، وكانت كما رأينا حافلة بالأمور الجسام ، والمكرمات الباقيات . أما أخلاقه فلقد تجمعت في سعيد أكثر المثل التي يسعى وراءها كثير مــن الناس فــلا يحظون بما يريدون . ولنتقدم قبل ذكر أخلاقه نبذة يسيرة عن وصفه ولقبه ونسبه :

ــ كان رحمه الله شديد السمرة نحيفاً حتى وصفه الجاحظ فقــال :

[وكان أسود نحيفاً .. وقال الحطيئة :

سعيد فلا يغررك قلــة لحمه تمدد عنه اللحم فهو صليب[2]

ــ وكان يدعى ذا العصابة ، وهذا لقب لزعيم القوم الذي يتحمل مشكلاتهم ، [طلق خالد بن يزيد ابنته آمنة بنت سعيد فتزوجها الوليد بن عبد الملك فقال خالد فيها :

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٨٣ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣١٥
(٣) البيان ج ٣ ص ٩٩

كعاب أبوها ذو العصابة وابنه   وعثمان ما أكفاؤها بكثير](٣)

ـ وكنيته أبو عثمان وهــو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية .

ـ أما أوصافه المعنوية فقد كان الرجـل مؤمناً ، مجاهداً بطلاً ، فصيحاً ، كريماً ، عاقلاً .

١١ ـ كان سعيد من أعمق الناس إيمانا يدلك على ذلــك موقفان مما مرّ معنا آنفا .

أما أولهما : فموقفه من مقتل أبيه ، ونحن تعلم مكانة الدم عند العرب .. كم قامت في الجاهلية حروب طاحنة من أجل دم سفك أراد صاحبه أن يثأر لنفسه .

ولكن الإسلام أبطل هــذه العصبية وجعل سعيداً يقــول لعمر : يا أمير المؤمنين لو قتلته كنت على حق وكان على باطل .

وثانيهما : اعتزاله الفتنة وقد مرت معنا خطبته في بيان رأيه في هذا الموضوع .

لقد حلّ الاسلام في قلب سعيد وملاه ولم يعد فيه مكــان لعاطفة أبوية ، ولا لرابطة قبلية وإن كان المجتمع الحديث العهد بالجاهلية في ذلك الحين يقوم على هاتين الدعامتين .

وهذا الامتحان عسير ، قلّ أن تجد فيه الناجين .

١٢ – وكان سعيد مجاهداً بطلاً ، أكتفي للتدليل على ذلك بالإيماء إلى أمرين أيضاً ، تحدثنا عنهما في أحداث حياته .

أول هذين الأمرين : الفتوح العظيمة التي استطاع أن يحققها وكيف كان يجوب المنطقة الشرقية كلها وينشر فيها كلمة التوحيد لا يهاب قوة ، ولا ترده عقبة .

والأمر الثاني موقفه الشجاع يوم الحصار . فلقد ضمّ سعيد في ذلك الموقف الوفاء إلى الشجاعة ، وخاطر بحياته . وتلقى الأذى والجراح .

وكانت شجاعته مربوطة بعقيدته ، فلا تجدها وحدها ، كما حدث لكثير من الشجعان في الزلات التي يتعرضون لها .

فاذا حمي الوطيس في الفتوح وجدته المجليّ المقدام ، وإذا تأزم الوضع ، وغلت نيران الثورة الباطلة على الإمام الصادق ألفيته هناك مقاتلاً شجاعاً لا يبالي بحياته لاحقاق الحق وإزهاق الباطل ، أما إذا كانت المعركة تشوبها الشكوك والشبهات انسحب منها وحمل غيره على الانسحاب .

وهذه شجاعة أصحاب العقيدة .

١٣ – وكان سعيد فصيحاً بليغاً خطيباً وبحسبه فخراً أن تكون عربية القرآن قد أقيمت على لسانه ، ويا له من وصف

رائع ذاك الذي ذكره مترجموه « كان أشبه الصحابة لهجة برسول الله » قال الجاحظ في « البيان والتبيين » :

[ومن الخطباء سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية . قيل لسعيد بن المسيب : من أبلغ الناس ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل : ليس عن هذا نسألك . قال : معاوية وابنه وسعيد وابنه .

وما كان ابن الزبير دونهم ، ولكن لم يكن لكلامه طلاوة. فمن العجب أن ابن الزبير قد ملأ دفاتر العلماء كلاماً وهم لايحفظون لسعيد بن العاص وابنه من الكلام إلا مالا بال له][1]

١٤ ـ وأما عن جوده فحدث ولا حرج ، فعن ابن عمر قال : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ببردة فقالت : إني نذرت أن أعطي هذه البردة لأكرم العرب . فقال : « أعطيها لهذا الغلام » وهو واقف ـ يعني سعيد بن العاص ـ [2] .

كان كثيراً ما يجمع أصحابه يوم الجمعة فيطعمهم ويكسوهم الحلل ، ويرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبر الكثير ، وكان يصر الصرر فيضعها بين يدي المصلين من ذوي الحاجات في المسجد[3] .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣١٤
(٢) الاصابة ج ٢ رقم الترجمة ٣٢٦٨
(٣) البداية والنهاية .

وله قصص رائعة في الكرم قلّ أن تجد لها نظيراً فمن ذلك:
أن رجلا من العلماء أصابته فاقة شديدة ، وافتقر حتى لم يعد يجد شيئاً يأكله ، فقالت له امرأته : إن أميرنا هذا يوصف بكرم فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشيء .

ولكن العلماء كانوا ذوي نفوس عفيفة أبية ، فصعب عليه الأمر ، ورآه كبيراً لايقوى عليه ويهون بجانبه الجوع والموت فقال لها : ويحك لاتحلقي وجهي .

وألحت عليه في ذلك ، وما زالت تلح حتى جاء إلى مجلس الأمير ، فلما انصرف الناس عنه مكث الرجل جالساً في مكانه ، وخانه لسانه فما عاد يتحرك ، وجف ريقه ، ولم يقو على السؤال .

أدرك الأمير ذلك من الرجل فقال لغلمانه : انصرفوا ، ثم قال : لم يبق غيري وغيرك فماذا تريد ؟

وهمّ بالكلام لكن نظراته زاغت ، والكلام الذي زوّره في نفسه تبدد ولم يستطع أن يسأل .. فظل ساكتاً ، فقام سعيد إلى المصباح فأطفأه ثم قال : رحمــك الله لست ترى وجهي فــاذكر حاجتك .

فقال : أصلح الله الأمير أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت فقال له : إذا أصبحت فالق وكيلي فلاناً .

فلما أصبح الرجل لقي الوكيل ، فقال له الوكيل : إن الأمير قد أمر لك بشيء فأت بمن يحمله معك .

فقال : ما عندي من يحمله ، ثم انصرف الرجل إلى امرأته يلومها ويعنفها قائلاً : حملتني على بذل وجهي للأمير ، فقد أمر لي بشيء يحتاج إلى من يحمله ، وما أراه أمر لي إلا بدقيق أو طعام ولو كان مالاً لما احتاج إلى من يحمله ولأعطانيه .

فقالت له زوجته : مهما أعطاك فخذ ، فإنه يقوتنا ، ونحن جياع ولم يعبأ الزوج هذه المرة برغبة زوجته وسخط عليها .. فما لبث أن جاءه الوكيل وقال : إني أخبرت الأمير أنه ليس لك أحد يحمله ، وقد أرسل بهؤلاء الثلاثة السودان يحملونه معك .

فذهب الرجل وجاء بما أمر له الأمير ، ولما وصل إلى منزله إذا على رأس كل واحد منهم عشرة آلاف درهم . فقال للغلمان ضعوا ما معكم وانصرفوا . فقالوا : إن الأمير قد أطلقنا لك فإنه ما بعث مع خادم هدية إلى أحد إلا كان الخادم الذي يحملها من جملتها[1] .

ـ وسأل أعرابي سعيد بن العاص فأمر له بخمسمائة . فقال الخادم : خمسمائة درهم أو دينار . فقال : إنما أمرتك

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٨٥

بخمسمائة درهم وإذ قد جاش في نفسك أنها دنانير فادفع إليه خمسمائة دينار .

فلما قبضها الأعرابي جلس يبكي . فقال له : مالك ؟ ألم تقبض نوالك ؟ قال : بلى والله ! ولكن أبكي على الأرض كيف تأكل مثلك[1] .

قال سفيان بن عيينة : كان سعيد بن العاص إذا أتاه سائل فلم يك عنده ما سأل قال : اكتب عليّ بمسألتك سجلاً الى أيام يسري[2] وقد ركبته من أجل ذلك ديون كثيرة حتى اضطر ولده عمرو أن يبيع داره الشهيرة بالقصر ليقضي ديون أبيه .

لما حضرت سعيد بن العاص الوفاة في قصره قال لابنه عمرو: إذا أنا متّ فاعلم قومي ، فإذا واريتني فانطلق إلى معاوية فانعني له ، وانظر في ديني ، واعلم أنه سيعرض عليك قضاءه فلا تقبل واعرض عليه قصري هذا . فلما مات آذن به الناس فحملوه من قصره حتى دفن بالبقيع ، ورواحل عمرو بن سعيد مناخة استعداداً للسفر .

فعزاه الناس على قبره ، وودعوه ، فارتحل إلى الشام ، وكان هو أول من نعى أباه لمعاوية ، فتوجع معاوية له وترحم عليه

(١) المصدر نفسه ج ٨ ص ٨٦
(٢) عيون الأخبار ١ : ٣٣٧

ثم قال : هل ترك ديناً ؟ قال عمرو : نعم . قال : كم هو ؟ قال : ثلاثمائة ألف درهم . قال معاوية : هي عليّ . قال عمرو : قد ظن ذلك . وأمرني ألا أقبله منك ، وان أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه فيكون قضاء دينه منه . قال معاوية : فاعرض عليّ . قال : فعرضه بالعرصة . فقبل معاوية وقال : قد أخذته بدينه . قال عمرو : هو لك على أن تحمل ثمنه إلى المدينة وتجعلها بالوافية [والدرهم الوافي أكثر من درهم ونصف ، إذ هو درهم وأربعة دوانق . والدانق سدس الدرهم] .

قال معاوية : نعم ، فحملها له إلى المدينة .

وشرع عمرو يفرقها في غرمائه ، وكان أكثرها عطايا وعد بها عندما كان يُسأل ولا يجد ما يعطيه للسائل . وأتى في عداد الغرماء شاب صعلوك من صعاليك قريش بصك فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه وشهادة مولى له عليه . فاستغرب عمرو هذا الصك ، وأرسل إلى المولى فأقرأه الصك ، فلما قرأه بكى ، وقال : نعم ، هذا خطه وهذه شهادتي عليه .

فقال له عمرو : من أين يكون لهذا الفتى على أبي عشرون ألف درهم وإنما هو صعلوك من صعاليك قريش ؟

قال : أخبرك عنه ، فاسمع قصته :

مر سعيد بعد عزله ، فاعترض له هذا الفتى ومشى معه حتى صار إلى منزله ، فوقف له سعيد فقال : ألك حاجة ؟ قال : لا ، إلا أني رأيتك تمشي وحدك فأحببت أن أصل جناحك .

فقال سعيد لي : ئتني بصحيفة . فأتيته بهذه . فكتب على نفسه هذا الدين وقال : إنك لم تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا ، فإذا جاء شيء فأتنا .

فقال عمرو : لاجرم ، والله لا يأخذها إلا بالوافية . ودفع إليه عشرين ألف درهم وافية[1] .

لقد كان سعيد يأبى أن يكون كرمه مقصوراً على حياته .. بل يريد أن يستمر بعد مماته ، ومن هنا أبى أن يتولى معاوية قضاء دينه ، ويؤيد هذا ما جاء في وصيته حيث قال لبنيه لما حضرته الوفاة :

« لايفقدن أصحابي غير وجهي . وصلوهم بما كنت أصلهم به ، وأجروا عليهم ما كنت أجري عليهم . واكفوهم مؤونة الطلب فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه وارتعدت فرائصه مخافة أن يرد . فوالله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعاً لحاجته أعظم منه عليكم مما تعطونه »[2] .

---

(١) الأغاني ج ١

(٢) البداية والنهاية .

١٢ ـ هذا غيض من فيض من أخبار هذا الرجل العظيم وما أجمل قول الفرزدق فيه :

ترى الشم الجحاجح من قريش
إذا ما الأمر في الحدثان عالا

قياماً ينظرون إلى سعيد
كأنهم يرون به هلالا

وقال معاوية : كريمة قريش سعيد بن العاص

رحمك الله أبا عثمان ، ورضي عنك . وجزاك عن الاسلام خيراً فأنت معدن الكرم وأبو المروءة وصاحب الراية وذو المصابة .

ـ إن سعيد بن العاص صورة حية رائعة لشباب ذاك العصر ورجاله وما أحوجنا إلى مثل هذه النماذج في أيام المحنة وساعة العسرة التي تجتازها أمتنا اليوم .

علينا أن نستأنف الحياة الاسلامية الفاضلة الزاخرة بأمثال هذه الطاقات . فهي وحدها سبيل النجاة وطريق الخلاص .

« لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ألا وهو الدين »

عظماء مجهولون

٦

تجد عددا من قصص وسير الصحابة
رضوان الله عليهم
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

سهيل بن عمرو

رضي الله عنه

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ ـ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ـ برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ ـ هاتف ١١١٦٣٧ ـ برقياً: اسلامي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : فإن أكثر زعماء قريش الذين كانوا وقت ظهور الإسلام قد وقفوا في وجه الدعوة ، ولكن من أسلم منهم قد ارتفع اسمه وطارت شهرته، وهو لايريد ذلك ، ومن أبى واستكبر ، وأصرّ على وثنيته وكفره فقد غدا في عداد المغمورين مهما كان مركزه ، وهو يريد الزعامة ، ويسعى لها .

وعندما جاء فتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ودان بالإسلام من بقي من الزعماء حتى تلك الآونة ، وقد أطلق على أولئك المسلمين الجدد اسم « الطلقاء » بعد أن قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، كان حظ الأعيان منهم في الظهور قليلاً بسبب تأخرهم في الإسلام إذ فاتهم الركب حيث كان الموكب الإسلامي قد انطلق ولمع رجاله وارتفع ذكر أبنائه حتى الذين كان الوجهاء يرفضون اللقاء بهم والاجتماع معهم، ومن هؤلاء الأعيان الطلقاء سهيل بن عمرو الذي أسلم ابناه

والوجيه بينهم والرئيس عليهم .. إلا أنه لما أسلم لم يـ
يرغب ما كان يتمناه في الجاهلية من الشهرة وعلو المكانة ... ومع ذلك حفظ له الإسلام شيئاً من المعرفة والذكر ، ولولا دخوله في الإسلام لضاع فيمن ضاع ونسي كما نسي غيره أمثال أولئك الزعماء الذين مات اسمهم بموتهم وزالت شهرتهم بزوالهم وفني مجدهم بفنائهم وإذا حفظ التاريخ لنا بعض الأسماء فإنما لكون أصحابها أئمة الكفر ، ويعرف الأمر بنقيضه ، والعمل بضده .

والله نسأل الجنة وما يقرّبنا إليها من قول وعمل ، ونعوذ به من النار وما يقربنا إليها من قول وعمل ، كما نطلب منه جلّ شأنه سداد الخطا ، والقول الحق ، والنجاح في الآخرة ، وأن تكون أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

❊ ❊ ❊

سهيل بن عمرو

رضي الله عنه

هو أبو يزيد ، سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسن بن عامر . وبنو عامر أحد بطـون قريش الأثنى عشر المعروفة ، والتي امتازت بالشجاعة ، وعرفت بالحكمة ، ولعلّ أشهر رجالهم البارزين وقت ظهور الإسلام هو سهيل بن عمرو هذا ، وقد اشتهر بالثبات والخطابة حتى عدّ خطيب قريش المفوّه ، والناطق باسمها في الملمات .

١- في الجاهلية

شع نور الإسلام في مكة ، ووصلت أشعته إلى كل بيوتات قريش تقريباً ، ودخل سنا من شعاعه إلى ديار بني عامر ، فأسلم إخوة سهيل وهم : سليط والسكران وحاطب . وأسلم ولده عبد الله ، وأسلمت ابنتاه سهلة زوج أبي حذيفة بن عتبة ، وأم كلثوم زوج ابن عمه أبي سبرة بن أبي رُهم ، وأسلمت ابنة عمه سودة بنت زمعة زوجة أخيه السكران ، وابن عمه أبو سبرة بن أبي رهم ، وختنه أبو حذيفة بن عتبة ، وعدد من بني عامر ، ولكن سهيلاً أصر على ما هو عليه من الوثنية والشرك ، واستكبر ، وحاول أن يقف في وجه إخوته ، ولكن أبى له ، وهم الأكثر عدداً ، وما كان له إلا أن يسكت على مضض ، مكرهاً ، وبخاصة أنه أحد رجال بني عامر المعدودين ، وأحد الزعماء المشهورين . فوقف بجانب وجهاء مكة يذودون عن آلهتهم من اللات والعزى ، وهم سدنتها ، يحمونها ، وهم عبدتها ، ويدافعون عن الباطل ، ويقفون في وجه الحق خوفاً على مصالحهم ، إذ أن في انتشار الإسلام وأد لتلك الآلهة من الأصنام ، وخلاص من العبودية لها ، وقضاء على تلك الزعامات من الطواغيت ، وانتهاء من أهواء نفوس الظالمين وتحقيق رغباتها بما تشتهي دون أن يقف أحد في طريقها ، وتخلص

من الربا التي أثرت منها بعض الرجالات فعاثت الفساد بثرائهـا ، وداست على الانسانية بغناها ، كما في انتشار الاسلام تخلّص من أولئك الصعاليك الذين أقضوا مضاجع الآمنين لفقرهم وبؤسهم الأمر الذي نبذتهم منها القبيلة ، ولفظهم المجتمع •

وبدأ ضغط المشركين على مـن أسلم من ذويهم ليبقى الغني على تفوذه ، وليستمر الصعلوك في تسلطه ، ونال بعض آل عامر ما نالهم من أذى سهيل ، حتى إذا ضاق المسلمون ذرعاً بما حلّ بهم من الأذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوجه نحو الحبشة حيث فيها حاكم لا يظلم عنده أحد •

سار الموكب الإسلامي إلى الحبشة ، وفيه أخـوه حاطب ، وكان أول مـن وصل إليها من المسلمين ، كما كان في هذا الموكب أخواه سليط ، والسكران مع زوجه سودة بنت زمعة ، وفيه ابنه عبد الله ، وأبناء عمومته أبـو سبرة بن أبي رُهم ، وعبد الله بن مخرمة ، ومالك بن زمعة مع زوجه ابنة عمرة عمه بنت السعدى ، وفيه ابنتاه سهلة ،وأم كلثوم ، وصهره أبو حذيفة •

ما لبث أن عاد بعض مهـاجري الحبشة ، وفيهم أكثر بني عامر ، فلما رجعوا إلـى موطنهم قبض سهيل على ابنه عبد الله ، وحبسه ، وأوثقـه عنده ، وفتنه عـن دينه ، حتى كان يوم بدر ، فأسر سهيل بن عمرو يومذاك ، الأمر الذي جعل عبـد الله يخرج مهاجراً ، حيث شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهـد كلها التي وقعت بعد بدر •

في الليل .

واشتد أذى قريش على من أسلم منهم ، ولكن الإسلام كان قد بدأ ينتشر في يثرب ، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه أن يتوجهوا إلى يثرب ، ثم لحقهم عليه الصلاة والسلام مهاجراً ، وهناك تأسست الدولة الإسلامية الأولى ، وبدأت تعمل على اثبات كيانها ، فصارت تعترض طريق قوافل قريش إلى الشام ، إلى أن كانت غزوة بدر الكبرى بين الجانبين ، وكانت فرقاناً بين الحق والباطل ، إذ قتل فيها كبار المشركين وطغاة الكفر أمثال أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة، وحنظلة بن أبي سفيان، كما أسر بعض صناديدهم ومنهم سهيل بن عمرو ، وقد أسره مالك بن الدخشم .

ودفن القتلى ، وسيق الأسرى إلى المدينة ، وقال سهيل بن عمرو يومذاك معللاً أسره ، ومعتذراً عما تمّ له « رأيت رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين ، يقتلون ، ويأسرون » . ومع هذا الذي رآه ، وأيقن بأنه من عند الله ... إلا أن الكفر لم يزل يملأ جوانحه ، فأصرّ واستكبر ، ولكنه أسير .

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يفعله بالأسرى ، فرأى أبو بكر رضي الله عنه أن يعفو عنهم ، وأيده بعض الصحابة ، ورأى عمر بن الخطاب أن يقتلهم بل اقترح أن

وغيرهما . ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأي أبي بكر ، يقتل كل رجل أقرب الناس إليه حتى يعلم الخلق جميعاً أنه لاصلة بين المسلم والكافر أبداً ، فكل وشائج القربى وصلات الرحم تزول أمام العقيدة ، وأيده سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة وبدأ يقبل فداء الأسرى .

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرة سهيلاً في الأسر ، فنظر إليه ، وتذكر مواقفه في عداء الإسلام ، فقال عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو ، فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً . فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أمثل به فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً ، ثم أضاف : إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمه .

وجاء مكرز بن حفص في فداء سهيل ، واتفق مع المسلمين على مال يؤديه سهيل ، فعندما طالبوه بالدفع ، قال مكرز : اجعلوا رجلي مكان رجله ، وخلّوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه ، فخلّوا سبيل سهيل ، وحبسوا مكرزاً مكانه عندهم ، وعندما وصل سهيل إلى مكة أرسل الفداء ، وأطلق سراح مكرز .

ومرت الأيام بعضها إثر بعض ، وقوة المسلمين في تزايد ، ووضع المشركين في تراجع ، وهم يحاولون تجميع القبائل ، وتحزيب الأحزاب ، ويهود من ورائهم تحرّض الناس ، وتثير الفتن ، وكانت غزوة أحد ، ونالت قريش من المسلمين ، ولكنها لم تحرز النصر الذي تريد ، إلا أن ذلك قد أطمع الأعراب في

ولا [illegible] لهم عزيمة ، وإنما استمروا في [illegible] وجهادهم.

ثم كانت غزوة الأحزاب التي جمعت لها قريش كـل طاقاتها ، والأعراب كل امكاناتهم ، ويهود كل مكرهم ، وكانت النتيجة أن فشل الجميع ، ونصر الله عباده المؤمنين . وكانت هذه المعركة آخر سهم للمشركين إذ تفرقت كلمتهم فيما بعد ، وخفدت شوكتهم ، على حين كانت بدءاً لتوسع المسلمين وازدياد نشاطهم .

في الحديبية :

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزور البيت الحرام ، وقد زاد إليه شوقه ، فقـد مضى على فراقـه له سنوات ست ، وطلب من المسلمين أن يتأهبوا لذلك بعد أن رأى في منامه مارأى .

انطلق الركب الإسلامي يتحرك نحو مكـة بإمرة الرسول الكريم ، وقد ساق الهدي أمامـه ، وأحرم بالعمرة ، وأغمـدت السيوف ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائـراً للبيت ، ومعظماً له . انطلق الركب بانقياد تام لنبيهم عليه الصلاة والسلام وبخشوع عام لله جلّ شأنه .

وعلمت قريش بمسير المسلمين ، فاستعدت لذلك ، واجتمعت بذي طوى شمال مكة ، وقد عاهـدت الله ألا يدخلها المسلمون أبداً ، على حين أنها كانت مفتوحة لمن أراد مـن العرب أن يأتي معتمراً زائراً معظماً ، ولكنها لا تسمح للمسلمين أبداً ، لقد أكلت

الحرب قريشاً ، فدفعت خالد بن الوليد ــ وكان لا يزال على شركه ــ بالخيل أمامها . ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان من قريش ، انعطف نحو اليمين حتى لا يصطدم بخالد أو بأحد ؛ فالمسلمون محرمون ، وما جاءوا للقتال . واستمر في سيره حتى نزل الحديبية ، وقد بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت القصواء ، فقال عليه الصلاة والسلام : ماخلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

وجاءت رسل قريش الواحد تلو الآخر ، وكلهم يتأكد أن المسلمين ما جاءوا إلا زائرين ، ومع ذلك فإن قريشاً قد أصرّت على منعهم ، وقالت : لا يمكنهم أن يدخلوا مكة علينا عنوة فتتحدث العرب بذلك .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً من قبله الى قريش ، فعقروا به جمله ، وأرادوا قتله . وقبض المسلمون على خمسين رجلاً أتوا من قبل قريش ليصيبوا من المسلمين ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلّى سبيلهم ، ثم بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش ليخبرها أن رسول الله ما جاء إلا زائراً للبيت ومعظماً ، وانتشر خبر بين المسلمين مفاده أن عثمان رضي اللهعنهقدقتل،ولما وصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لانبرح حتى نناجز القوم ، وبايع الصحابة بيعة الرضوان ، ثم انجلى الخبر ، وتبيّن أن عثمان حي .

له : ائت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع هــذا العام عن مكة دون أن يدخلها .

جاء سهيل ، وقــال أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطال القول ، ثم جرى بينهما الصلح ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم .
فكتبها علي .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب : هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب : اسمك واسم أبيك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب : هذا ما صالح عليه محمــد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحــا على وضــع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهــم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه ، وإن بيننــا عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخــل في عقــد

قريش وعهدهم دخل فيه . فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم . وأنك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً . معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكون في الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا مارأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون ، فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه ، وأخذ بتلبيبه ، ثم قال : يامحمد ، قد لجّت القضية بيني وبينك ، قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت ، فجعل ينتره بتلبيبه ، ويجرّه ليردّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أأردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً

ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم . فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ، ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، قال : فضنّ[٣] الرجل بأبيه . ونفذت القضية .

وكان عبد الله بن سهيل بن عمرو ممن شهد على الصلح ، وكان مع المسلمين .

وتوسع انتشار الاسلام ، وفتحت خيبر ، وانتهت جبهة اليهود ومؤامراتهم ، ونازل المسلمون الروم في مؤتة ، وأمنوا مكرهم .

ونقضت قريش ما عاهدت عليه في الحديبية ، ودعمت بني بكر ، وشجعتها على قتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت وفودها إلى المدينة ، فوعدها رسول الله خيراً .

٢ ـ في الإسلام

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة فاتحاً ، ومعه جيشه اللجب الذي يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، وكان قدا سبقه إليها أبو سفيان بعد إسلامه ، وصرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراءه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا أنه قد عهد إلى نفر سمّاهم ، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة .

فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت ، فطاف به سبعاً على راحلته ، فلما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، فدخلها ، وحطّم الأصنام ... ثم وقف على باب الكعبة فقال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال تدعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج » .

يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظّمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ..

وهنا وقف خطيب قريش سهيل بن عمرو رضي الله عنه ، وقد تمثلت له صورة الرجل المسلم ، مع ما في ذهنه من أعمال قريش ووقوفها أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعنتها ، وكفرها ، وقتالها وتعذيبها لأولئك النفر من المسلمين الأوائل ، فقال ــ وهو الواثق برسول خيراً ــ أخ كريم ، وابن أخ كريم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أقول لكم كما قال أخي يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم ، يغفر الله لكم ، ثم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وفتحت مكة ، ودخل أهلها في الإسلام ، دخلوا بصور وأشكال مختلفة ، منهم من بدا لهم الحق واضحاً جلياً فأسلم ، وهو الغالب ، ومنهم من رأى الناس قد أسلموا فخضع ، ومنهم ما كان دون ذلك لم تتوضح له الطريق بعد فأبى واستكبر ، وأصرّ على ما هو عليه من الوثنية والشرك ، وخرج من مكة مغاضباً ، وظنّ أن لن يقدر عليه المسلمون ، فإذا به يأتي مسلماً من بعد ما رأى الآيات أثناء فراره فعاد ، وقد رأى العفو والإكرام .

أما سهيل بن عمرو فقد اختفى بعد أن حضر خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم العامة في المسجد ، إذ خاف من تمسه ألا تصبر ، وجاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يارسول الله ، تؤمنه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم هو آمن بأمان الله ، فليظهر ، ثم قال رسول الله لمن حوله : من رأى

سهيل بن عمرو فلا يشد إليه النظر ، فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف .

ثم إن الحجب أزيلت عنه تماماً ، الحجب كلها التي كانت تحول بينه وبين النور ، وفتحت المنافذ كل المنافذ التي بينه وبين العالم الخارجي ، ودخل منها النور بصورة قوية فجلا كل ما كان قد ران على قلبه ، وظهر كل شيء على حقيقته ، وخرج سهيل من جلده جديداً ، فألقى ما كان يحمل على د من مكة ، ونفسه تعافه، وابتعد عنه ، وسار في ركب المسلمين .

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو هوزان وثقيف اللتين اجتمع أفرادهما لغزو المسلمين ، وسار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمو مكة الجدد ، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات في حنين لمفاجئة العدو لهم ، ولكثرة عدده ، ولعجبهم بزيادة عددهم التي لم تغن عنهم شيئاً ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فولوا مدبرين ، إلا أنهم لم يلبثوا أن ثابوا إلى رشدهم ، بعد أن سمعوا صوت العباس بن عبد المطلب يناديهم للالتفاف حول نبيهم ، فرجعوا ، وصمدوا ، وانتصروا على عدوهم ، وأخذوا الغنائم الكثيرة ، فجمعت في منطقة الجعرانة ، ولم انته حصار الطائف وزع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الغنائم ، فأعطى وجهاء المسلمين الجدد ، والمؤلفة قلوبهم العدد الوفير ، على حين ترك الأنصار دون عطاء معتمداً على إيمانهم ، وكان سهيل بن عمرو رضي الله عنه من أولئك الزعماء الذين أخذ كل واحد منهم مائة بعير .

لم يطل فيها ، إذ عاد إلى مهجره بالمدينة مع أصحابه المهاجرين والأنصار ، وبقي سهيل بمكة ثم انتقل الى المدينة وسكنها ، ولم تمض إلا أشهر قليلة حتى جاء خبر انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وترك مسؤولية الدعوة ومهمة الجهاد إلى المسلمين أنفسهم ، يتصرفون كما يشاءون معتمدين على ما تركه لهم : كتاب الله وسنة نبيه .

وارتدت أكثر العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم باستثناء مكة والمدينة والطائف ، بعضهم من امتنع عن دفع الزكاة وعدّها ضريبة يقدمها لقريش ، وبعضهم من عدّ الاسلام دين قريش ، وقد خضع له بالقوة أيام محمد ، وقد مات محمد ، وعليهم الآن أن يتحرروا من هذا الخضوع ، ومنهم من ثارت عندهم العصبية الجاهلية ، وأخذتهم الحمية ، فرؤوا أن يستقلوا بقبائلهم ، وقد داستهوتهم النبوة فادعاها عدد من زعماء القبائل .

وفي مكة همّ كثير من أهلها بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك ، حتى خافهم عتّاب بن أسيد والي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر على مكة ، فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو رضي الله عنه فخطب الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه . فتراجع الناس وكفوا عما هموا . ولعل هذا الموقف الذي أراده رسول الله صلى الله عليه عندما أجاب عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه «لعله يقوم مقاماً لا تردّه عليه» • وكانت خطبته قريبة من خطبة أبي بكر الصديق يومذاك رضي الله عنه •

ونظر سهيل بن عمرو إلى ماضيه وما فيه من مواقف ضد الإسلام . فندم على ما كان منه ، وأخذه الخوف الشديد من الله ، فقال : « والله لا أدع موقفاً وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله، ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا أنفقت على المسلمين مثلها لعل أمري أن يتلو بعضه بعضاً » •

ووقف المهاجرون والأنصار على باب أمير المؤمنين ، يأذن لهم على قدر منازلهم ، ومعهم جماعة من الطلقاء من أهل مكة بينهم سهيل بن عمرو ، فنظر بعضهم إلى بعض ، كأنهم شعروا أن أمير المؤمنين لم يرع لهم حقهم ، ولم يحفظ لهم مركزهم ، فقال لهم سهيل رضي الله عنه : على أنفسكم فاغضبوا ! ، دعي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعيتم إلى أبواب الجنة•وهكذا فقد كان يرى أفضلية السابقين في الإسلام مهما كان وضعهم الاجتماعي فبلال وصهيب وعمار أفضل من أبي سفيان وعكرمة وصفوان وسهيل بن عمرو مع أنه كان في الجاهلية يرى هؤلاء أدنى من أن يجلس معهم ••• لقد خلع من نفسه يوم أسلم كل ما علق فيها من آثار الجاهلية ، وألقاها بعيداً عن فكره ، وعن ذاته ، وعن كل ما يتعلق فيه •

ووقف مرة يتأمل بماذا يكفر عن جاهليته ومواقفه التي سبق أن وقفها ، وتداعى إلى ذهنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

غدت مكة دار للإسلام ، فلماذا الهجرة ؟ إذن الجهاد وحده وسيلة التكفير عن السابقة . وتذكر « مقام أحدكم في سبيل الله ساعة من عمره خير عمله عمره في أهله » . فقال سهيل رضي الله عنه : « فإني أرابط حتى أموت ولا أرجع إلى مكة » وبالفعل فقد سار الجهاد . ولم يزل مقيماً بالشام حتى توفي على أغلب الظن في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة من الهجرة .

وانطلقت كتائب المسلمين في كل جهات الأرض ، فانخرط في صفوفها بين الرجال بشكل هادىء ، وكأنه لا يريد أن يعرف ، لا يريد أن يعرف خجلاً بماضيه ، لا يريد أن يعرف حتى يبلو في القتال دون ذكر ، لا يريد أن يعرف حتى لا يراه الشباب ، وهو الشيخ ، فيقدمونه ، لا يريد أن يعرف وهو رجل القيادة ، وصاحب الزعامة ، وأهل الوجاهة .

كان الجيش إلى الشام يستعد ، وقد سبقه سهيل في الاستعداد . ووقف ينتظر ، ولكن نفسه قد سبقته إلى المعركة ، من نظر إليه يراه يتحفز . ويتحرك بجسمه كله ، وكأنه في أرض المعركة . يريد أن يثب إلى العدو يصاوله قبل أن يتحرك إلى الجيش . يرغب في الحصول على الشهادة أو الشهادة ترغب في استقباله .

يتقدم الجيش ببطء وتؤدة ، ويريد هو أن يخطو خطوات سريعة . ولكن يوقفه الايمان بالالتزام . ويحد من سيره النظام

فتهدأ نفسه ، ويعود إلى دنيا حقيقته جندياً مطيعاً .

ويلتقي الجيشان ، جيش الكفر يحمل وجوهاً صفراً رأت الموت ، وقد سيقت إليه قسراً ، وحملت إلى الحرب قهراً ، وجيش الايمان يحمل وجوهاً متوردة تريد أن تستقبل الموت لتظفر بالشهادة ، وقد اندفعت إليه اندفاعاً ، أو لتحصل على النصر ، وقد جاءت تسعى إليه لترفع راية الاسلام ، ويريد سهيل أن يسارع العدو ، ويبدأ بالطعان ، ولكن لابدّ من اتباع طريقة الإسلام في الحروب ، فلا قتال حتى تعرض على الاعداء عروض المسلمين وهي الاسلام وعندئذ يصبح الجميع إخوة في الله ، ويرجع المسلمون عنهم ، ويدعم بعضهم بعضاً : وإما أن يقبلوا بدفع الجزية ، وعندها يكون من واجب المسلمين حماية الذميين ، هؤلاء الذين أصبحوا في ذمة ـ عهد ـ الله ورسوله ، وإما السيف حتى يحكم الله بين الفريقين . وما يختار العدو الأمر الأخير إلا ويقع في نفس سهيل الموقع الحسن ، يريد أن يبدأ القتال ، ولكن ليس هو القائد ، والقتال لا يكون إلا برأي القائد وأوامره ، فإذا ما بدأ الاشتباك لم تعد تستطيع رؤية سهيل ، فهو ينتقل بين الصفوف ، ويجالد الابطال ، ويتقدم إلى الكتائب فتبتعد من أمامه الرجال وتخافه وهي التي لم تعرف الخوف ، ويتقدم بين الاعداء ، ويخوض بين صفوفهم لا يرده إلا أمر من قائد أو طلب من أمير أو إعلان الاستسلام وإنهاء القتال .

وخاض سهيل معارك كثيرة ينتقل من واحدة إلى أخرى :

له ما قد سبق أن فعل في جاهليته ، فأمله كبير ، ورجاؤه واسع . ولكن خوفه عظيم ألا يغفر ذلك له ما قد سلف ، وإن كان يضع نصب عينيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «الإسلام يجب ما قبله » .

وشهد اليرموك ، وكان على رأس أحد الكراديس ، وقد أبلى البلاء الحسن ، وكان من الذين تقدموا في صفوف الاعداء . يطلبون الشهادة ، حتى وردت رواية أنه استشهد يومذاك لكثرة ما ناله من جروح ، وما عرّض نفسه إليه ، كما المعارك التي دارت بعدها ، إلى أن كانت سنة ثماني عشرة حيث انتشر طاعون عرف باسم طاعون عمواس نسبةً إلى البلدة التي ظهر فيها أول ما ظهر وهي غرب بيت المقدس بقليل ، فمات فيه ، كما مات ابنه أبو جندل ، أما ابنه عبد الله فقد سبقهما في الشهادة إذ ظفر بها في حروب المرتدين يوم اليمامة ، وكان سبقه في الشهادة كسبقه لهما في الإسلام .

هذه ساحات جهاد سهيل بن عمرو في المعارك ، أما في جانب العلم فقد حرص أن يتفقه ، وحرص على الصيام والقيام ، إذ بقي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ماثلاً أمامه « خيارهم في الجاهلية خيارهم

في الإسلام إذا فقهوا » . فقد صام وقام حتى شحب لونه ، ويقول ابن كثير «كان سمحاً جواداً فصيحاً كثير الصلاة والصوم والصدقة وقراءة القرآن والبكاء » . رضي الله عن سهيل بن عمرو فقد مات وهو بين الخوف والرجاء .

* * *

الفهـرس

مقدمـة	٣
١ ـ في الجاهلية	٥
في بـد	٧
في الحديبية	٩
٢ ـ في الاسلام	١٤

عظماء مجهولون

٨

تجد عددا من قصص وسير الصحابة
رضوان الله عليهم
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

عباد بن بشر

رضي الله عنه

محمود شاكر

- قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : « ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يسمو عليهم فضلاً سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر » .
- وقالت رضي الله عنها : تهجد رسول الله فسمع صوت عباد فقال اللهم اغفر له .
- روى البخاري في صحيحه « أن رجلين خرجا من عند النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة ، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما » .
- «كان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت عصا عباد تضيء له إذا خرج من عند رسول الله في ظلمة » .

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ ـ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ـ برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ ـ هاتف ١١١٦٣٧ ـ برقياً: اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد: فإن الصحابة ذلك الجيل الذي تربى على يدي رسول الله صلى الله عليـه وسلم على كثرته كان جيلاً مثالياً، وكل فرد منهم يمكن أن يكون قدوة يقتدى بها وأسوة يهتدى بها، وإذا كان بعضهم قد عُرف لدى الناس جميعاً، ويذكره المسلمون في كل مناسبة لما له في نفوسهم من احترام وتقدير فما ذلك الا لأنه قد تسلم مسؤولية، الأمر الذي جعله على صلة بالناس جميعاً أو جعل وضعه الاجتماعي على تماس بالآخرين يحل لهم المشكلات، ويحتكمون إليه، فأصبح المسلمون جميعهم يعرفونه، ويأخذون من حكمه قواعد يسيرون عليها ومنهجاً يتخذونه نبراساً يستقون منه، ويقيسون فيه سلوك الحاكم والمحكوم على حد سواء، ويتأرخون به مع اتصافهم صفة المسلم المستسلم لأوامر الله سبحانه وتعالى، الراضي بحكمه، المنقاد لتعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا بالاضافة إلى التاريخ الذي يسجل تاريخ الحكام والمسؤولين، ويتخطى العظماء في نفوسهم وأعمالهم ليدونها علماء الاجتماع وغيرهم، ويهتم بها الأتباع والمقلدون. ولربما كان من الصحابة

الظهور ، ولم يتسلم مركزاً مشهوراً بين الناس .

وكل صحابي سواء تسلم مركزاً أم لا هو عظيم بإيمانه . عظيم بسلوكه . يأخذ المسلمون منه جهاده في سبيل الله انموذجاً لقتالهم ، ومن حياته الفردية صورة لأنفسهم ، ومن أعماله قدوة لهم ، ومن تضحياته طريقة للتضحية ، ومن إخلاصه صورة حية من الاخلاص ، ومن هؤلاء العظماء عبّاد بن بشر رضي الله عنه .

ولما كنا نحن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم نقتدي به وبصحابته الكرام كان علينا أن نتعرف على هؤلاء العظماء ، ويكفي أن نذكر ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن هؤلاء الكرام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » . متفق عليه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل جبل أحدٍ ذهباً ماأدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » . رواه مسلم .

ونرجو من الله العلي القدير أن تكون قد وفينا في إظهار شخصية هذا الصحابي الجليل عباد بن بشر رضي الله عنه . وأن تكون أعمالنا خالصة لله سبحانه وتعالى ، وأن يمدنا بالعون من عنده ، فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله .

عبـــاد بـــن بشـــر

عبّاد بن بِشْر بن وقش من بني عبد الأشهل ذروة بطون الأوس ، وأكثرها جهاداً ، وأعلاها مرتبة ، سيدها سيد الأوس كلهم ، وكان يومذاك سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وهو سيد الأنصار جميعهم ، ومنزلته بين الأنصار كمنزلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بين المهاجرين . ولم يعرف النفاق بين أفراد هذه القبيلة أبداً .

كان عباد بن بشر رضي الله عنه مربوع القامة ، أبيض اللون ، وضيء الوجه ، أميل إلى العافية ، قليل الكلام ، كثير الكرم ، دائم العبادة ، مسرعاً لتلبية النداء ، شديد الحب لله ولرسوله ، مواظباً على التأمل والتفكير ، كثير الخشوع ، وكان سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تراه في الصفوف الأولى أثناء القتال ، تنظر إليه في ميدان الجهاد فتجده في كل ساحة حمي فيها الوطيس ، وتبحث عنه أثناء تقسيم الغنائم فلا تجده إلا بصعوبة .

١

أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضي الله عنه داعية ومقرئاً للقرآن في المدينة مع أصحاب العقبة الأولى بعد بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان مصعب يلتقي

الجاهلية وحمأتها ، عاشوا في ضياع لايعرفون شيئاً عن حياتهم الأخروية ، ولا يدرون إلا عما يأكلون وكأن ذلك همهم الأول ، ولا يعلمون إلا ما يتناكحون وكأن ذلك مبتغاهم ، وتلك هي الحياة البهيمية ، ولا يشعرون إلا بما يكيدون خصومهم من إخوانهم الذين يرتبطون معهم بالعصبية ، ويحيون معهم بالجوار ، فكانت قلوبهم ظمأى إلى الإيمان، عطشى إلى النظام ، وبحاجة إلى الناحية الروحية لتجد النفس فيها غايتها من السكينة والراحة والطمأنينة ، فعندما بدؤوا يستمعون إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه يقرأ عليهم القرآن بصوته الندي ، ويدعوهم الى الله ، ويبين لهم أهداف الحياة ، وجدوا أنفسهم يسعون إليه ، ونفوسهم تتوق إلى مزيد التلقي من ذلك النبع الصافي فأقبلوا على الاسلام .

والتقى سيدا بني عبد الأشهل وهما : سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير بمصعب بن عمير ، وقد رأياه في أحد بساتينهم مع مضيفه أبي أمامة سعد بن زرارة رضي الله عنه ، فهمّا بطرده ، وسار إليه أسيد بن حضير ، فلما سمع منه لم يلبث أن أسلم ، فأرسل إليه سعداً فلم يلبث أن أسلم . وعاد سعد إلى قبيلته بني عبد الأشهل في ناديها ، فسألهم عن وضعه بينهم فقالوا له : سيدنا ، وابن سيدنا ، وأكثرنا حلماً ، وأكبرنا عقلاً ، ولا نصدر عن رأي إلا برأيك ، فقال : فإن كلامكم علي حرام حتى تسلموا،

فأسلموا تلك الليلة جميعا لم يتخلف منهم رجل واحد ، وثبتوا على الاسلام ، وكان عباد بن بشر رضي الله عنه قد سبقهم إلى الاسلام .

إذ التقى عبّاد بن بشر بمصعب بن عمير وسمع منه القرآن فما كان منه إلا أنه أحس بوقوعه على الحقيقة التي يسعى إليها . وأن دنياه قد تغيرت كليا ، وذرفت عيناه على مامضى من حياته . ومما سمع من خشية الله ، وعاهد نفسه على أن يكون عمله كله لله ، وأن يجاهد في سبيل الله ــ ما استطاع ــ لايحيد عن ذلك ما عاش .

٢

واشتد أذى قريش على من أسلم في مكة : وكان الإسلام قد فشا في المدينة ، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه أن يتوجهوا إلى إخوانهم في المدينة ، وبدأ المهاجرون يفارقون مكة فرداً بعد فرد وجماعة إثر أخرى ، وفتحت دور المسلمين في المدينة تستقبل القادمين من مكة، وقد غدوا إخوة. الله أكبر لقد جمع الايمان بين المتباعدين، ووحّد بين المتنافرين، وضم المختلفين ، وغدوا جميعا إخوة يلتقون في كل شيء ، ويرتبط بعضهم مع بعض برابط هو أقوى الروابط التي عرفها الناس منذ خلقوا . لقد كان الفرد يترك بيته في مكة ، ويغادر أهله ، ويفارق عشيرته ، وينتقل إلى المدينة فيجد فيها البيت جاهزا ، ويجد أهلاً أقرب إليه من أهله ، ويجتمع بعشيرة أحب إليه من عشيرته ، وما

أن يكون نزيله ، وقد يكون هو وصاحب البيت الذي ينزل فيه لم يلتقيا قط، فإذا بهما مرة واحدة، كأنهما قد قضيا العمر معاً في هذا البيت ، نشآ فيه ، وترعرعا فيه ، وإذا بالأقارب أقاربه والصحب صحبه والقبيلة قبيلته بل هم أسمى من هذا بكثير إنهم إخوة في الله . ولعل من أوائل البيوت التي فتحت في المدينة كانت دار عبّاد بن بشر رضي الله عنه ، وقد استقبل فيها أخاه عتبة بن غزوان رضي الله عنه .

٣

وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واستقبله المسلمون هناك استقبالا لايوصف ، إذ لاتقارن الأمور المعنوية بالمادية أبدا ، فما لايدرك إلا بالحواس تعبر عنه فقط الحواس ، وما يعلو عنها يعجز عن وصفه قلم مهما جد ، والفكر مهما كد ويصعب التعبير عنه ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ، وليس معنى هذا أن الأنصار قبل هذا قد قصروا في واجبهم ، وأهملوا حق الأخوة الذي يطلبه منهم دينهم ، ولم يقوموا بالواجب إلا عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وتمت المؤاخاة ، أبدا . بل قاموا بما عليهم من قبل ، والمؤاخاة كانت بين المسلمين ، وليس بين المهاجرين والأنصار ، وما هذه المؤاخاة إلا ليكون المسلمون جميعا كتلة واحدة أمام

مايمكن أن يعترضهم من اتفاق اليهود الموجودين في المدينة بجانبهم. فقد كان الأنصار من قبل بطونا وقبائل متفرقة، وبينهم وبين اليهود أحلاف، إذ كان الأوس على اتفاق مع يهود بني قريظة، وكان الخزرج ويهود بني قينقاع وبني النضير حلفا واحدا. وكان بين الأوس والخزرج أيام في الجاهلية وأيام، وحتى بين بطون القبائل الواحدة كانت إحن وخلافات، وإذا كان قد قام كل فرد من الأنصار بدوره الكامل وبواجبه الكامل تجاه إخوانه المسلمين الذين هاجروا من مكة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن تكتلات فئات الأنصار كانت لاتزال قائمة، ولكل فئة ناديها الخاص ومكان لقائها الخاص، فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بنى مسجده هناك، فكان أن حل هذا المسجد بدل الأندية التي كانت قائمة، وغدا مكان اجتماع المسلمين جميعا، ثم كانت المؤاخاة فغدت البطون والقبائل من الأنصار أوسها وخزرجها مع المهاجرين كلهم كتلة واحدة ويداً واحدة يمكن أن تحمل سيفاً واحداً أمام أي عدو يمكن أن يقف في وجهها ويحاول أن ينال أي جزء منها. وكان عباد بن بشر رضي الله عنه وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة أخوين في الله، وكلاهما لايقل عن أخيه في جهاده ونبله وتضحيته وإخلاصه رضي الله عنهما.

٤

واستدار العام. وانطلقت غزوات رسول الله صلى الله عليه

إلى الشام ، ويحاول لقاءها ، وسارت سرايا المهاجرين في كل ناحية للغرض نفسه ، ولم يشترك الأنصار في بداية الأمر فيهـا حسب تعليمات رسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم إلا أن عباد بـن بشر رضي الله عنه ذلك الفتى الوسيم الممتلىء حيوية والمتعطش للجهاد في سبيل الله كان ينتظر الأوامر للانخـراط في صفـوف المجاهدين عسى أن يعوّض عما مضى من حياته فيحصل علـى الشهادة أو يتم للمسلمين النصر ، ويكون بأي شيء وقع لـه قد أرضى الله ورسوله ، ثم كانت غزوة بدر إذ ندب رسـول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين لملاقاة عير قريش فخرج عبـاد بن بشر رضي الله عنه في أوائل الذين خرجوا ، ولم تكن العير وإنما كان القتال لأمر أراده الله ، وكان عبّاد مـن أكثر المتحمسـين للاشتباك مع العدو ، وما إن نشب القتال حتى كان في بدايـة الصفوف يقاتل يمنة ويسرة أينما اتجهت تراه امامك بوجهه المشرق وطلعته الوسيمة وشجاعته الفائقة وإقدامه المنقطع النظير ، وانتهت المعركة ، وبدأ تقسيم الغنائم فكان شأنه في نهاية كل معركة أن يفتش عنه اخوانه فلا يكادوا يجدونه إلا بمشقة إذ لم يكن له من أمل سوى إرضاء الله ورسوله .

٥

وانتهت غزوة بدر ، وكانت فرقانا بين الحق والباطل ، وهـي

أول معركة نصر الله فيها عباده المؤمنين على قلتهم ، وهزم أعداءه المشركين مع كثرتهم، وكانت نصراً مؤزرا قتل فيه المسلمون سبعين قتيلا من أشداء المشركين، وأسروا سبعين من صناديد قريش استاقوهم أمامهم . وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين من قبله إلى المدينة يخبران أهلها ، ويبشران ساكنيها ممن لم يحضروا المعركة بنصر الله ، وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه هو الذي انطلق الى المناطق السفلى من المدينة ، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنه هو الذي سار إلى أعاليها . ووصل النداء الى مسامع يهود ، فصعقوا من هول الخبر عليهم ، فلم تكن يهود لترضى عن خبر يسر المسلمين ، فكيف بالنصر من الله ، والتمكين لهم في الارض بعد أن عبدوا الله ونصروه فبدلهم من بعد خوفهم أمناً. وكان أشد يهود حقدا ، وأكثرهم غيظا من هذا النصر كعب بن الاشرف الذي قال : إن صح الخبر لبطن الارض خير من ظهرها. لقد حكم على نفسه بالموت فناله بإذن الله . فلما تيقن من الخبر، ورأى بأم عينه رجال قريش مكبلة ايديهم خلف ظهورهم ، يمشون أذلاء بعد ان هزمهم الله خرج إلى مكة يحرّض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبكي قتلى قريش ، وعندما شعر أن النفوس لدى المشركين قد تعبأت بالحقد ، وشحنت بالغيظ رجع الى المدينة وبدأ يتشبب بنساء المسلمين، ويتغزل بفتياتهم ، وهو شاعر ــ قبحه الله ــ، ويتكلم بكلمات ما اعتادت ألسنة المسلمين أن تتفوه بمثلها، وتأذّى المسلمون من ذلك أشد الأذى ،

الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : أنت له • ومحمد بن مسلمة هو من حلفاء الأوس ومن رجالهم المعدودين وعاد ابن مسلمة يفكر بالامر ويدرسه، واختار عددا من قومه ، كلهم من الاوس، كان في طليعتهم عبّاد بن بشر رضي الله عنه ، وكان منهم الحارث بن أوس ابن أخي سعد بن معاذ ، وأبو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش الذي كان أخ كعب بن الاشرف من الرضاعة ، وهو ابن عم عبّاد بن بشر •

كان كعب بن الاشرف يبيت في حصن منيع له ، فقدم المسلمون ذات ليلة أخاه أبا نائلة إليه ، فسبقهم بساعة جلس فيها عنده يناشده الشعر ، ثم طلب منه أن يبيعه الطعام والتمر ، وقال له : رمتنا القبائل عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الانفس •

قال كعب: أترهنوني نساءكم؟ ــ على عادة يهود في الاحتكار، ومحاولة تأمين المال ، وتحقيق الشهوات ، وإلقاء الناس بالمفاسد وحمأة الرذيلة ، واذلالهم •

قال أبو نائلة : كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم ؟•

قال كعب : أترهنوني أبناءكم ؟•

قال أبو نائلة : أتريد أن تفضحنا ؟ وان معي أصحابا لي على

مثل رأيي . ولقد اردت أن آتيك بهم . فتبيعهم ، وتحسن ذلك ، ونرهنك السلاح .

قال كعب : نعم ، إن في السلاح لوفاء .

خرج أبو نائلة من عند كعب ، وجاء بأصحابه ، فلما وصلوا الى قرب الحصن ناداه أبو نائلة ، وحاولت زوجه أن تمنعه من الخروج في مثل هذه الساعة من الليل،ولكنه أصر على الخروج وإجابة النداء إذ سال لعابه على الربح ، ولما خرج استدرجوه بعيدا عن حصنه ، وأمله كبير بزين الذهب يلعب به بين يديه ، ولكنها كانت القاضية إذ كثيرا مايجر" المال صاحبه الى الهلاك إذا كان يجري وراءه. ثم أمسك أبو نائلة شعر رأس ذلك اليهودي،وقال : اقتلوا عدو الله ، فانهالت سيوفهم عليه ، الا انها اعترضت عليهم ، فلم تقتله، وجرح منها الحارث بن أوس بن معاذ في رأسه. فأخرج محمد بن مسلمة سكينا فوضعها في ثنيته، وضغط عليها بكل ثقله حتى وصلت إلى عانته ، فوقع عدو الله قتيلا .

٦

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم نجداً في غزوة يقال لها ذات الرقاع ، ولم يحدث قتالا فيها ، إذ رهب كلا الطرفين خصمه ، وهرب المشركون ، إلا أن مسلما قد أصاب امرأة رجل من المشركين كان غائبا آنذاك عن قومه ، فعندما حضر زوجها لحق بالمسلمين يريد النيل منهم ، وكانوا قد رجعوا باتجاه المدينة ، وباتوا في مكان

نحن يارسول الله .

قال : فكونا بفم الشعب . فخرجا إلى فم الشعب .

قال عباد لعمار : أي الليل تحب أن أكفله . أوله أم آخره؟.

قال عمار : بل اكفني أوله . واضطجع عمار فنام .

وشعر عباد بن بشر بالأمان ، وأحس بنسيم الجبل العليل فاستروح نسمات الجنة، وقام يصلي،فاستغرق في صلاته مستشعرا عذوبة القراءة في هدوء ذلك الليل ، واستسلمت جوارحه لبارئها ، وارتفعت نفسه عما في هذه الدنيا فلم يعد يشعر بشيء حوله . وجاء زوج المرأة المشرك ، فلما رأى عبادا يصلي عرف أنه طليعة القوم ، فرماه بسهم فأصابه ، فنزعه عباد من جسمه ، وثبت قائما، ولم يرغب في قطع صلاته فكأنه خارج عن دنياه ساعتذاك. فعاد الرجل فرماه بسهم ثان فلم يخطئه ، فنزع عباد السهم تارة أخرى وثبت قائما ، ولم يحب أن يقطع عبادته ، فهو مستغرق فيها وألذ ساعة عنده هي تلك، وأحب وقت إليه الذي هو فيه . فعاد الرجل فرماه بسهم ثالث ، فوقع فيه ، فنأثر عباد ، فركع وسجد ، وأيقظ صاحبه ، وقال له قد اصبت .

قال عمار وقد رأى الدماء تسيل من عباد : سبحان الله ، أفلا أيقظتني أول ما رماك .

قال عباد : كنت في سورة اقرأها ، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها ، فلما تابع الرمي ركعت وأيقظتك، وايم الله ، لولا أن

أضيِّع ثغرا أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه لقطع نفسي قبل أن اقطعها .

وشعر الرجل أن الركب قد تيقظ عليه ففر .

٧

وكان اذا دعا داعي الجهاد كان عباد بن بشر أول اولئك الذين يلبون النداء ويسرعون في تأدية الواجب وما أسرع الصحابة رضوان الله عنهم في هذا ، رغبة في ارضاء الله ورسوله . وأغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على إبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ترعى على مقربة من المدينة ، فقتلوا راعيها ، وحملوا امرأته، واستاقوا الإبل ، ووصل الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى في المدينة الفزع الفزع ، فترامت خيل الله إلى رسول الله وكان أول من انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المقداد بن عمرو ثم عباد بن بشر ، حتى اذا اجتمعوا إليه ، أمّر عليهم سعيد بن زيد رضي الله عنه، وقال له: اخرج في طلب القوم ، حتى ألحقك في الناس . وما هي إلا لحظات حتى كانت خيول المسلمين تطارد المعتدين ، وقد شاغلها مسلم واحد ، ولم يمض الا قليل من الوقت حتى كان الجيش الاسلامي في أثر المشركين الذين فرّوا لايلوون على شيء، ولم يتوقع امرؤ أن يكون إعداد جيش وتجمعه في هذه الصورة وفي هذه السرعة ... إنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كان عباد بن بشر رضي الله عنه سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب به من يستحق الضرب، وينفذ حكم الله به لمن تلزمه العقوبة ، إذ عرف رضي الله عنه بالشدة والشجاعة والرغبة في تنفيذ أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرعة ، لا يخاف في الله لومة لائم ، ينفذ أوامر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام دون تردد ومهما كانت النتائج ، ولما عرف عنه ذلك ، كان الصحابة رضوان الله عنهم إذا رأوا شيئا أو أمرا يستحق القصاص قالوا لرسولهم الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام : مر عبّاد بن بشر فليفعل كذا ، مر عباد بن بشر ، فليضرب عنق فلان ...وبخاصة إذا كان الرجل الذي يحتاج إلى قصاص من الانصار .

اختلف رجلان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار على ماء أثناء غزوة بني المصطلق ، ووصل الخبر إلى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، فوجدها فرصة مناسبة يظهر فيها حقده ، ويشفي غيظ صدره الدفين ، فيوقع بين المسلمين ، ويرمي الفرقة بينهم ، فتكلم بكلمات بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال مما قال «أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل » ، ووصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : يا رسول الله ، مر عبّاد ابن بشر فليقتله .

٩

لقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا أمناء في الحق أمناء على النفس على المال . لا يستطيع رجل مهما أوتي أن يطعن بأقل فرد منهم ، ولما عرف ذلك عنهم كلهم فإن أي واحد منهم يمكن أن يقوم بأية عملية تتعلق بالأموال ، وينجح فيها النجاح كله ، وقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عباد بن بشر رضي الله عنه يجمع صدقات القبائل .

ويوم خرج المسلمون من مكة تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تجمع هوزان وثقيف الذين يريدون غزو مكة وقتال المسلمين قبل أن يشتد ساعدهم ـ على زعم المشركين ـ ، وفاجأت هوزان المسلمين في حنين الأمر الذي أجبرهم على أن يولوا الأدبار مع كثرتهم ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلة معه حتى ثاب المسلمون الى رشدهم ، وعادوا فتجمعوا حول نبيهم الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ، وحملوا حملة واحدة أزالوا المشركين عن مواقعهم . ففروا من أمامهم لا يلوون على شيء وقد خلفوا وراءهم شياههم وإبلهم وأموالهم وذراريهم بأعداد كبيرة جداً « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك

جزاء الكافرين (١) . وجمعت تلك الغنائم الكثيرة في منطقة الجعرانة ، وسار المسلمون إلى الطائف تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الغنائم عباد بن بشر رضي الله عنه على رأس جماعة من الصحابة يحمونها من أي أذى .

١٠

وخرج المسلمون الى تبوك تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيفون الروم الذين حاولوا أن يهددوا المسلمين ، ويرهبون القبائل العربية المتنصرة التي قاتلت يوم مؤتة وفي كل يوم كانت تقف بجانبهم وباستمرار تحت رابطة العقيدة ، وكانت هذه القبائل بتحريض من الروم تحاول الاغارة على المسلمين . وكانت تلك الغزوة من أصعب الغزوات التي سبقتها إذ أن المسافة طويلة تزيد على ٦٧٥ كم ، وفيها مشقة ، وفي وقت من الحر اللافح ، والناس في ضيق شديد الأمر الذي جعلهم يطلقون على هذه الغزوة اسم غزوة العسرة .

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ، والقائد لابدّ له من حرس يحميه ، إذ أن العدو يعدّ القائد الخصم الهدف الأول له ، وبالقضاء عليه يمكن أن يحصل على أكبر نصر . والقائد لابدّ من أن يختار أقوى الجند حرساً له ، وأفضلهم حرصاً عليه .

---

(١) التوبة : ٢٥ ـ ٢٦ .

وأكثرهم يقظة ، وأحسنهم طاعة . واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم عباد بن بشر ليكون قائد حرسه في تلك الغزوة، فكان نعم القائد .

١١

وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى. واختار المسلمون أبا بكر الصديق رضي الله عنه خليفة لرسول الله ، واستغلت قبائل كثيرة وفاة رسول الله فارتدت عن الاسلام . وسيّر أبو بكر رضي الله عنه لها الجيوش . وانضوى الصحابة في تلك البعوث، سوى عدد قليل منهم بقي في المدينة يساعد الخليفة في تدبير شؤون المدينة وحفظ الأمن فيها خوفاً من مداهمة القبائل المرتدة والممتنعة عن دفع الزكاة ، إذ لم يبق على الاسلام في جزيرة العرب سوى مكة والمدينة والطائف ، وما عدا ذلك من العرب فقد ارتد أو امتنع عن دفع الزكاة وحاول الهجوم على المدينة .

وسار عباد بن بشر رضي الله عنه مع تلك البعوث بإمرة خالد بن الوليد رضي الله عنه باتجاه وادي حنيفة حيث يقود مسيلمة الكذاب قومه بني حنيفة ، وقد اتبعوا أمره وما أمره برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار . وبئس الورد المورود . وعدّ عبّاد بن بشر نفسه مسؤولا عن مقاومة هذه الردّة وإعادة قوة المسلمين وهيبتهم ونشر عقيدتهم . وهناك في اليمامة

كان جيش مسيلمة الكذاب يضم العدد الكبير ممن اتبعوه .

لقد كانت بداية المعركة لمصلحة المرتدين . فلما رأى عباد ابن بشر ذلك بدأ ينادي الأنصار ويصيح بهم ، فاتجهوا نحوه، فقادهم هو وأبو دجانة والبراء بن مالك رضي الله عنهم . وكنت تراه يكرّ على الأعداء كراً فيحصدهم حصدا ، ويفرون منه ، وهو يدفعهم ، ويخرّ الشهداء من جانبيه خراً ، ويسقط الموتى من أعدائه أمامه صرعى . وبقي ذلك ديدنه وعمل إخوانه مثله حتى ساقوا الأعداء إلى حديقة الموت حيث يتحصن هناك مسيلمة الكذاب، وبينما هو كذلك إذ جاءته ضربة غادرة صدمت مغفره فانطلقت شرارة أشرق بها الجو ، وانشقت لها الحجب ، وشدخت الضربة وجه عباد ورأسه ، فأثرت مع ضربات سابقة أخف منها ، وسقط شهيداً إلى الأرض وارتفعت روحه إلى بارئها في الأعلى ، وساد صمت رهيب لحظة من زمن أغمض إثرها عباد عينيه وودع هذه الدنيا الفانية ليعيش في جنات الخلد الباقية . وذلك قبل أن تكتحل عيناه بالنصر ، إذ دخل المسلمون حديقة الموت ، وقتلوا مسيلمة الكذاب ، وقضوا على الردة ، وتحقق أمل عباد بن بشر .

---

(١) عقرباء : تعرف اليوم بالجبيلة ، وتقع في أعلى وادي حنيفة على بعد ٤٠ كم إلى الشمال من الرياض .

كان عباد يتمنى الشهادة،ولرغبته الدائبة بها،فقد رأى رؤيا قبل تلك المعركة الحامية ، وقد قصّها في الصباح لأخيه الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي يقـول : « قال لي ــ عباد ابن بشر ــ يا أبا سعيد رأيت الليلة ، كأن السماء قد فرجت لي ، ثم أطبقت علي ، وإني لأراها إن شاء الله الشهادة ، فقلت له : خيراً والله رأيت • وإني لأنظر إليه يوم اليمامة ، وإنه ليصيح بالانصار: احطموا جفون السيوف ، وتميّزوا عن الناس ، فسارع إليه أربعمائة رجل منهم ، كلهم من الانصار حتى انتهوا إلى باب الحديقة، فقاتلوا أشد القتال ، واستشهد عباد بن بشر رحمه الله •••• ورأيت في وجهه ضرباً كثيراً ، وما عرفته إلا بعلامة كانت في جسده » •

لقد نال الشهادة وهي أمنيته عن خمس وأربعين سنة ، رضي الله عنه وأرضاه •

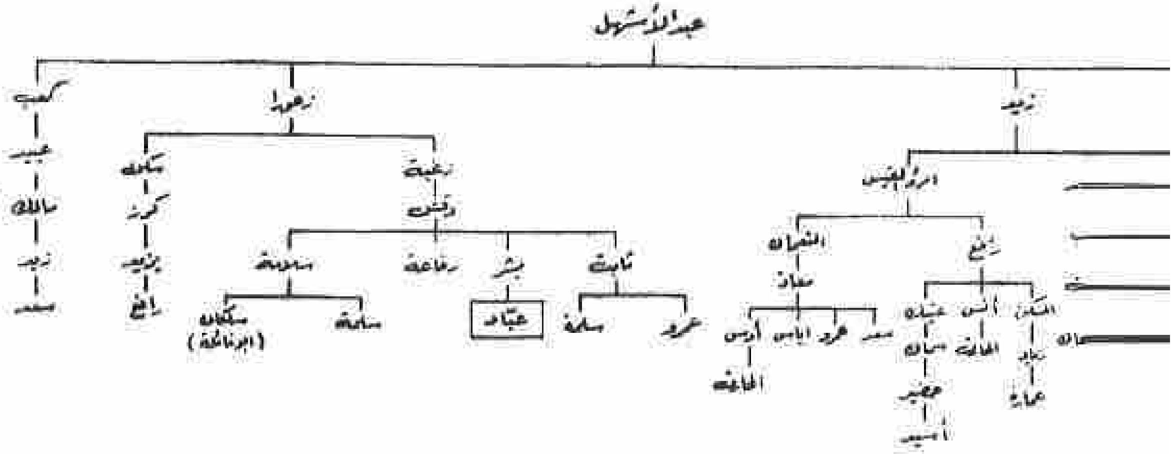
عبد الأشهل
كعب
عبيد
مالك
زيد
سعد
زعوراء
كرز
يزيد
رافع
وقش
سلامة
رفاعة
بشر
ثابت
سلكان
(أبو نائلة)
عباد
سلمة
عمرو
امرؤ القيس
النعمان
معاذ
أوس
إياس
الحارث
رافع
أنس
السكن
الحارث
زياد
عمارة
حضير
أسيد

سلسلة بطولات إسلامية

— ٣ —

عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي

القائد البطل فاتح مدينة الاسكندرية

تأليف

د. محمد إبراهيم نصر & محمد مصطفى سلام

دار اللواء

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار اللواء

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع الملك فيصل
ص . ب : ٢٨٥٦ هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤ - برقيا : نشر دار

مقدّمة

قال تعالى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

هؤلاء الرجال الذين مجّد القرآن الكريم بطولاتهم لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه بإخلاصهم وتفانيهم في سبيل إعلاء كلمة الله ، فمنهم من استشهد في سبيل نشر العقيدة ومنهم ينتظر دوره البطولي من هؤلاء الرجال الذين تربوا في مدرسة النبوة ، ورباهم الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه .

القائد النقيب البطل المجاهد فاتح مدينة الاسكندرية (عبادة ابن الصامت الأنصاري الخزرجي) الذي جمع القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ ، وكان يقول أنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، ألا يخاف في الله لومة لائم . وظل طول عمره على ذلك .

وقد كان عبادة يقف أمام أي إنسان مهما كان في سبيل

ولا عجب في ذلك ، فقد كان يعاتب عمر بن الخطاب نفسه، فقال لعمر عندما قال لجبلة بن الأيهم «إن أقمت على دينك فأدِّ الجزية » فأنف منها جبلة ، فقال له عمر « ما عندنا إلا واحدة من ثلاث : إما الإسلام وإما أداء الجزية ، وإما الذهاب إلى حيث شئت»، فدخل بلاد الروم ، فلما بلغ ذلك عمر ندم وعاتبه عبادة فقال : « لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم » وكل ذلك يدل على قوته في دين الله وقيامه في الأمر بالمعروف . لقد كان عبادة من سادات الصحابة ، وكان محدثاً ، فقيهاً ، عالماً ، ورعاً ، غاية في الورع ، يعمل لعقيدته أكثر مما يعمل لنفسه ، بل قد نسي نفسه من أجل عقيدته وكان عبادة رجلا شجاعاً معدوداً بألف رجل لشجاعته وإقدامه وعقيدته الراسخة .

وكان وجوده في جيش من جيوش المسلمين كافيا لرفع معنويات ذلك الجيش وإقدامه على تحمل أشق أعباء القتال ، إذ كان يثير في نفوسهم النخوة والنجدة بمثاله الشخصي في التضحية والإقدام .

كما كان يفجر في نفوسهم ينابيع الإيمان بالقضاء والقدر والتطلع إلى الشهادة في سبيل الله .

هذه صور قليلة من بطولات هذا القائد العظيم الصحابي الجليل (عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي) .

نقدمها إليك أيها القارىء الكريم في الكتاب الرابع من سلسلة « بطولات إسلامية » لعلها تجد منك القبول والرضا .

والله تعالى نسأل أن يوفقنا في كل ما من شأنه نشر دينه ، وإعلاء كلمته ؛ إنه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلفان

مصر في بداية الفتح الإسلامي

قال وفد المقوقس عن المسلمين :
« رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأكلهم على رُكبهم ، وأميرهم كواحدٍ منهم »

حالة مصر عند الفتح الإسلامي

لما قدم عمرو بن العاص إلى مصر وبلغ المقوقس ذلك أخذ يجهز الجيوش للقضاء على عمرو ومن معه من جند المسلمين ولكن عمراً صمد له في كل قتال تقابل فيه المسلمون والقبط والروم ، حتى وصل عمرو إلى حصن بابليون ، وكان به جماعة من الروم ، وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فقاتلوهم شهراً فلما رأى القوم الجد من العرب على فتحه والحرص على اقتحامه ، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم ، فتنحّى المقوقس وجماعة من أكابر الأقباط وخرجوا من باب القصر القبلي وتركوا به جماعة يقاتلون العرب ، فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وذلك في جريان النيل ، ويقال : « إن الأعيرج أحد أعوان المقوقس تخلف بالحصن بعد المقوقس ، فأرسل المقوقس إلى عمرو يقول :

« إنكم قد ولجتم في بلادنا وألححتم في قتالنا ، وطال

الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح ما لا قبل لكم به ، وقد أحاط بكم النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال ، قبل أن يغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء » .

فلما أتت رسل المقوقس إلى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف المقوقس فقال لأصحابه : أترون أنهم يقتلون الرسل « ويحبسونهم » ويستحلون ذلك في دينهم ! وإنما أراد عمرو بذلك أن يطلعهم على حال المسلمين . فرد عليهم عمرو مع رسلهم : أنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين ، فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا :

رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ،

وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم .

فقال عند ذلك المقوقس : والذي يُحلَف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ! ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم .

فرد إليهم المقوقس رسله يقول لهم : ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر برئاسة عبادة بن الصامت، وكان عبادة ، طويلا جسيماً ضخماً أسود اللون قيل إن طوله كان عشرة أشبار وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم ، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى الخصال الثلاث التي مر ذكرها فيما سبق ، وقد ركبوا السفن وساروا إلى المقوقس ليتفاوضوا معه حسب رغبته ، ولنبدأ ببيان المهمة الشاقة التي ذهب إليها عبادة وأصحابه وهي التفاوض بشأن إعلان المبادىء الإسلامية للمقوقس وأصحابه . وكان اختيار

اختياراً موفقاً لأن عبادة صحابي جليل تربى في مدرسة النبوة فهو جدير بهذه المهمة المنوطة به .

عبادة بن الصامت

« والله لقد تركت ورائي ألف
رجل كلهم أشدّ سواداً مني ،
لا يبالي الواحد منهم بألف منكم »

« عبادة بن الصامت »

عبادة يرأس وفد المفاوضات إلى المقوقس

عندما طلب « المقوقس » من عمرو بن العاص المفاوضة بينهم وبين العرب ، اختار عمرو عشرة نفر وجعل عليهم عبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود اللون ضخماً طويلا جسيماً .

وأمره أن يكلم القوم ، ولا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه ، إلا إحدى الخصال الثلاث ، وهي الإسلام أو دفع الجزية أو السيف .

ودخل القوم على المقوقس ، يتقدمهم عبادة لمخاطبته ، فلما رآه قال : « نَحُّوا عني هذا الأسود ، وقدّموا غيره يكلمني » .

ولعله أراد بهذا أن يوقع بينهم ، لكنهم أجابوه جميعاً بأنهم يرجعون إلى قول عبادة ورأيه .

وتكلم عبادة ، وذكر ما أمر به الله ورسوله المسلمين ، من الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجهاد في الله ، وحب

إعجابه لأصحابه ثم قال :

« لقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، وهم قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ممن لا يبالي أحدهم من لَقِيَ ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم لضعفكم ، وقلتكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا شهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ، ونحن نرقّ عليكم لضعفكم وقلة ما بأيديكم وتطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به » .

هذا كلام يجمع إلى الوعد الوعيد ، وإلى الإغراء التهديد ، فهذه ثلاثون ألف دينار تعرض على (عبادة) ثمناً للانصراف عن الحرب فإن أباها كان مهدداً بعدد الروم الذي تكلم المقوقس عنه .

ولكن أوامر عمرو إلى عبادة كانت صريحة ، وكان عبادة شجاعاً لا يهاب الموت ، لذلك أجاب المقوقس مزدرياً بجمع الروم وعددهم ، ذاكراً قوله تعالى « كَمْ من فئة قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ ، واللهُ مع الصابرين »[(١)]

---

(١) سورة البقرة ٢٤٨ .

وأن كل رجل من المسلمين يدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة . ثم التفت إلى المقوقس قائلا : « ليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، أو نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث .

فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل ، بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله ﷺ إلينا من قبل .

ثم ذكر أنهم إن أسلموا انصرف العرب عنهم ، وإن أبوا الإسلام وأدّوا الجزية أدخلهم المسلمون في حمايتهم ، ودافعوا عنهم ، وإن أبوا الإسلام والجزية جميعا فليس إلا الحرب تفصل بين الفريقين » .

حاول المقوقس عبثا أن يصرف عبادة إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث والتفت المقوقس إلى من معه يستطلع رأيهم ، فأبوا إجابة المسلمين إلى شيء مما طلبوا ، فانصرف عبادة وأصحابه ، لم يغيّروا مما قالوه حرفاً واحداً وعاد المقوقس ينصح قومه بمصالحة المسلمين ، فسألوه : أيّ خصلة نجيبهم إليها ؟ قال « إذاً أخبركم ؛ أمّا دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به وأمّا قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووْا عليهم ، ولن تصبروا صبرهم ؛ فلا بد من الثالثة » .

قالوا فنكون لهم عبيداً أبَداً ؟ قال : « نعم تكونون لهم عبيداً مسلّطين في بلادكم ، آمنين على أنفسكم ، وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم ، أو تكونوا

وذراريكم ».

قالوا : الموت أهون من هـــذا ! وعادوا إلى الحصن وقطعوا الجسر من الجزيرة ، وعادت الحرب بينهم وبين المسلمين .

* * *

ماذا تم بين المسلمين وأعدائهم بعد انهيار المفاوضات ؟

بعد انهيار المفاوضات التي كانت بين المقوقس وبين وفد المسلمين بقيادة عبادة بن الصامت ، استعد المسلمون للقتال فهجموا على من بالقصر وقاتلوهم حتى ظفروا بهم ، وأمكن الله منهم ، فقتل منهم خلق كثير ، وأسر من أسر منهم ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة .

ويقول بعض المؤرخين إن كبار الروم ، طلبوا أن يهادنهم العرب شهراً ليروا رأيهم ، فأجابهم عمرو جواباً قاطعاً ، أنه لن يمهلهم أكثر من ثلاثة أيام ، غير أن موقف المقوقس ورغبته في مصالحة المسلمين لم يلبث أن ذاع في الناس فثار ثائرهم ، وأبى جند الامبراطور إلا القتال ، فما انتهت أيام المدنة الثلاثة حتى أخذ أهل الحصن يتجهزون للخروج إلى المحاصرين يناجزونهم ، ولم يبعثوا رداً إلى

عمرو ، وخرجوا إليه بغتة فوق قناطرهم ، فأخذوا جنود المسلمين على غِرة ، ولم تُذهل تلك البغتة العرب ، فأسرعوا إلى سلاحهم ، وقاتلوا الروم قتالا شديدا .

وقاتلهم الروم يومئذ مستبسلين ، غير أن العرب تواردوا إليهم ، مُنذُ أدركوا قصدهم فتكاثر العرب عليهم ، فما استطاع الروم إلا أن يتراجعوا إلى الحصن بعد أن قتل منهم عدد عظيم .

كيف تمَّ فتح حصن بابليون ؟

بعد أن لجأ الروم إلى الحصن ، رأى « الزبير بن العوام » خالا في سور الحصن فنصب سُلّماً وأسنده إلى الحصن وقال«إني أهب نفسي لله تعالى فمن شاء أن يتبعني فليفعل » .

فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن ، فكبّر وكبّروا ، فلما رأى الروم أن العرب قد ظفروا بالحصن ، انسحبوا ، منه ، وتشب القتال بين الطرفين حول (الحصن) فأحرز المسلمون النصر على الروم بعد أيام معدودة من المفاوضات التي أجراها (عبادة بن الصامت) مع المقوقس فمن هو عبادة ؟ ذلك القائد البطل الذي جاهد في الله حق جهاده ؛ وحمل لواء الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ونشر دينه الحنيف بين العالمين ؟

هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم ، بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج ، ويكنى أبا الوليد .

وأمه قُرَّةُ العين بنت عبادة بن نَضْلة بن مالك بن العجلان ابن زيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج .

أولاده :

كان لعبادة من الولد : الوليدُ ، وأمّه جميلة بنت أبي صعصعة وهو عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو ابن غَنْمٍ بن مازن بن النجار.

ومن أولاده :

محمد وأمّه أمّ حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جُنْدُب بن عامر بن غَنْمٍ بن عدي بن النجار .

وشهد عبادة العقبة مع السّبعين من الأنصار في روايتهم جميعاً ، وهو أحد النقباء الاثني عشر ، وقد آخى رسول الله ﷺ بين عبادة بن الصامت ، وأبي مرثد الغنوي .

وشهد عبادة بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ .

وكان عبادة عقبياً[1] ، نقيباً ، بدرياً ، أنصارياً ، أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا أبو حرزة يعقوب بن مجاهد عن عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه قال : كان عبادة ابن الصامت رجلاً طويلاً جسيماً جميلاً مات وله عقب .

(١) عقبياً : من المسلمين الذين شهدوا العقبة .

عبادة يتبرأ من حلف بني قينقاع

لما نقضت بنو قينقاع حلف رسول الله ﷺ مشى إليهم عبادة وقال : « يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم » .

« عبادة بن الصامت »

عبادة مع النبي ﷺ :

قدم مكة الحيسر أنيس بن رافع في مائة من قومه من بني عبد الأشهل يطلبون الحلف مع قريش ، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقال إياس بن معاذ وكان شاباً حدثاً : « يا قوم ، هذا والله خير مما جئنا له ! » فضربه الحيسر وانتهره . فسكت ! ولم يتم له الحلف ، فانصرفوا إلى المدينة ثم إن رسول الله ﷺ لقي عند (العقبة) ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج .

فدعاهم إلى الإسلام فآمنوا وأسلموا ، وقالوا : « إنا قد تركنا قومنا وبينهم حروب فننصرف إليهم وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه ، فعسى الله أن يجمع كلمتهم بك ، فإن اتبعوك فلا أحد أعز منك » .

وانصرفوا إلى المدينة فدعوا إلى الإسلام حتى انتشر بينهم ، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان العام القادم ، قدم من الأنصار اثنا

آخرون كان أحدهم (عُبادة بن الصامت) بن قيس الأنصاري الخزرجي .

وشهد عبادة العقبة الثانية ، وبايع مع من بايع من الأنصار على أن يمنعوا رسول الله ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأزرهم [١] ، وأن يرحل إليهم وأصحابه .

لقد كان عبادة أحد النقباء الاثني عشر ، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنوي ، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، فكان عقبياً ، نقيباً ، بدرياً ، أنصارياً ، وقد استعمله رسول الله ﷺ على بعض الصدقات وقال له « إتق الله ! لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء ، أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثؤاج » قال : « فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على اثنين [٢] » وكان قد بايع رسول الله ﷺ على ألا يخاف في الله لومة لائم .

وكان بنو قينقاع حلفاء عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، كما كانوا حلفاء عبادة بن الصامت ، فلما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ قام عبد الله بن أُبيّ دونهم فقال : « يا محمد !

---

(١) الأزر جمع إزار ، وهو كناية عن المرأة والنفس .

(٢) يعني أنه لن يعمل على إرضاء الله من ناحية وجمع الدنيا من ناحية أخرى ، ولكن عمله سيكون لله فقط .

أحسن في مواليّ » فغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً .

أما عبادة فقد مشى إلى رسول الله ﷺ ، فخلعهم وتبرأ من حلفهم وقال : « يا رسول الله ! أتولى اللهَ ورسوله ﷺ والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم » ففيه وفي عبد الله بن أبيّ نزل قول الله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنُوا لا تتخذُوا اليهودَ والنّصارى أولياءَ ، بعضُهم أولياءُ بعض ، ومن يتولّهم منكُم فإنّه منهم ، إنّ الله لا يهدي القومَ الظّالمين** [1] » .

وقد أمر الرسولُ القائدُ ﷺ أن يُجلُوا من المدينة وولى إخراجهم منها القائد الملهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

لقد كان عبادة مثالا للأمانة والإخلاص والإيمان العميق .

جهاده في سبيل إعلاء كلمة الله :

لقد اشترك عبادة بن الصامت القائد العربي المسلم ، في معارك كثيرة برية وبحرية ، وقد كتب الله له فيها النصر .

فمن صور جهاده وبطولته الرائعة ، أنه كان في طليعة

---

(١) سورة المائدة : ٥١ .

وكان من الذين كتب لهم شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ في أول معركة إسلامية كبرى من بني عوف بن الخزرج وهم أربعة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ هم (عبادة بن الصامت) و (العباس بن عبادة بن نضلة) و (يزيد بن ثعلبة بن خزمه) و (عمرو بن الحارث بن لبدة بن عمرو) وكان عبادة بن الصامت يقول : إذا سئل عن سورة الأنفال « — فينا — معشر أهل بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر ، فانتزعه الله من أيدينا ، حين ساءت فيه أخلاقنا ، فردّه على رسول الله ﷺ قسّمه بيننا عن بواء — يقول على السواء — وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين» وقد روى ابن إسحق عن هذا فقال : « فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن (سورة الأنفال) بأسرها .

وأول ما تحدث عنه القرآن الكريم ، اختلاف عسكر بدر من المسلمين حول الغنائم والأسلاب ، فقال تعالى : **« يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرّسول ، فاتّقوا الله وأصْلِحُوا ذاتَ بينِكم ، وأطِيعُوا الله ورسوله إنْ كُنْتُم مؤمنين »** .

وقد كانت هذه الآيات بمثابة قرار حاسم لحل الخلاف بين العسكر حول الغنائم ، إذ جعل أمرها عائداً إلى النبي ﷺ وعلى المسلمين أن يطيعوا أمره .

وقد قسم النبي ﷺ الغنائم بين الجيش على السواء وقد اشترك عبادة في موقعة أحد والخندق وبنى المصطلق وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان مثال الجندي الشجاع الذي لا يرهب الموت في سبيل الدفاع عن الحق .

وقد قام عبادة بدور بارز في كثير من أهم الفتوحات الإسلامية فمن أبرز الأعمال الحربية التي اشترك فيها أنه اشترك في فتح الشام فعندما أرسله عمر إلى الشام استخلفه أبو عبيدة بن الجراح على (حمص) عندما ذهب لفتح (اللاذقية) ثم صرفه لفتح (انطرطوس) ففتحها .

ومن أهم الفتوحات التي ظهرت فيها براعته فتح مصر .

عُبادة بن الصامت قائد من قواد فتح مصر :

عندما ذهب عمرو بن العاص لفتح مصر طلب مدداً من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأرسل في أثره اثني عشر ألفا ، وفي رواية أن عمر أمدّ عمرو بن العاص بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف رجل منهم رجل مقام ألف ، وهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت وخارجة بن حذافة ، وقال عمر « إني أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم مقام ألف » .

ولما وصل عبادة إلى مصر اختاره عمرو بن العاص ليكون

دار بينهما فيما سبق ومما يروى في هذا الموقف أن المقوقس قال لعبادة عندما رآه ، وكان أسود اللون ضخما طويلا : تقدَّم يا أسود وكلمني برفق فإنني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليَّ ازددت لك هيبة .

فتقدم إليه عبادة فقال :

قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلّفتُ من أصحابي ألف رجل مثلي وأشد سواداً مني وأفظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني .

وأنا قد وليّتُ وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوّي لو استقبلوني جميعا وكذلك أصحابي .

وبعد أن انهارت المفاوضات نشبت المعارك بين المسلمين والروم وانتصر المسلمون عليهم ، وأراد المقوقس أن يصالح المسلمين على الجزية ، فعاد إلى قومه يحدثهم عن ضرورة الإذعان لما طلبه العرب من الجزية ، وأقره القوم كارهين ، فبعث إلى عمرو يذكر له أنه لا يزال على رأيه في مصالحته وقال له « أعطني أمانا ، أجتمع أنا وأنت ، أنا في نفر من أصحابي وأنت في نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تمّ لنا ذلك جميعا ، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه » .

وأبى أصحاب عمرو ما عرضه المقوقس ، وآثروا الحرب ، حتى تصير الأرض كلها لهم فيئا وغنيمة ، فقال لهم عمرو : قد علمتم ما عهد إليّ أمير المؤمنين في عهده ، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث ، التي عهد إليّ فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم ، فإن قبلوا الجزية حال هذا المال بيننا وبين ما نريد من قتالهم .

وقد كان هذا الرأي من عمرو ، رأي السياسي المحنك والقائد البارع فقد أحدق الماء بالمسلمين من كل جهة لفيضان النيل وصاروا لا يقدرون على أن يتقدموا نحو الصعيد ، ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى فدفعهم إلى القتال خطأ في التقدير .

وانتظارهم هبوط الماء قد يتيح للعدو فرصة ، وقد يجيء للاسكندرية إمداد عدوهم ، ثم إن الروم قد ضعفت قواهم ، وخارت عزائمهم فمن حسن الرأي ، مفاوضتهم وهم فيما هم فيه من هذه الحال النفسية ، حتى لا يبعث اليأس إلى نفوسهم قوة التجلد والاستغاثة .

ولهم من مناعة الحصن ملجأ يستطيعون المقام فيه زمناً طويلا .

أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف .

إلا أن يكونوا غيرهم ما غيّر غيرهم ، فان أتاك كتابي هذا ، فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومُرِ الناس جميعا أن يكون لهم صَدْمَةٌ كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعج الناس إلى الله ويسألونه النصر على عدوهم » .

ولما ورد الكتاب من أمير المؤمنين إلى القائد عمرو بن العاص تلاه على أصحابه وطلب منهم الصبر والمثابرة في الجهاد حتى يفتح الله عليهم مصر .

قال المقوقس لعبادة عندما دخل عليه

« تقدم يا أسود وكلمني برفق فاني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة » .

« المقوقس »

ابن [illegible] بن أبي السرح العامري ، ونافع بن [illegible] الفهري
وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، وابن عبدة ، وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة ، ووردان مولى عمرو بن العاص ، وكان حامل لواء عمرو بن العاص رضي الله عنهم .

وقد اختلف في سعد بن أبي وقاص فقيل : إنما دخلها بعد الفتح وشهد الفتح من الأنصار عبادة بن الصامت وقد شهد بدراً وبيعة العقبة والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري وقد شهد بدرا ، وهو الذي أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مصر فقاسم عمرو ابن العاص ماله ، وهو أحد الذين صعدوا الحصن مع الزبير ابن العوام ، ومسلمة بن مخلد الأنصاري ، يقال له صحبة ، وأبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، وأبو الدرداء عُويمر ابن عامر ، وقيل عويمر بن زيد وغير هؤلاء كثير ولكنا اكتفينا بهذا القدر من المجاهدين نظراً لكثرة عددهم .

عمرو بن العاص يصف مصر لأمير المؤمنين بعد الفتح :

لما استقر عمرو بن العاص على ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ أن صف لي مصر فكتب إليه :

ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر :

اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر «تربة غبراء، وشجرة خضراء ، طولها شهرٌ وعرضها عشر يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له أوان » ، ثم يقول وعندما يكتمل فيضانه .

يأتي القوم يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، ويرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم ، فاذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى .

فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذ هي عنبرة سوداء ، فاذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقرُّ قاطنيها فيها ، ألا لا يُقبَل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يُستأدَى خراجُ ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثُلُثُ ارتفاعها في عمل جسورها وتُرعَها ، فاذا تقرر الحال مع العُمّال في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لله درك يا بن العاص ! لقد وصفت لي خبراً كأني أشاهده .

قال الكندي وغيره من المؤرخين ، فمن فضائل مصر أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعاً منها ما هو بصريح اللفظ ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ فمنه قوله تعالى « اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ » وقوله تعالى يخبر عن فرعون « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي » وقوله تعالى « وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بيوتكم قِبْلَةً » .

وقوله تعالى مخبراً عن نبيه يوسف عليه السلام : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ » ونكتفي بهذا القدر من القرآن الكريم .

أما ما ورد في فضلها من الأحاديث النبوية .

فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما » .

— حديث صحيح ، رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في مستدركه —

قال ابن كثير رحمه الله : والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، لأن أمه هاجر القبطية .

وأنهم أخوال إبراهيم بن رسول الله ﷺ ، لأن أمه مارية القبطية من سني كُورة (أنصينا) وقد وضع معاوية عنهم الجزية إكراماً لإبراهيم بن الرسول ﷺ .

عبادة بن الصامت

قائد فتح الإسكندرية

دعا عمرو بن العاص عبادة بن الصامت ، فأتاه وهو راكب فرسه ، فلما دنا منه أراد النزول فقال له عمرو لا تنزل ، ناولني سنان رمحك فناوله إياه فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد ولاه قتال الروم في الإسكندرية وأمره بالتوجه لفتحها .

عبادة بن الصامت قائد فتح الإسكندرية

لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الاسكندرية ، استلقى على ظهره ثم جلس فقال « إني فكرت في هذا الأمر فاذا هو لا يصلُح آخره إلا بما صَلَحُ أوله يريد الأنصار» فدعا (عبادة ابن الصامت) وعقد له ففتح الله على يديه الاسكندرية .

وفي رواية أن عمراً استشار مسلمة بن مخلد في فتح الاسكندرية ، فأشار عليه أن يعقد (لعبادة بن الصامت) ليباشر القتال ، فدعا عمرو عبادة ، فأتاه وهو راكب على فرسه فلما دنا منه أراد النزول فقال له عمرو : عزمت عليك إن نزلت ، ناولني سنان رمحك فناوله إياه ، فنزع عمرو عمامته عن رأسه ، وعقد له وولاَّه قتال الروم فاستعد عبادة لقتالهم ، وجهز جيشه لهذا الفتح ثم بدأ في حصارهم ، وقد استمر حصار الاسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة أشهر قبل ذلك وقد فتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة ٢٠ هجرية .

الصامت يوم الاسكندرية وكان على قتالها فأغار العدو على طائفة من الناس ، ولم يأذن لهم بقتالهم فسمعني فبعثني أحجز بينهم ، فأتيتهم فحجزت بينهم ثم رجعت إليه فقال: أقُتِلَ أحدٌ من الناس هنالك ؟ قلت لا :

قال الحمد لله الذي لم يقتل أحد منهم .

وقد هزم الله تبارك وتعالى الروم وفتح الاسكندرية وهرب الروم في البر والبحر إلى الاسكندرية فلما علم بذلك عمرو بن العاص ، خَلَّفَ بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ، ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر وقد رجع من هرب من الروم في البحر إلى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم ، وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكرّ راجعاً إليها وفتحها ومعه قائد فتحها عبادة بن الصامت .

فرح المسلمين بفتح الإسكندرية

عندما انتهى عبادة بن الصامت من فتح الاسكندرية أبلغ عَمْرو بن العاص فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبشره بالفتح ويقول له :

« إن الله قد فتح علينا الاسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد »

فرح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية

بعد أن تم فتح الاسكندرية على يد القائد (عبادة بن الصامت) بعث عمرو بن العاص معاوية بن حديج إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بشيراً بفتح الاسكندرية فقال له معاوية : ألا تكتب معي ، فقال له عمرو : وما أصنع بالكتاب ألست عربياً تبلغ الرسالة ، وما رأيت وحضرت ؟ فلما قدم على عمر أخبره بفتح الاسكندرية فخرّ ساجداً وقال « الحمد لله » .

وقد روي عن عبد الله بن يزيد المَعَافري ، عن معاوية بن حديج ، يقول بعثني عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، بفتح الاسكندرية ، فقدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب المسجد ثم دخلت المسجد فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحباً على (ثياب) السفر فأتتني فقالت : من أنت ؟ فقلت أنا معاوية بن حديج ، رسول عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين ، فانصرفت عني ثم أقبلت حتى دنت مني فقالت: قم فأجب ، أمير المؤمنين يدعوك فتبعتها ، فلما دخلت فاذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ، ويشد إزاره بالأخرى افقال ما عندك ؟

فقلت خيراً ، يا أمير المؤمنين ، فتح الله الاسكندرية علينا ، فخرج عمر معي إلى المسجد فقال للمؤذن : أذن في الناس ،

فقمت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس فقال : يا جارية ، هل من طعام ؟ فأتت بخبز وزيت ، فقال كُلْ فأكلت على حياء ثم قال كُلْ فإن المسافر يحب الطعام فلو كنتُ آكلا لأكلت معك ، فأصبت على حياء ، ثم قال يا جارية: هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق فقال كُلْ فأكلت على حياء ، ثم قال ماذا قُلْتَ يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت : أميرُ المؤمنين « قائل » أي في القيلولة .

قال بئس ما قُلت أو بئس ما ظننت ، لئن نمتُ النهارَ لأضيعنَّ الرعية ، ولئن نمتُ الليل لأضيعنَّ نفسي فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟

وقد وصل إلى أمير المؤمنين عمر كتابٌ من عمرو بن العاص بعد ذلك يصف له مدينة الاسكندرية التي فتحها المسلمون بقيادة (عبادة بن الصامت) يقول فيه أما بعد فاني قد فتحت مدينة لا أستطيع أن أصفها لروعتها وجمالها .

وصف مدينة الإسكندرية عندما فتحها عبادة :

لقد بهت العرب عند فتحهم الإسكندرية ، لما شاهدوه من حسن العمارة ، وروعة التخطيط ، وجليل العمران ، وكثرة الدور التي هجرها أصحابها ، فأصبحت أخائذ للفاتحين ،

كما أعجبوا ببياض دورها المتخذة من الرخام الأبيض الناصع البياض ، وبحصانة أسوارها ، وروعة آثارها ، وكثرة مرافقها وليس غريباً أن ينال فتح الاسكندرية هذه الأهمية ، وليس عجيباً أن يذهل العرب عند مشاهدة آثارها الجليلة ، فمنار الإسكندرية ، كان يعد إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم .

وقد حظى هذا المنار بنصيب وافر من وصف المؤرخين ورحالة العرب والأعاجم على السواء .

وعمود (قلديانوس) الذي عرف خطأ باسم عمود (بومبي) كان موضع إعجاب الرحالة العرب ، فأفاضوا في وصفه ، وأسبغوا عليه كثيراً من القصص وسموه عمود (السواري) لضخامته ، وارتفاعه الهائل بين الأعمدة الأخرى التي تحيط به في معبد (السرابيوم) أو القصر كما يسميه الرحالة العرب ثم أطلقوا على باب المدينة القبلي اسم باب العمود نسبة إلى هذا العمود وما زال إسم العمود يطلق في الوقت الحاضر على الجبانة الواقعة خارج باب العمود ، أو باب الشجرة ، أو باب السدرة ، أو باب البهار ، من أبواب الإسكندرية الإسلامية .

ويضاف إلى هذين الأثرين آثار أخرى جليلة كانت تزهو بها الإسكندرية كالمكتبة الشهيرة التي زعموا افتراء وظلماً أن العرب أحرقوا ما كان بها من كتب بأمر عمرو بن العاص ، استناداً على رواية كتاب متأخرين ، منهم ابن العبري (من القرن السابع الهجري) .

ومن آثارها البارزة الملعب المعروف (بالجيمناز يوم) الذي يزعم مؤرخو العرب ، أن عمرو بن العاص ، نزل به مع صاحبه الشماس في الجاهلية لمشاهدة إحدى حفلات القوم ، ومن آثارها البارزة التي رآها العرب عند الفتح ، المسلتان اللتان كانتا في صدر كنيسة (القيصر يوم) واللتان ظلتا قائمتين حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

كذلك كان تخطيط الإسكندرية الرائع عاملا من العوامل التي أثارت إعجاب الفاتحين فشوارعها المستقيمة التي تتقاطع عموديا ، فيما يشبه رقعة الشطرنج وكانت مقنطرة أي تكتنفها البدائل من الجانبين ، وميادينها كانت واسعة تزدان بالتماثيل والأعمدة وصهاريجها الجوفية كانت فسيحة ، بحيث يسير تحتها الفارس ، وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق ومتنفسات للضياء ، ومنافذ للهواء .

وأسوارها كانت منيعة مزوّدة بالحصون والأبراج .

هذه حالة الاسكندرية عند الفتح ، ولذا دهش العرب عندما رأوها وقد كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر يخبره بفتح الإسكندرية وأنه لا يستطيع وصفها وعندما علم عمر بفتحها خرّ ساجداً لله شكراً .

عبادة يشترك مع معاوية بن أبي سفيان في فتح قبرص :

لقد اشترك عبادة بن الصامت في كثير من معارك الإسلام التي خاضها المسلمون في البر والبحر وكتب الله لهم فيها النصر ، ومن المعارك البحرية التي أسهم فيها معركة (قبرص) التي تمت بقيادة معاوية بن أبي سفيان .

عندما غزا معاوية بن أبي سفيان في البحر غزوة (قبرص) الأولى ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها ، وكان معاوية قد استأذن عمر في غزو البحر فلم يأذن له .

فلما ولى عثمان بن عفان كتب إليه يستأذنه في غزو قبرص ، ويعلمه قربها وسهولة فتحها ، فكتب إليه عثمان « أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر ـ رحمه الله ـ حين استأمرته في غزو البحر » .

وعاد معاوية يهون على عثمان ركوب البحر إلى (قبرص) فكتبَ إليه عثمان يقول « فان ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً ، وإلا فلا ! » .

فركب معاوية البحر من (عكا) ومعه مراكب كثيرة وحمل معه امرأته فاختة بنت قرظة وكان يرافقه في هذه الحملة القائد (عبادة بن الصامت) فحمل معه امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية ، فلما وصل المسلمون (قبرص) نزلوا إلى ساحلها فبعث إليهم حاكمها يطلب الصلح وقد أذعن أهلها ،

عدوهم عليهم ، ولا ينصرونهم على عدوهم ، ولكنهم بعد حوالي ثلاث سنوات ، أعانوا الروم على المسلمين في البحر ، فغزاهم معاوية في خمسمائة سفينة ففتح (قبرص) عنوة وقتل وسبى ، ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليهم باثني عشر ألفاً من المجاهدين ، فبنوا بها المساجد ونقل إليها جماعة من (بعلبك) وبنى بها مدينة ، وبقي المجاهدون بالجزيرة إلى أن توفي معاوية .

وقد ظهر لنا في هذا الفتح أثر القائد عبادة بن الصامت الذي كان له أثر حاسم في فتح (قبرص) بجانب معاوية .

كلمة عن جهاده :

لقد ظهر من المعارك التي خاضها القائد العربي المسلم (عبادة بن الصامت) مدى قوته وشجاعته وثباته في المعارك التي خاضها مع رسول الله ﷺ فقد اشترك في بدر وأحد والخندق وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبرهن بذلك على أنه من القواد العظام الذين رباهم الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه .

ثم اختار عمر بعد ذلك ليكون أميراً لِرُبع المدد الذي أمد به عمرو بن العاص ولما ذهب إلى مصر خاض معارك الفتح كلها من وقت وصوله إلى أن انتهى الفتح ، وقد اختاره

عمرو بن العاص ليكون أميراً لوفد المفاوضات مع المقوقس فكان مثال المفاوض القوي الذي يدافع عن حق ، فوقف عندما عرض عليه المقوقس منحة من المال لجند المسلمين ولقائدهم عمرو بن العاص ولأمير المؤمنين عمر : ثم يرحلوا عن مصر .

فقال له عبادة : لا . وَرَبِّ الأرضِ والسماء ...... ، ليس لكم عندنا إلا واحدة من ثلاث : إما الإسلام ، وإما دفع الجزية ، وإما السيف .

وعاد عبادة من المفاوضات منتصراً لأنه لم يرضخ لما يقول هؤلاء المعاندون . ثم بدأت معارك الفتح بعد ذلك وانتصر فيها المسلمون ونشروا كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » في ربوع البلاد التي فتحوها .

ثم ذهب القائد المظفر عبادة بن الصامت إلى الإسكندرية ففتحها ثم اشترك مع معاوية بن أبي سفيان في فتح قبرص ، وظل عبادة مجاهداً مدافعاً عن الحق حتى فتح الله للمسلمين كل بلد أرادوا فتحه .

عبادة يختط لنفسه داراً في مصر والاسكندرية :

عندما وصل عبادة إلى مصر مدداً لعمرو بن العاص ، كان الروم يتحرشون بالمسلمين ، فقد روى أن عبادة بن الصامت وقف يصلي في ناحية وعنده فرسه ، فلما رآه قوم من الروم

الصلاة ووثب على فرسه ثم حمل عليهم ، فلما رأوه ولوا هاربين وتبعهم ، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم . فصار لا يلتفت إليــه ، دخلوا الحصن ورموا عبــادة فوق الحصن بالحجارة ، فرجع ولم يتعرض لشيء مما طرحوه من متاعهم ، حتى عاد إلى موضعه الذي كان فيه ، فاستقبل الصلاة ، وخرج الروم إلى متاعهم وجمعوه ، ولما أتم عبادة صلاته طلب من الله أن ينصرهم ويحقق لهم الفتح ، وقد عزم على أن يختط لنفسه داراً بمصر بعد أن يتم الفتح . ولما حقق الله ذلك اختط عبادة لنفسه داراً إلى جانب أبي رمانة في طريق الذاهب إلى سوق الحمام ، وهي الدار التي كان يسكنها (جوجو) المؤذن ، ودار إلى جنبها فابتاع إحداهما عبد العزيز بن مروان ، فكانت له وصارت الأخرى « لبني مسكين » .

ولما فتح الإسكندرية ودخلها هو وعمرو بن العاص أقبلا حتى علوا الكوم الذي فيه مسجد عمرو فقال معاوية ابن حديج فنزل فيه ، فنزل عمرو بن العاص القصر الذي صار لعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، ويقال إن عمراً وهبه له لما ولي البلد .

وضرب عبادة بن الصامت بناء فلم يزل فيه حتى خرج من الإسكندرية ، ويقال إن أبا الدرداء كان معه .

منزلته عند النبي والصحابة

قال عمر بن الخطاب لعبادة عندما اختلف مع معاوية وذهب إلى المدينة

"ارجع إلى مكانك فقبّح الله أرضاً
لستَ فيها ولا أمثالك"

منزلته عند النبي والصحابة :

(إرجع إلى مكانك فقبح الله أرضا لست فيها ولا أمثالك)

عمر بن الخطاب

لقد كانت منزلة عبادة بن الصامت عظيمة عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعند صحابته والدليل على ذلك ما قام به من أعمال جليلة في سبيل إعلاء كلمة الله .

وكان عبادة من المسلمين الأولين ، وكان نقيبا ، وشهد العقبة الأولى والثانية والثالثة ، وكان يقول : « أنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة » .

وكان ممن جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ ، وقد بايع رسول الله ﷺ : على ألا يخاف في الله لومة لائم ، فكان في كل عمره يعمل ذلك .

وكان معاوية قد خالفه في شيء أذكره عليه في الصرف ، فأغلظ له معاوية في القول ، فقال له عبادة : « لا أساكنك بأرض واحدة أبداً » .

ورحل إلى المدينة فقال له عمر : وما أقدمك ؟ فأخبره فقال له عمر « ارجع إلى مكانك ، فقبح الله أرضا لست فيها ولا أمثالك » .

وكتب إلى معاوية يقول له : « لا إمرة لك على عبادة » وقد ذكر معاوية الفرار من الطاعون ، فأنكر عليه عبادة ذلك فقام معاوية عند المنبر بعد صلاة العصر ، فقال « الحديث كما حدثني عبادة ، فاقتبسوا منه فهو أفقه مني » .

ولعبادة قصص متعددة مع معاوية ، وإنكاره عليه أشياء ، وفي بعضها رجوع معاوية له ، وفي بعضها شكواه إلى عثمان منه ، وكل ذلك يدل على قوته في دين الله ، وقيامه في الأمر بالمعروف .

ولماذا نعجب من ذلك ؟ وقد كان عبادة يعاتب عمر بن الخطاب ، فقد قال عمر لجبلة بن الأيهم : « إن أقمت على دينك فأدّ الجزية » فأنف منها جبلة فقال له عمر : « ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث : إما الإسلام ، وإما أداء الجزية ، وإما الذهاب إلى حيث شئت » .

فدخل بلاد الروم . فلما بلغ ذلك عمر ندم ، وعاتبه عبادة . فقال له : « لو قبلت الصدقة ثم تألفته لأسلم » .

لقد أرسله عمر إلى بلاد الشام يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين وكان قبل ذلك يعلم أهل الصفة القرآن في زمن النبي ﷺ .

وكان عبادة أول من تولى القضاء في فلسطين ، وقد روى عن النبي ﷺ مائة وواحداً وثمانين حديثاً ، وكان أحد أصحاب الفتيا من الصحابة وكان قد تفقه في الدين .

ولاّه أبو عبيدة بن الجراح ولاية حمص ثم صرفه إلى الجهاد في مصر ، ولكنه عاد إلى أرض الشام ، فلم يزل بالشام حتى توفي بالرملة وقيل ببيت المقدس لقد كان عبادة من سادات الصحابة ، وكان محدثاً فقيهاً ، عالماً ورعاً غاية الورع يعمل لعقيدته ، أكثر مما يعمل لنفسه ، بل قد نسي نفسه من أجل عقيدته .

قيادة الحربية

قال الله تعالى في شأن عبادة بن الصامت عندما خلع حلف بني قينقاع واتجه إلى الله ورسوله « ومن يتول الله ورسوله ، والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون »

قرآن كريم

قيادته الحربية :

لقد كان عبادة بطلا له تاريخ مجيد في الحروب والفتوحات ، فقد اشترك في غزوات الرسول ﷺ كلها ، وأثبت بطولة نادرة حازت إعجاب رسول الله ﷺ .

ثم اشترك في فتوحات الشام ، وكان مثال الجندي الشجاع الذي يدافع عن الحق ومن أجل إعلاء كلمة الله .

واشترك في فتح مصر وكان معدوداً بألف رجل في القتال ، وقيمته المرموقة لها سببان ، شجاعته الحربية وإقدامه أولاً وعقيدته الراسخة وإيمانه العميق ثانياً .

كان وجوده – مجرد وجود – في جيش من جيوش المسلمين كافياً لرفع معنويات ذلك الجيش وإقدامه على تحمل أشق أعباء القتال .

إذ كان يثير في نفوسهم النخوة والنجدة بمثاله الشخصي في التضحية والاقدام ، كما كان يفجر في نفوسهم ينابيع الايمان بالقضاء والقدر والتطلع إلى الشهادة في سبيل الله .

حثيثا ، وكان شعوره هذا ينتقل إلى نفوس من يحيط بهم فيعمل في نفوسهم عملا مؤثراً .

وكان يتبرأ من الاحلاف إذا رأى في ذلك ضررا على عقيدته ودينه وقد حدث ذلك مع يهود بني قينقاع .

وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده على ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا منها فصاحت ؛ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله — وكان يهوديا — وشدت اليهود على المسلم : فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالي ! فأبطأ رسول الله ﷺ عليه ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالي فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ ، فقال له : أرسلني ! وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً — أي تغير وجهه حين اشتد غضبه — ثم التفت النبي ﷺ

وقال : ويحك أرسلني ، قال : لا ، والله لا أرسلك حتى تُحسنَ في مواليّ : أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ! إني امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله ﷺ هم لك .

ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله عز وجلّ وإلى رسول الله ﷺ من حلفهم وقال : يا رسول الله أتولّى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ففيه وفي عبد الله بن أبيّ نزلت هذه القصة في سورة المائدة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إنّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمِين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده . فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم » ثم القصة إلى قوله تعالى :

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون (١) » .

---

(١) سورة المائدة : ٥١ ــ ٥٦ .

آمنوا ، وتبريه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم : « ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

وبهذا يتبين لنا مدى صلابة عبادة في الدفاع عن دينه وتركه الحلف ما دام فيه مساس بالدين .

ولقد كان بالإضافة إلى تمسكه الشديد بعقيدته وتفانيه في خدمتها راجح العقل ألمعي الذكاء يبذل قصارى جهده للحصول على معلومات كافية عن عدوه ، لذلك كانت خططه صائبة دائماً ، كما كان لماضيه المجيد في خدمة الإسلام أثر كبير في حب رجاله له ، وثقتهم الكاملة به ، وكان بدوره يبادلهم حبّاً بحب وثقة بثقة .

وكان يدقق كثيراً (في اختيار مقصده وإدامته) .

ويبذل كل جهد لإنجاز (تحشيد قواته) ويحرص غاية الحرص على عدم إعطاء خسائر لا مبرر لها في الأرواح ، وذلك باتخاذ تدابير (الأمن) وكان (يديم معنويات) رجاله ويؤمن لهم احتياجاتهم العسكرية .

إن عبادة قائد ملهم وقائد عقائدي من الطراز النادر .

الأمجاد التاريخية لعبادة :

يذكر التاريخ لعبادة بن الصامت ، أنه كان أحد أثني

عشر نقيبا كان لهم الأثر البعيد في نشر الإسلام بين الأوس والخزرج من أهل المدينة المنورة فمهدوا لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه إليها وجعلها القاعدة الأمينة لنشر الإسلام بعد الهجرة .

ويذكر له التاريخ جهاده المتواصل تحت لواء الرسول القائد لحماية حرية نشر الدعوة الإسلامية .

ويذكر له جمعه القرآن الكريم وروايته لكثير من السنة النبوية وعمله الدائب في تفقيه الناس بالمدينة وأرض الشام .

ويذكر له أنه من أوائل قضاة المسلمين الذين كانوا بأقوالهم وأعمالهم أسوة حسنة لقضاة المسلمين في كل زمان ومكان .

ويذكر له صلابته الفذة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تجاه أمير المؤمنين ، وأمراء الأمصار وقادة الجيوش .

ويذكر له فتحه بلداً في الشام ومدينة الإسكندرية في مصر وإثارته ينابيع التضحية والفداء في جيوش المسلمين المجاهدة لفتح الشام ومصر إنه أمة في رجل ... إنه مدرسة كاملة .... إنه نسيج وحده ، رضي الله عن الصحابي الجليل ، النقيب الأمين ، المحدث الفقيه ، القاضي العادل ، القائد الفاتح ، عبادة بن الصامت الأنصاري .

كان عبادة بن الصامت ، رجلا ، طويلا جسيماً ، جميلا ، مات بالرملة من أرض الشام سنة أربع وثلاثين من الهجرة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وله عقب .

قال محمد بن سعد : سمعت من يقول : إنه بقي حتى توفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان بالشام رضي الله عنه .

لقد كان عبادة من سادات الصحابة ، وكان محدثاً فقيهاً عالماً ورعاً غاية في الورع ، يعمل لعقيدته ، أكثر مما يعمل لنفسه ، بل قد نسي نفسه من أجل عقيدته .

المراجع

١ — الاستيعاب في معرفة الأصحاب — ابن عبد البر — مطبعة نهضة مصر

٢ — الاصابة في تمييز الصحابة — أحمد بن علي الكناني العسقلاني م دار السعادة بمصر سنة ١٣٢٣ م

٣ — أسد الغابة في معرفة الصحابة — ابن الأثير م الإسلامية طهران سنة ١٣٧٧ هـ

٤ — الفاروق عمر — د . محمد حسين هيكل

٥ — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — ابن تغري بردى

٦ — تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي — د . السيد سالم

٧ — تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون

٨ — غزوة بدر الكبرى — محمد أحمد باشميل

٩ — طبقات ابن سعد — ابن سعد لله بيروت سنة ١٣٧٦ هـ

١٠ — فتح مصر — ابن عبد الحكم

١١ — فتوح البلدان — البلاذري — م السعادة بمصر سنة ١٩٥٩ م

١٢ — قادة فتح مصر والشام — محمود شيت خطاب

١٣ — محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية — الشيخ محمد الخضري

الفهرس

صفحة

مقدمة ٥
مصر في بداية الفتح الإسلامي ٩
عبادة يرأس وفد المفاوضات إلى المقوقس ١٥
عبادة يتبرأ من حلف بني قينقاع ٢٥
قال المقوقس لعبادة عندما دخل عليه ٣٧
عبادة بن الصامت ٤٥
منزلته عند النبي والصحابة ٥٧
قيادته الحربية ٦٣
المراجع ٧١

عظماء مجهولون
٣

تجد عددا من قصص الصحابة رضوان الله عليهم
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

عبد الله بن جحش

رضي الله عنه

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص . ب ١١/٣٧٧١ ــ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ــ برقياً : اسلاميا
دمشق : ص . ب ٨٠٠ ــ هاتف ١١١٦٣٧ ــ برقياً : اسلامي

ابن عمة رسول الله

عبد الله بن جحش رضي الله عنه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه وبعد : فقد عاش العرب في جزيرتهم التي قلّ فيها الخير وكثر الجدب ، عاشوا قبائل متنقلة ترتاد مواطن الكلأ وتسعى وراء مواضع الماء ، لكل قبيلة حمى معروفة ومنازل لا تتعداها ، اذا أتت سنوات عجاف على أماكن قبيلة تجاوزت حدودها ، ودخلت في حمى غيرها ، وكثيراً ماحدثت الحروب بين القبائل نتيجة هذه التعديات ، وقامت الخلافات بسبب هذه التجاوزات ، فكانت القوة أملاً ، والصبر في ساحات القتال بغية ، والثبات في مواقف الشدائد غاية ، وكل شيء يدل على القوة أو الصبر يسعى الناس إليه ولو كان مجرد أسماء يتغنون بها أو يتفاءلون بها ، ومن هنا أطلقت على أشخاص أسماء حيوانات عرفت بالقوة أو الصبر ، فكانت التسمية أسداً وجحشاً ، وكانت تسمية الصحابي الجليل عبد الله بن جحش رضي الله عنه ، أو كان اسم والده (بُرة) أو لقبه الذي عرف به لقوته وجلادته .

وكذا من كان يبدي بين أفراد قبيلته شجاعة في حروبها وقوة على خصومها يعدّونه قذى في أعين الأعداء وشجىً في حلوقهم ، غضباً عليهم وقاسياً في ملاقاتهم، يذيقهم المر ، ويسقيهم كأس الردى

لهذا أطلقوا اسم الأشياء المرة القاسية على أبنائهم أملا في أن يكونوا كذلك على خصومهم ورجاء بأن ينشؤوا اصحاب قوة وشجاعة ونخوة وشهامة ، فكانت عندهم أسماء « شوكة » و « طلحة » و « قتادة » و « عرقجة » و « عوسج » .

وتتقاتل القبائل بعضها مع بعض ، وينضم قسم منها الى جانب آخر فكانت الأحلاف ، وكان الولاء ، وكانت المواثيق التي لاتنقض لذا كان الوفاء من أجمل الصفات التي امتاز بها الفتى العربي . ولما عرف الكلب بوفائه لصاحبه لذا شاعت عند العرب أسماء تحمل هذا الاسم أو ترادفه ومنها « كليب بن وائل » سيد تغلب ، وكان «قصي ابن كلاب» جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعلى وسيد قريش. وكانت قبيلة « كلب » التي انتشرت عند ظهور الاسلام في شمال جزيرة العرب .

وهذا الامر معروف في كثير من المناطق حيث تؤخذ الأسماء من البيئات التي تحيا فيها الجماعات.فالبلاد التي عرفت بورودها المتنوعة وزهورها الفواحة أعطت بناتها أسماء تلك الورود فكانت عندهم « عطرة » و « ريحانة » و « فلة » و « زهرة » و « وردة » ،وكانت في فيافيها أسماء « ظبية » و « مها » و « لينة » ، وفي بلاد السواحل « مرجانة »، وقد تكون الاسماء من باب الاضداد أو التفاؤل،فتكون أسماء الورود في الصحارى ، وأسماء البياض في المناطق الحارة ذات السكان أصحاب البشرة السوداء .

لم يكن « عبد الله بن جحش » رضي الله عنه من قبيلة قريش

وبطونها الاثني عشر ، وإنما كان يجتمع مع هذه البطون في الجد العاشر وهو « خزيمة بن مدركة » ، ولم تكن هذه القرابة لتجعله في منزلة قريش التي لها مركز الصدارة بين العرب جميعهم لمكانها من البيت ، وإنما كان عليه أن يكون حليفاً لبعض البطون أو الأفخاذ ، وقد كان حليف بني عبد شمس بطن عبد مناف الثاني .

كان « بَرة » والد « عبد الله » على درجة من القوة والشجاعة الأمر الذي جعله يلقب بـ « جحش » حتى غلب عليه ، وكان على مكانة من الصدارة، الأمر الذي جعله أهلاً لأن يتزوج « أميمة بنت عبد المطلب » ، وقد كان والدها « عبد المطلب » آنذاك سيد مكة وزعيم قريش كلها ، وقد أولدها « عبد الله » و « عبيد الله » و « عبد » من الذكور و « زينب » و « حمنة » و « أم حبيب » من الإناث ،وورث هؤلاء الأولاد من أبيهم « جحش » القوة والشجاعة، ومن أمهم « أميمة » المجد والوجاهة الى جانب القوة والشهامة .

كانت « أميمة بنت عبد المطلب » شقيقة « عبد الله » والد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كانت أمها « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومي » لذا كانت الصلة قوية بين البيتين والعلاقة قائمة .

بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانطلقت الدعوة ، ووصلت إلى بيت « أميمة بنت عبد المطلب » فآمن أفراده كلهم ، وإن كان يشك في إسلام الأم حيث تختلف الروايات إلا أن الأبناء جميعاً قد اعتنقوا الدين الجديد فان أكثر من يعرف حقيقة المرء أقرب الناس إليه وأكثرهم التصاقاً به واتصالاً معه،وقد عرفت هذه

كنانة
النضر
مالك
فهر (قريش)
غالب
لؤي
كعب
مرة
كلاب
قصي
عبد مناف
هاشم
عبد المطلب
عبد الله
محمد صلى الله عليه وسلم
عبد شمس
امية
اسد
دودان
غنم
كبير
مرة
صبرة
يعمر
رئاب
جحش
عبد الله
عبيد الله
عبد
(ابو أحمد)

الأسرة صدق محمد صلى الله عليه وسلم لما كان بينهما من صلة ، وعلموا من احتكاكهم به أنه لا يمكن أن يكذب على أحد ، ومن كانت هذه صفته لا يمكنه أبداً أن يكذب على الله ، كما كانوا يعلمون هم وأهل مكة جميعاً أن صفات محمد صلى الله عليه وسلم تؤهله أن يكون نبياً ، وإذا كانت الزعامة قد أعمت أصحابها فوقفوا في وجه الدعوة إلا أن العقول السليمة قد استجابت لها ، وانخرطت في صفوف حملتها . كما أن « عبيد الله بن جحش » أحد أفراد هذه الأسرة كان من الذين ينتقدون دين قومهم وماهم عليه من الشرك وعبادة الأوثان ، وقد التقى هؤلاء الناقدون وهم : «ورقة بن نوفل» و « عبيد الله بن جحش » و « عثمان بن الحويرث » و « زيد بن عمرو بن نفيل » ، وقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ! لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم ! ماحجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . ياقوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شيء . فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية ، دين إبراهيم . وأقام « عبيد الله بن جحش » على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ، ومعه امرأته « أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان » مسلمة ، فلماقدمها تنصّر ، وفارق الاسلام ، وانقطع مابينه وبين المسلمين من صلات ، ثم هلك هنالك نصرانياً ، وأما امرأته فقد فارقته بعد أن ارتد ، وخطبها النجاشي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها ، وكانت في عداد أمهات المؤمنين رضي الله عنها .

الاسلام قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار « الأرقم بن أبي الأرقم » ، ولم يزد عدد المسلمين آنذاك على الأربعين مسلماً .

اشتدت قريش على من أسلم من رجالها ومواليها . ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه « أبو طالب » ، وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فان بها ملكا لايظلم عنده أحد،وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الاسلام . وهكذا فان على المسلمين أن يهاجروا الى أية بقعة تتوفر لهم فيها سبل الدعوة والعمل بشريعة الله بغض النظر عن موقعها من الأرض وجنسية أبنائها ، ولا تكون الهجرة إلا إذا صعبت عليهم الحياة في المكان الذي يعيشون فيه ، وامتنعت عليهم امكانيةممارسة شعائرهم والقيام بالدعوة إلى دينهم . وبلغ عدد المسلمين الذين هاجروا إلى هناك ثلاثة وثمانين مسلما سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارا .

كان عبد الله بن جحش رضي الله عنه من المسلمين الذين هاجروا إلى أرض الحبشة ، ومعه أخوه آنذاك « عبيدالله بن جحش »،

وبعد حياتهم هناك مدة من الزمن تنصر « عبيد الله » وانتهت الأخوة بين الشقيقين ، ووصل خبر إلى المهاجرين مفاده أن أهل مكة قد أسلموا ، وأن بلدهم التي أخرجتهم قد غدت دار أمان وطمأنينة لإخوانهم ، وأن العودة قد أصبحت واجبة عليهم لينهلوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا قد عانوا من هجرتهم ما عانوا لقلة عددهم ، فما إن وصل إليهم خبر إسلام أهل مكة حتى رجع بعضهم ، ولا يزيد عدد أولئك الذين رجعوا على الثلاثة والثلاثين مسلماً كان بينهم « عبد الله بن جحش » رضي الله عنه ، وبقي بأرض الحبشة خمسون مسلماً .

وصل المسلمون العائدون الى مكة فوجدوا أن الخبر الذي بلغهم غير صحيح ، ولم يستطع بعضهم دخول بلده إلا بعد أن دخل في جوار بعض الزعماء والمتنفذين من أهل مكة .

عاش « عبد الله بن جحش » في مكة بعد عودته من الحبشة مؤمناً بما يأتي من عند الله مصدقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما يقول ، ولم يكن يريد عرضاً من أعراض الدنيا بل كان زاهداً بكل ما فيها ، يريد أن يعيش في زاوية منها يطلب الآخرة ويعمل لها .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب نصرة « ثقيف » في الطائف ، ويعرض نفسه على القبائل ، ويجد الرد والتهكم والصد والسخرية ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم ومن بينهم « عبد الله بن جحش » لا يثنيهم صد العرب وقلة العدد وضعف

تعترض سبيلهم ، فقد سمعوا قول نبيهم صلى الله عليه وسلم «حفّت الجنة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات» ، فالمسلم يصبر في الشدة ، وتقوى عزيمته في المحن . وأخيراً عرض الرسول الكريم نفسه في أحد المواسم على الأوس والخزرج من أهل يثرب فوجد آذاناً صاغية وقلوباً مفتحة للإيمان ، وآمن النفر الذين التقى بهم رسول الله ، وبدأ الاسلام ينتشر في يثرب ، واتجهت أنظار المسلمين نحو تلك المدينة، فهاجر أول من هاجر إليها « أبو سلمة عبدالله بن عبد الاسد المخزومي » ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن خالته « عبد الله بن جحش » إذ اشتدت عليه قريش بعد عودته من الحبشة ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، فخرج مهاجراً ، وذلك قبل بيعة العقبة بحوالي العام . ثم انطلق بعده مهاجراً « عامر بن ربيعة » ثم « عبد الله بن جحش » ومعه أخوه « أبو أحمد عبد » ، وكان ضريراً وشاعراً ، وأخواته « زينب » و « حمنة » و « أم حبيب » ومعهم « الفرعة بنت أبي سفيان » وكانت زوج « عبد بن جحش » ، وغلّقت دار بني جحش ، فمر بها « عتبة بن ربيعة » و « العباس بن عبد المطلب » و « أبو جهل عمرو بن هشام » فنظر « عتبة » الى الدار تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها
يوماً ستدركها النكباء والحوب(١)

---

(١) الحوب : التوجع .

أصبحت دار بني جحش خلاءً من أهلها ، فقال أبو جهل :

وما تبكي عليه من قُلٍّ (١) بن قُلِّ
كلُّ بني مرةٍ مصيرهم قُلُّ
وإن أكثرت من العدد

ثم قال أبو جهل : هذا عمل ابن أخي هذا ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا ، وكان منزل هؤلاء المهاجرين الأوائل قباء .

واستدار العام وأتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فالتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الاولى على بيعة النساء (٢) ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب ، ولما انصرف القوم أرسل معهم « مصعب بن عمير » رضي الله عنه ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم في الدين .

---

(١) القُلُّ : الواحد .

(٢) بيعة النساء : يقصد بها بيعة لا قتال فيها ، إذ كانت مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم للنساء ان يأخذ عليهن العهد والميثاق فإذا اقررن بألسنتهن قال : قد بايعتكن ، وقد وردت بيعة النساء في القرآن الكريم « ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

[illegible]

من أهل الشرك حتى إذا قدموا مكة ، واعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته ، والنصر لنبيه ، واعزاز الاسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله .

لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة في الحرب ، ولم تحل له الدماء؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من بلادهم . فهم بين مفتون في دينه ، ومعذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً منهم : فبعضهم بأرض الحبشة ، وبعضهم بالمدينة ،وفي كل وجه : فلما فعلت قريش هذا الفعل ، وعتت عن أمر ربها أذن الله عز وجل لرسوله في القتال ،والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، ونزل قوله تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

وكانت بيعة العقبة الثانية بيعة الحرب ، فقد قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وكان أحد الذين بايعوا بيعة العقبة الأولى ــ بيعة النساء ــ وبيعة العقبة الثانية ــ بيعة الحرب ــ

« بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب على السمع والطاعة : في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، والا ننازع الأمر أهله ؛ وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم » .

وأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى يثرب التي عرفت فيما بعد باسم « المدينة المنورة » .

عبد الله يطلب الجنة

لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم في مكة مهاجرين إلى المدينة ، عدا عليها (أبو سفيان بن حرب) حيث كانت ابنته (الفرعة) عند (أبو أحمد عبد بن جحش) ، كما كانت ابنته الثانية (أم حبيبة رملة) عند (عبيد الله بن جحش) وهو في بلاد الحبشة متنصر ، وباع أبو سفيان الدار ا (عمرو بن علقمة) ، فلما وصل الخبر إلى بني جحش في المدينة ماصنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك (عبد الله بن جحش) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى ياعبد الله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة ؟ قال : بلى ، قال فذلك لك .

واستشهد عبد الله رضي الله عنه في غزوة أحد طالباً الجنة راغباً بدار فيها بدل من داره في مكة والتي باعها أبو سفيان .

وعندما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، كلمه أبو أحمد في دارهم ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس لأبي أحمد : يا أبا أحمد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل ، فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لأبي سفيان :

أبلـغ أبا سفيـان عـن — أمر عـواقبـه نـدامـة
دار ابن عمـك بعتهـا — تقضي بها عنك الغرامـة
وحليفكـم بـالله رب — النـاس مجتهـد القسامة
اذهـب بهـا اذهب بها — طوقتها طـوق الحمامـة

وهكذا فان الانسان الذي يطلب الجنة لن يبحث في متـاع هذه الدنيا الفانية ، ولو أنه ملك الارض كلها وأسمع مقابلها بالجنة لتنازل عن كل ما يملك دون تردد وفي سبيل الله على أن ينال شيئاً في الجنة ، أو يحصل على أجر أو تمحى عنه سيئة ويوضع عنه وزر ، ولهذا فعندما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله رضي الله عنه في شأن الدار لم يكن لديه جـواب سوى بلى دون تردد أو تأخـير .

العقيدة رباط الحياة

لما ارتد (عبيد الله بن جحش) في الحبشة ، وتنصر ، وعاد شقيقه (عبد الله) رضي الله عنه إلى مكة ، وثبت على الإيمان ، ثم هاجر إلى المدينة ، انقطع ما كان بين الشقيقين من صلة وما كان بينهما من أخوة ، وغدا كل واحد منهما يسير في طريقه الذي تقتضيه عقيدته ليس بينهما أية رابطة ، فـ (عبد الله) رضي الله عنه قد نسي (عبيد الله) تماماً ، ولم يعد يذكره أبداً ، وأصبح إخوته هم الذين يعيش معهم في المدينة من المهاجرين والأنصار ، وإن لم يكن بينهم صلة نسب أو قرابة رحم أو رابطة جنس فالعقيدة هي رباط الحياة والصلة بين الأفراد « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

عَبْدُاللهِ يَطلبُ الشَّهَادَةَ

كان عبد الله بن جحش رضي الله عنه مدة إسلامه كلها هادئاً لايظهر شجاعة على الرغم من أنه أعطيها ، ولم يبد قوة مع امتلاكه لها ، ولا يريد زعامة على الرغم من مؤهلاته ، ولا يبغي قيادة مع إمكاناته الفذة ، وإنما يريد أن يحصل على الأجر ويتقرب الى الله بالعبادة وتنفيذ أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما استقر المسلمون بالمدينة بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل السرايا ، ويجهز الغزوات ، ويختار لها الابطال من المهاجرين والانصار ليثبت مركز المسلمين ويستعيض بعض ما تركه المهاجرون من مكة ، وليجبر قريش على المهادنة والاعتراف بالاسلام وهي في حالة حرب بينها وبين المسلمين في المدينة .

وفي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكان عددهم ثمانية وهم : سعد بن أبي وقاص ، عتبة بن غزوان ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، عكاشة بن محصن ، عامر بن ربيعة ، واقد بن عبد الله ، سهيل بن بيضاء ، خالد بن البكير ، وجعل عليهم عبد الله بن جحش وكتب له كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً . فلما سار القائد يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فاذا فيه :

والطائف ، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم . فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى (نخلة) ، أرصد بها قريشاً ، حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق . ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه منهم أحد . وفي الطريق أضل (سعد بن أبي وقاص) و (عتبة بن غزوان) بعيراً لهما ، كاد يعتقبانه ، فتخلفا عنه في طلبه . ومضى (عبد الله بن جحش) وبقية أصحابه حتى نزل (نخلة) ، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً ، وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ومعه جماعة ، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم ، وتشاور الصحابة في العير ، وكان آخر يوم من رجب ، وقالوا : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فترددوا ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليهم منهم وأخذ ما معهم . فشدوا عليهم ، وقد استطاعوا قتل (عمرو بن الحضرمي) ، وأسر (الحكم بن كيسان) و (عثمان بن عبد الله) وأخذ العير ، وأقبلوا بما حصلوا عليه الى المدينة . وكان ابن الحضرمي أول قتيل قتله المسلمون ، والاسيران أول الذين أسروا .

القائد الخائف

وصل القوم الى المدينة ، وقدموا ما حصلوا عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . فوقف العير والاسيرين ، وأبى ان يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم اخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان . وخاف (عبد الله بن جحش) رضي الله عنه وأصحابه وبخاصة أن الناس قد أكثروا من الحديث في هذا الموضوع حتى أنزل الله سبحانه وتعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » . فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسيرين .

أرسلت قريش تطلب فداء أسيريها ، فرفض رسول الله صلى

فلما قدما فداهما . فأما (الحكم بن كيسان) أحد الأسيرين فقد أسلم وحسن إسلامه ، وقتل شهيداً في غـزوة بئر معونة في السنة الثالثة للهجرة رضي الله عنه ؛ وأما (عثمان بن عبد الله) فقد لحق بمكة ومات كافراً .

القائد الملهم

وفي أثناء الطريق ــ طريق العودة إلى المدينة ــ قال (عبد الله ابن جحش) رضي الله عنه لأصحابه : إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمنا الخمس . وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغانم ، فلما وصلوا إلى المدينة ، واقبض ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بعد انفراج الغمة ــ عزل خمس العير ، وقسم سائرها بين أصحاب (عبد الله بن جحش) رضوان الله عليهم ، وقد نزل القرآن الكريم بهذا بعد غزوة بدر الكبرى بعد التساؤل عن الغنائم (الانفال) « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .

لما نزل من القرآن الكريم بهذه الحادثة ما أنزل ، وتجلى عن (عبد الله بن جحش) وأصحابه ما كانوا فيه ، طمعوا أن يكون لهم أجر المجاهدين في سبيل الله ، وأن تكون أعمالهم أعمال الغزو والجهاد . فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم » . فأعطاهم الله بذلك الأجر ، ووضعهم على أحسن الرجاء .

وكانت غنيمتهم هذه أول غنيمة غنمها المسلمون .

وقال عبد الله بن جحش يذلك :

تعدون قتلا في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به والله راءٍ وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله	وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد الحرب واقد[1]
دماً وابن عبد الله عثمان[2] بيننا	ينازعه غلٌ من القِد عاند

(١) واقد بن عبد الله هو الذي أوقد الحرب وقتل ابن الحضرمي بسهم .

(٢) عثمان بن عبد الله الذي أخذ أسيراً ، ويبدو أن الشاعر لم يذكر (الحكم بن كيسان) حيث دخل في الاسلام وحسن إسلامه .

عبد الله في بدر

وخرج المسلمون بعدها يعترضون عيراً لقريش في طريقها الى الشام ولكنها أفلتت منهم ، فعادوا الى المدينة ينتظرون رجوعها ، وما إن بلغهم خبرها حتى خرجوا يريدونها إلا أن خبر خروجهم قد وصل إلى مكة ، وخرج المشركون ، والتقى الجمعان أحدهما يريد القتال ومتأهب له ، والآخر يريد العير وغير مستعد للحرب ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون • وكان أمر الله مفعولا ، والتقى الجمعان ، فنصر الله عباده المؤمنين ، وأذل أعداءه المشركين •

وكان (عبد الله بن جحش) رضي الله عنه في جملة الـذين خرجوا ، وأبلى بلاء حسناً ، وخاض القتال بكل بسالة ،الأمر الذي جعل قريشاً تحقد عليه حقداً عظيماً ، وتريد الانتقام منه ، وهو في قتاله لا يريد أن يرتفع اسمه ، ولا يعلو شأنه ، وإنمـا كان يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ويرجو لو ظفر بالشهادة ، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة •

وانتصر المسلمون في بدر ، وعادوا إلى مدينتهم مع رسولهم الكريم ، وقد ارتفعت راية الاسلام وعلت مكانته وانحطت كلمة قريش وقل شأنها ... وأرادت قريش الثأر وإعادة مكانتها إليها ، فخرجت بقوتها وجبروتها ، وخرج المسلمون لملاقاتها ظاهر المدينة ، والتقى الجمعان في سفوح جبل أحد الجنوبية ... وأراد الله ابتلاء المسلمين .... وكانت إرادة الله .

كان (عبد الله بن جحش) رضي الله عنه في طليعة الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان له أن يتخلف عنه بعد أن أكرمه الله بالاسلام ، وما كان ليفضل نفسه على نفس رسوله الكريم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وانطلق عبد الله رضي الله عنه يقاتل في كل ميدان ، وينتقل من مكان إلى آخر حتى ملأ قلوب أعداء الله حقداً عليه ، وأخيراً استشهد رضي الله عنه ، ووقعت جثته بأيدي قريش فمثلت بها ، ولم تمثل إلا بها وبجثة الحمزة رضي الله عنه ، ولكن لم يبقر كبده .

وارى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهداء المسلمين ، ودفن عنه الحمزة وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد ...

وهكذا انتهت حياة هذا الصحابي الجليل شهيداً في سبيل الله، رضي الله عنه وأرضاه .

سلسلة بطولات إسلامية

— ٤ —

عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه

قائد الفرقة الاستشهادية في اليرموك

تأليف

د. محمد إبراهيم نصر و محمد مصطفى سلام

تجد عددا من القصص والسير
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

منشورات
دار اللواء للنشر والتوزيع
الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

عكرمة بن أبي جهل

« لمّا كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله ﷺ الناس إلاّ أربعة نفر وامرأتين قال « اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة » .

فمن هؤلاء النفر ؟ وماذا صنعوا حتى اشتد بهم غيظ النبي ﷺ ؟! وخرج عن مألوف صفاته في الحلم ، والرحمة ، والعفو والرأفة ، والغفران ؟!

هؤلاء النفر هم : عِكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن خَطل ، ومِقْيَس بن صبابة ، وعبد الله بن سعد ، وأما المرأتان فهما : قَرْتَنَى وصاحبتها ، وكانتا جاريتين لعبد الله بن خطل ، تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ .

ولكلٍّ واحدٍ من هؤلاء الذين استباح النبيّ ﷺ دماءهم ، وأهدر حرماتهم — قصةٌ تجعل إهدار دمه بمقياس الشّريعة الإسلامية أمراً مقرراً ، وفرضاً محتوماً .

والذي يعنينا هو : أن نعرف قصة « عكرمة بن أبي جهل » ولماذا حكم عليه النبيُّ ﷺ بالقتل ، ولو كان متعلقاً بأستار الكعبـــة ؟

ما قصته ؟ وما خبره ؟ وماذا ارتكب من جرم حتى حكم عليه بالقتل ؟

الله ﷺ قد قسم أصحابه إلى أقسام ، ورتّب صفوفهم ، وجعل على الجناح الأيسر « الزُّبير بن العوّام » وأمره أن يدخل مكة من مكان يسمّى « كُدَيّ » . وجعل « خالد بن الوليد » على الجناح الأيمن من الجيش ، وأمره أن يدخل مكة من مكان يسمّى « اللّيط » أسفل مكة ، وكانت معه قبائل أسلم ، وسُليم ، وغِفار ، ومزينة ، وجهينة . وكان « أبو عبيدة بن الجراح » قائداً على الرجالة ، والذين لا يحملون سلاحاً فانحدر بأصحابه بين يدي رسول الله ﷺ . ودخل رسول الله ﷺ من مكان يقال له « أذاخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له هناك قبته .

* * *

وأمر النبيّ ﷺ قواده أن يذيعوا بين أهل مكة نداء السلام والأمان ، وهو : يا معشر قريش ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .

وأمر عليه السلام أصحابه : ألا يبدأوا بقتال ، وألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلاّ نفراً قد سمّاهم ، أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم : « عكرمة بن أبي جهل » .

* * *

كان « عكرمة » شديد العداوة لرسول الله ﷺ ورث هذه

العداوة في جاهليته عن أبيه أبي جهل ، وكان اسم أبيه «عَمْراً» وكنيته « أبو الحكم » فكناه رسول الله ﷺ « بأبي جهل » حتى غلبت عليه هذه الكنية ، واشتهر بها بين الناس ، ونسي اسمه الأصلي ، وكنيته الحقيقية ... « ومن يشابه أباه فما ظلم » ! !

لقد اشتد أبو جهل وابنه عكرمة على المسلمين ، وآذوهم إيذاء شديداً ؛ حتى فرّ بعضهم من هذا الظلم إلى الحبشة ، واستجار بعضٌ آخر بالمشركين ذوي الحول والطول ، ولكن عكرمة مع ذلك لم يكف أذاه ، ولم يمنع شرّه ، وشجع الشعراء على هجاء النبي وأصحابه وحضر مجالس الجواري اللائي كنّ يتغنين بسب النبيّ عليه السلام ، والنيل منه ومن أصحابه .

بعض ما صنع أبو جهل :

لما انتشر الإسلام في مكة بين الرجال والنساء ؛ كانت قريش تحبس من تقدر على حبسه ، وتَفْتِنُ من تستطيع فتنته .. وقرّ رأيها على مجابهة محمد فاجتمع أشرافها من كل قبيلة ، وفي طليعتهم أبو جهل بن هشام ، ثم أرسلوا إلى محمد وطلبوا إليه أن يحضر إليهم ؛ فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظن أنهم قد استجابوا لدعوته — وقد كان حريصاً على هدايتهم ورشدهم ، ويعزّ عليهم عنتهم وإعراضهم .

فقالوا له : يا محمد ، إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب

لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسببت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ؟ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك مسٌ من الجن بذلنا لك أموالنا في طلب الطبّ لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بي شيء مما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : يا محمد ، فإن كنت لا تقبل منا شيئاً مما عرضنا عليك ، فإنك قد علمت أن ليس من الناس أحدٌ أضيق بلداً ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشاً منّا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليُسيِّر عنّا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق

وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم « قُصَيّ بن كلاب » فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، أحقّ هو أم باطل ؟ فإن صدّقوك وصنعت ما سألناك صدّقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : « ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربّك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً ، وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنّك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولاً فيما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : فأسقط علينا كسفاً من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإنّا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

بكم فعل » .

قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدّم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، إن لم نقبل منك ما جئتنا به !! إنه قد بلغنا أنّه إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له « الرحمن » [1] المعروف بمسيلمة بن حبيب الحنفي ، وإنّا والله لا نؤمن به أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتّى نهلك ، أو تهلكنا .

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترونه من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسبّ آلهتنا ، وإني أعاهد اللات لأجلسن له غداً بحجرٍ ما أطيق حمله إلا بمشقة فإذا سجد في صلاته حطمت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم !!

قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس

---

(١) كان مسيلمة بن حنيفة المشهور بمسيلمة الكذاب قد سمّى نفسه بهذا الإسم في الجاهلية ، وكان من المعمرين .

لرسول الله ﷺ ينتظره ، وجاء رسول الله فقام يصلي وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما يفعله أبو جهل .. فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً ، مرعوباً ، منتقع اللون ، وقد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده .

وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا مثل عنقه ولا أنيابه لفحل قط ، فهمّ بي أن يأكلني !!

عكرمة في غزوة بدر

قال ﷺ : « الحمد لله الذي أخزى عدوّ الله ، لقد كان أبو جهل فرعون هذه الأمة » .

وفي غزوة بدر :

(يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان)

أثار « أبو جهل » حماسة قريش ، بعد أن كادت جموعهم ترجع إلى مكة بغير قتال فقال : والله لا ترجع إلى مكة حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، ثم تزايد غضبه فجرّد سيفه في عصبية زائدة ، وضرب به متن فرسه ، وعرّض بالذين يريدون العودة ، ورماهم بالجبن ، فتغلّب الطيش على العقل والروية ، وعجّل أبو جهل بالمعركة ، وثبت معه جماعة من هيئة أركان حربه ـ فيهم ابنه عكرمة ، أخذوا يدافعون عنه ، وضربوا حوله سياجاً من سيوفهم ، وأقاموا حواليه غابات من رماحهم يصدّون بها كلّ من حاول الوصول إليه .

ولكنّ العاصفة كانت أقوى ، فقد مزّقت رياح النّصر العاتية سياج السيوف واقتلعت غابات الرماح المزروعة حول أبي جهل حيث طارت هذه الرماح أمام حماسة المسلمين وقوّة

[illegible] وهم يرددون « أحَدٌ ، أحد ». وأهوت سيوف الإسلام إلى دعامة الشرك الكبرى فخرّ أبو جهل صريعاً يتخبط في دمه، بعد أن قاتل قتالاً ضارياً .

وكان الذي صرع أبا جهل هو « معاذ بن عمرو » بن الجموح أحد الأنصار الذين شهدوا بيعة العقبة . فقد ظل يترقبه حتى سنحت له الفرصة : عندما بانت له فرجة في نطاق الرماح المضروبة حوله ، فانقض نحوه كالصقر ثم ضربه ضربة بترت قدمه مع نصف ساقه ، فخرّ صريعاً يتخبط في دمائه .

غير أنّ ابنه « عكرمة » الذي كان بجانب أبيه .. لم يدع « معاذ بن عمرو » يفر من أمامه ، ولكنه كر عليه فضربه بسيفه ضربة فصلت يده من العاتق وظلت متعلقة بجلدة إلى جانبه ، وبالرغم من ذلك ظل يقاتل بيد واحدة عامة يومه فلما آذته يده المعلقة ، وضع عليها قدمه حتى فصلها ، وعاش بيد واحدة حتى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

* * *

وبعد أن انتهت المعركة كان عبد الله بن مسعود يبحث مع الباحثين ، إذا به يجد دعامة الشرك مجندلاً ، وبه آخر رمق ، فاقترب منه ووضع رجله ليحتز رأسه فقال أبو جهل : لقد ارتقيت مُرتقىً صعباً يا رويعيَ الغنم ، فحزّ ابن مسعود رأسه

ووضعها بين يدي رسول الله فقال ﷺ : الحمد لله الذي أخزى عدو الله ، لقد كان أبو جهل فرعون هذه الأمة .

* * *

وفي غزوة أحد :

كانت غزوة أحد يوم السبت ، للنصف من شوال ؛ وقد جمع « عكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وصفوان ابن أمية » رجالاً من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، وكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا وتعبأت قريش ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مائتا فرس ، فجعلوها على جوانب الجيش ، وكان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل .

وكان عدد المسلمين سبعمائة رجل ، وأمّر الرسول على الرماة عبد الله بن جُبير وكان معه خمسون رامياً ، وأمره الرسول أن ينضح الخيل بالنبل حتى يحول بينهم وبين الهجوم على المسلمين من خلفهم .. وأمره أن يثبت هو ورجاله في مكانهم فلا يبرحونه حتى لا يطعنوا من قبلهم ... وقد شدد عليهم رسول الله ﷺ وطلب إليهم ألا يتركوا أماكنهم حتى

وبدأت المعركة بالمبارزة في أول الأمر ، ثم لم تلبث أن تعانقت فيها الأسنة ، واشتجرت الرماح ، وتطايرت الأشلاء .. وكان النصر للمسلمين في أول الأمر ، فقد ثبت المسلمون وقاتلوا قتالاً شديداً .. وظهر في هذه المعركة من أبطال المسلمين « أبو دجانة » الذي أمعن في الأعداء قتلاً وإجهازاً ، وظهر «حمزة بن عبد المطلب» فقد اندفع بسيفه فقتل أرطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم ، وظل يصيب بسيفه كلّ من يلقاه حتى قال « وحشي غلام جبير بن مطعم»: والله إني لأنظر إلى حمزة يَهُدُّ (١) الناس بسيفه ، ويسرع في قطع لحومهم مثل الجمل الأورق (٢) ، فتقدمني إليه « سِبَاعُ بن عبد العزّى » فقال له حمزة : هلم إليّ وضربه ضربة لم تخطىء رأسه ، ولكنني كنت أرصده فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في أسفل بطنه حتى خرجت من بين رجليه ، فأقبل نحوي فغلب فوقع ولم يكن لي حاجة إلى قتل غيره ، وإنما قتلته لأعتق .

ومن الذين ظهروا في هذه المعركة مصعب بن عمير قاتل دون رسول الله ﷺ حتى قتل .. وظهر فيها علي بن أبي طالب ، وأبو عبيدة بن الجراح .. ولما أحس أصحاب عبد الله بن جبير

---

(١) يهدّ : يسرع في قطع لحومهم .
(٢) الجمل الأورق : الذي يميل لونه إلى الغبرة .

من الرماة الذين كانوا يحمون ظهور المسلمين – بنصر المسلمين – وبداية جمعهم للأسلاب والغنائم تركوا مكانهم ، وراحوا يساعدون في جمع الغنائم ولم يثبت مع عبد الله إلا عشرة .. فانتهز عكرمة بن أبي جهل – وخالد بن الوليد – هذه الفرصة ، والتفّا بمن معهما من الفرسان خلف المسلمين ، وانهالوا عليهم بسيوفهم فاختلّ ميزان القوى، وتحوّل النصر العظيم إلى هزيمة ، وأصيب عدد غير قليل من المجاهدين ، فقد قتل فيها عبد الله بن جبير وأصحابه ، وكانت محنة قاسية ، ودرساً وعاه المسلمون ، وأدركوا منه أن النصر في الحرب يحتاج إلى الحيطة والحذر فإذا أهمل الحذر ضاع النصر ، وحلّت الهزيمة .

وواضحٌ من هذا العرض أن « عكرمة بن أبي جهل » كان له دور في هذه الهزيمة التي حلت بالمسلمين ، وأنه كان شديد الحرص على الثأر لأبيه الذي قتل في معركة بدر ، وممن استشهد على يديه من الأنصار في هذه المعركة عبيد بن المعلّى بن لوذان ابن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عدي بن مالك [1] .

* * *

(١) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار تأليف الشيخ موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي (٦٢٠ هـ) تحقيق الأستاذ علي نويهض – دار الفكر ص ١٨٢ .

عكرمة في غزوة الخندق

كيف لم نحقّق في هذه المعركة نصراً ولم نحفظ لنا إبلاً ، إنّ أمر محمد لعجيب .

« حديث نفسي لعكرمة »

في شوال سنة خمس من الهجرة قام جماعة من اليهود من بني النضير بتأليب القبائل على النبي ﷺ وأصحابه ، وذهب جماعة منهم إلى قريش ودعوهم إلى حرب محمد فسألتهم قريش :

ــ إنكم أهل كتاب ، وتعلمون ما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

ــ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه ، ولذلك نزل فيهم قول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أوتُوا نَصيباً مِنَ الكتابِ يُؤمِنونَ بالجِبْتِ والطاغوتِ ، ويقولون للذينَ كَفَرُوا هؤلاء أهدَى من الذين آمَنُوا سبيلاً ، أولئكَ الذينَ لَعَنَهُم اللهُ ومَنْ يلعن اللهُ فلَنْ تَجدَ له نصيراً ، أم لهم نَصيبٌ من المُلْكِ فإذاً لا يُؤتون الناسَ نقيراً . أم يَحْسُدُونَ الناس عَلَى ما آتاهم اللهُ من فَضْلِهِ فقدْ آتينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ والحِكْمَةَ وآتيناهم مُلْكاً عظيماً . فمِنْهُم من آمَنَ به ومِنهم من صَدَّ عَنْه وكَفَى

وكذب هؤلاء اليهود على قريش ، وعلى غيرهم من القبائل حتى هبّت قريش يقودها أبو سفيان بن حرب ، ويجمع حوله أركان حربه وفي طليعتهم « عكرمة بن أبي جهل » . وخرجت غطفان يقودها « عيينة بن حصن » في بني فزارة ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة ، ومِسْعَر بن رُخَيْلة فيمن تابعه من أشجع .

وتجمع عدد من المشركين لم يتجمع مثله من قبل ولا من بعد ، وأرادوا القضاء على محمدٍ ودعوته .. واهتم المسلمون بالأمر وحفروا خندقاً حول المدينة وكانت هذه الغزوة اختباراً كشف الله بها المنافقين الذين حاولوا أن يخذّلوا المسلمين ويصرفوهم عن الحرب .. وعرف به صدق المؤمنين الصابرين .

وكان من أمر هذه الغزوة أن الله سبحانه وتعالى فرّق بين صفوف المشركين ، وسلط عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أكفأت قدورهم ، واقتلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم ... فعادوا مذعورين .

غير أنّ عدداً من شجعان قريش وأبطالها ومنهم « عكرمة ابن أبي جهل » ظلوا يتحينون الفرصة للقتال ، وعجبوا من هذا الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ، وبحثوا فيه عن مكان

---

(١) سورة النساء : ٥١ ــ ٥٥ .

ضيق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسَلْع ، وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين فأخذ عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم ، ودعا « عمرو بن ودّ » إلى المبارزة فتصدّى له علي بن أبي طالب ، ولم يتركه حتّى دقّ عنقه .

وفرّ هؤلاء المشركون ، ومعهم عكرمة بن أبي جهل حتى إنه ترك رمحه ناجياً بنفسه ، وفيه قال حسان بن ثابت :

فرّ وألقى لنا رمحه ... لعلك عِكْرِمُ لم تفعل
ووليت تعدو كعدو الظليم ... ما إنْ تجورُ عن المعدل(1)
ولم تلو ظهرك مستأنساً ... كأن قفاك قفا فُرْعُل(2)

وعادت قريش ، أشد ما تكون خزياً وعاراً لم يمكنها الله مما أرادت ، وعاد « عكرمة » وهو يفكر في هذا الأمر ، ويتساءل بينه وبين نفسه : لماذا عُصِمَ محمد عن الهزيمة على هذا النحو ؟ وكيف نجا بهذا العدد القليل الذي لم يتجاوز ثلاثة آلاف — من هذا العدد الكثير الذي جمع من قريش وحدها

---

(1) الظليم : ذكر النعام ـ ويضرب به المثل في الجبن . تجور : تحيد . المعدل : الطريق .

(2) الفُرْعل : الصغير من الضباع .

بنا ما فعلت ، ثم نعود على هذا النحو لم نحقق حرباً ، ولم نجن نصراً ، ولم نحفظ لنا إبلاً .. إن أمر محمدٍ لعجيب ! !

* * *

عكرمة يوم فتح مكة

قال تعالى :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ، مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً » .

صدق الله العظيم

وفي يوم « فتح مكة » لم يستجب لنداء السلام والأمان ، كما لم ترهبه قوة النبيّ عليه السلام ، ولم يؤثر فيه أن أعمدة الشرك الكبرى قد خضعت وقد لانت .. فها هوذا أبو سفيان ينادي بأعلى صوته : « يا معشر قريش : لقد أتاكم محمد بما لا قبل لكم به ، فلا تتعرّضوا له بحرب ، لأن في ذلك هلاككم وفناءكم ، وقد أمّنكم محمد فاقبلوا هذا الأمان ، من دخل داري فهو آمن ، ومن أغلق عليه داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

لم يستجب « عكرمة » لهذا النداء ، ولم يأبه بقوة محمد وأصحابه وراح يجمع حوله صناديد قريش ، وأعتاهم كفراً ، وأصلبهم قوة وأعدّ أسلحته الفارهة ، وسيوفه الماضية ، وخيله الضامرة واجتمع حوله صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وحِماس بن قيس بن خالد .

وراح كلّ منهم يثير حماسة الآخرين ، ويُمنّيه بالنصر على المسلمين حتى قال حِماسُ بن قيس لامرأته : أبشري اليوم

منهم أسرى ، وسوف ادفع إليكِ ببعض منهم ليكونوا لك خدَماً وعبيداً .

وهناك عند جبل بمكة يسمّى « الخندمة » تأهّب عكرمة ورفاقه وما هي إلا ساعات حتّى اشتبكوا في قتال مرير مع جيش المسلمين الذي يقوده خالد بن الوليد ، فإذا بالرؤوس تتطاير ، والسيوف الماضية تتكسر ، وسنابك خيل المسلمين تدوس هؤلاء المشركين ، وانجلت المعركة في لحظات ، فانهزم عكرمة ورفاقه ، ولاذوا بالفرار ، وها هو ذا حِماس بن قيس بن خالد يفرّ ويقول لامرأته في عجلة : أغلقي عليّ بابي .. أغلقي عليّ بابي .

فتقول امرأته : فأين الخدم والعبيد ؟ أين ما كنت تقول ؟

فقــال :

إنّكِ لو شهدتِ يوم الخندَمَــهْ
إذ فرّ صفوانُ وفرّ عكرِمَــــه
وأبو يزيد قائمٌ كالمؤتِمــــهْ
واستقبلتْهم بالسُّيوفِ المسلمه (١)

---

(١) المؤتِمة : بكسر التاء هي المرأة التي قتل زوجها في الحرب وترك لها أولاداً صغاراً والمسلمة : يريد « المسلمين » .

يقطعْنَ كل ساعدٍ وجُمجُمه
ضرباً فلا يُسمَع إلا غمْغَمه (١)

لهم نَهيتٌ خلفنـــا وهَمْهَمــه
لم تنطقي في اللّوم أدنى كلمــه (٢)

* * *

أمّا عكرمة : فانطلق يجري مذعوراً خائفاً ، تحمله قدماه إلى حيث لا يدري ، ومضت عليه أوقات لا يدري كم هي ؟ ولا يدري كيف نجا من القتل ؟ وما هي إلا أيام حتى وجد نفسه في اليمن .. خائفاً يترقب ..

وقرّ قرار المسلمين ، وفتحت مكة ، واطمأنّ أهل مكة للنبيّ ﷺ ، وعادت إليهم عقولهم ، حين اجتمعوا حوله ، وهو يناديهم بأعلى صوته قائلاً :

ـ يأهل مكة : ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟

ـ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

ـ قال عليه السلام : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

---

(١) الجمجمة : أعلى الرأس . والغمغمة : أصوات الأبطال في الحرب الذين يغمغمون بكلمات غير مفهومة .
(٢) النّهيت : نوع من زئير الأسد . والهمهمة : الصوت الذي يخرج من الصدر .

[illegible]

فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، فلما خرجوا معه ، وصدّهم الكفار بالحديبية رجعوا وشق عليهم ذلك ، وراب بعض المنافقين .. وجاء هذا الفتح المبين بعد ذلك ، فتحققت رؤيا النبيّ عليه السلام ، وأشارت إلى ذلك الآيات الكريمات في سورة الفتح ، قال تعالى :

« لقد صَدَقَ اللهُ رسولَهُ الرُّؤيا بالحقِّ ، لتدخلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنين ، مُحلِّقين رُؤوسكم ومُقصِّرين لا تخافون ، فعَلِمَ ما لم تعلموا فجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلك فتحاً قَرِيباً ، هُوَ الذي أرسل رسولَه بالهُدَى ودِين الحَقِّ ليظهرَه على الدِّين كلِّه وكفى بالله شهيداً »[1] .

* * *

تأمين عكرمة والعفو عنه :

ترك « عكرمة » من ورائه زوجه « أم حكيم » بنت الحارث ابن هشام ، وكانت بنت عمه .. سمعت الكثير عن النبي ﷺ ، فذهبت إليه مع من ذهبن من النساء ، وهزت قلبها ومشاعرها آيات الله الكريمات ، ودعوة النبي ﷺ إلى الإسلام وصالح

---

(١) سورة الفتح : ٢٧ ، ٢٨ .

الأعمال فأعلنت على الملأ إسلامها ، وأخلصت لله قلبها ، وعلمت أن الإسلام فرق بينها وبين زوجها ، فما كان لمشرك أن يتزوّج مسلمة لأنها خيرٌ منه ديناً ، وأعلى بالإسلام نسباً ... ولكن قلبها ما زال متعلقاً بابن عمّها ، وشريك حياتها في الجاهلية ، فلماذا لا تطلب من النبيّ ﷺ وهو الرؤوف الرحيم ، والعفو الكريم ، أن يؤمّن ، ولماذا لا يكون لها دور في إنقاذ حياة عكرمة وهو الشهم الكريم ؟ ولماذا لا يكون لها دورٌ في إسلامه وهو الجدير باعتناق هذا الدين العظيم ؟

وتقدمت أم حكيم إلى النبي ﷺ وطلبت إليه أن يؤمّن « عكرمة » .. فأجابها النبي إلى طلبها ، ولم يخذلها فيه ، وتغاضى عليه السلام عن سابق وعيده ، وعن إهدار دمه ، لأنّ الثأر ليس هو غاية الإسلام ولا هدفه ، وأن عكرمة إذا جاء تائباً مسلماً فقد جبّ الإسلام ما سبق لأنّ الإسلام يقطع كل صلة بالماضي ، ويمحو كل ما حدث من أخطاء ويعيد الإنسان كيوم ولدته أمـــه .

ولم تكد « أم حكيم » تحظى بهذا الأمان من رسول الله ﷺ حتى استقصت أخبار « عكرمة » وعلمت قصة هربه وفراره من ألفها إلى يائها ..

علمت أنه ركب البحر من « جُدّه » مع عدد من الفارين الهاربين ، ويمّموا وجوههم صوب اليمن .. وبينما هم في طريقهم إليها هبّت ريحٌ عاصف على السفينة التي يركبونها ،

[illegible] السفينة قائل : أيها الناس أخلصوا لله فإنكم فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ها هنا » .

فقال عكرمة في نفسه : « إن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص فما ينجيني في البر غيره ، اللّهم لك عليّ عهد إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمّداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنّه عفوّاً كريماً » .

فكانت شعلة الإسلام قد لمست قلبه ، وأضاءت جوانب نفسه .

* * *

إسلامه

« اللّهم لك عليّ عهد إن أنت عافيتني ممّا أنا فيه أن آتي محمداً حتّى أضع يدي في يده ، فلأجدنّه عفوّاً كريما » .

« عكرمة »

هل من السّهل اليسير أن يغيّر المرء عقيدته ؟

ربّما عزّ على الإنسان أن يغيّر زيّه الذي ألفه واعتاد عليه ، وربّما عزّ عليه أيضاً أن ينتقل من مسكنه الذي ألفه إلى مسكن آخر ، ويجد بعض الأسى في تغيير أثاث بيته وفراشه ، ويشعر بالشعور نفسه إذا انتقل من بلد إلى آخر ، واستبدل إخواناً بإخوان ، وأهلاً بأهل . ومن أجل ذلك وقف الشاعر العربي على الأطلال فاستنطقها ، وعلى الدّمن فبكاها ، وعلى آثار الدّيار فناجاها ... لأنه أقام علاقات نفسية بينه وبين هذه النؤى وتلك الأحجار ، وأحس بشيء في أعماقه يشدّه إلى تلك المألوفات ، وهذه العادات فلم يكن من السهل عليه أن يتخلص من تلك الارتباطات أو يتنكر لها ، أو يجافيها مرة واحدة .

إذا كان هذا هو الشأن بالنسبة لتلك المألوفات وهذه العادات فما بالك بأمر الدّين والمعتقدات ؟

هل يكون من السّهل على المرء أن ينتقل فجأة من دين إلى دين ؟ فيغير آلهة يعبدها ، ويتجه إليها بإله آخر ؟

شخص إلى آخر فيزيد صعوبة ومشقة إذا زادت الروابط التي تشدّه إلى الدين القديم ، وتباعد بينه وبين الدين الجديد ..

الموانع التي كانت تحول بين عكرمة وبين الإسلام :

ولقد وقف « عكرمة » أمام الإسلام موقف الذي يحمي عزّته ، وعزّة بيته وعزّة آبائه وأجداده ، وعزّة العرف والتقاليد التي طبعته بطابعها ، وعزّة النظام الاجتماعي كلّه كما اصطلحت عليه الجاهلية أحقاباً بعد أحقاب .

واستمدّ من صراع أبيه للإسلام ، وموقفه أمامه موقف التحدّي والعناد — مدداً يزيد ضراوته ، ويلهب حماسته ، ويُمْضي عزيمته ، ويدفعه أن يبذل في هذا الصّراع كل ما يملكه من قوّة وفتوّة ، ومال ، وسلاح ، وكراع .

وكيف لا يفعل ذلك وقد ضربَ له أبوة المثل فبذل ماله ، وبذل نفسه في هذه الغاية ، وكان من أكثر المشركين نيلاً من محمد ، وتصدى لقتله بنفسه مراراً وكاد له مراراً ، والتقى في حربه مراراً .

وكان عكرمة فتى ناشئاً يوم ظهر النبي عليه السلام بالدعوة الجديدة ، فنفر منها كما ينفر قومه ، وزاد على النفرة لهباً من حميّة صباه ، وتحفزاً فتياً يسبق به أباه فما هو إلا أن بلغ مبلغ

الزّعامة في القتال حتى تجرد لها بعزيمة الفتوة ، وشجاعة البطولة وغيظ الموتور الذي انتُزِع أبوه من بين يديه ومن بين غابات الرّماح الكثيفة المحيطة به في غزوة بدر .. فتهيأ للقيادة والزعامة مكان أبيه ، وكان قائد الميسرة في وقعة أحد ، وتولّى مع خالد ابن الوليد الهجمة التي حولت النّصر من جانب المسلمين إلى جانب المشركين .. وقتل فيها « عبد الله بن جبير » قائد الرُّماة في جيش المسلمين وقتل من بقي معه من الرماة ، واختلط الأمر على المسلمين فصاروا يقتتلون على غير شعار ، ويضرب بعضهم بعضاً من العجلة والدّهش ، وشاع أنّ النبيّ عليه السلام قد قتل في المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار .

واشترك « عكرمة » في وقعة أخرى هي وقعة الخندق أو الأحزاب ، وكانت من أشدّ الغزوات على المسلمين ، وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها لولا يقظة علي بن أبي طالب ، ووقيعة بعض الدّهاة بين أحزاب قريش ، وهبوب الرّيح التي عصفت بيوتهم ، وأكفأت قدورهم ، وزادتهم يأساً من اقتحام الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ، وسجل القرآن الكريم أحداث هذا اليوم فقال تعالى مخاطباً المؤمنين : « يأيُّها الّذين آمنوا اذكُرُوا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ جاءتكُمْ جنودٌ فأرسَلْنا عَلَيْهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكانَ اللهُ بما تعملون بَصيراً . إذ جاءُوكم مِنْ فوْقِكم ومِنْ أسْفَلَ مِنْكُم ، وإذْ زاغَتِ الأبْصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ وتظنُّونَ باللهِ

شديداً » ...

وكان « عكرمة » في هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقاً يقحم منه الخيل فأعياه أمره .. ولكنه ظل يتحيّن الفرصة السانحة هو وخالد وعمرو بن العاص وكادت الفرصة تسنح ، لولا يقظة المسلمين ، وشدّة الرّيح التي عصفت بهم .

وظل على عناده حتى كان يوم الفتح ، وانقلب رفاقه في السلاح إلى نصراء للإسلام ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يشهر السّلاح في وجوههم ، فتصدّى لخالد بن الوليد الذي كان له صديقاً ، وللقتال في صحبته رفيقاً ، ولكن أنّى له أن يثبت أمامه ، وقد زاده الإسلام قوة ، وملأ قلبه حماسة ، ولهـــذا سرعان ما كان الفرار وكانت الهزيمة له وقاء من القتل والهلاك.

كذلك كانت كراهة « عكرمة » للإسلام بعد كراهة أبيه .

ومن وثباته هـــذه ، ولجاجه ذاك ، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهية التي هي أقرب إلى المبارزة والمناجزة منها إلى المقت والضغينة ، تقوى كلّما وجدت دوافعها كما تقوى النّار كلما قُدِّم لها الحطب الذي يشعلها ، فإذا انعدم الحطب خمدت النار وتحولت إلى رماد .

---

(١) سورة الأحزاب : ٩ ــ ١١ .

وقد خمدت حماسة عكرمة في معاداة الإسلام عندما عدمت الوقود الذي يغذّيها ، فخفت حدّتها بعد قتل أبيه ، وظلت تخف شيئاً فشيئاً كلّما زاد عدد الدّاخلين في الإسلام من رفاقه وأصحابه ، وبخاصة الذين كانوا معه في قيادة الفرسان ، فخفت حماسته يوم أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وخمدت حماسته يوم أسلمت زوجه أم حكيم . ودخل الناس من قريش في دين الله أفواجاً .

أسباب إسلامه :

ولكن زوال الموانع وحدها من طريقه لا يكفي لاعتناقه الإسلام حتى تتهيأ له الدوافع والأسباب التي تحرك نفسه إليه ..

ولقد كان عكرمة يقترب من الإسلام ، وتقوى في نفسه الدّوافع التي تشدّه إليه ، فكلما زال أمامه مانع من الموانع أتاح الفرصة لظهور دافع من الدّوافع ؛ ولقد كانت هذه الدّوافع في نفسه ؛ ولكنها كانت مستترة تسدل عليها الموانع غطاء يحول بينها وبين الظهور .

ولعلّ أول الدّوافع التي حركت نفسه إلى الإسلام مقالة أبيه أبي جهل حين تعرّض لمحمد في الكعبة وهو يصلي ، وحمل حجراً ثقيلاً ودنا منه ليحطم به رأسه وهو ساجد ، وقد استأذن قريشاً في ذلك فأذنت له ، ووعدته بالمنعة والنصرة ، ولكنه ما

قدماه ، ويبست يداه ، وامتقع لونه ، وسقط الحجر منه . وقامت إليه رجال قريش تسأله : ما لك يا أبا الحكم ؟

لماذا لم تنفذ ما عزمت عليه ؟

قال : « قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلمّا دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا مثل عنقه ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهمّ بي أن يأكلني » .

لقد ظلت هذه الكلمات ترنّ في أذنه ، وتردّد صداها في نفسه ، وكان يحول بينه وبين التفكير فيها حماسته التي تجد غذاءها في روافد شتّى ، فلما انقطعت هذه الروافد بدأت هذه الكلمات تطفو على صفحة نفسه ، وتأخذ حقّها من تفكيره ، وتقرّب بينه وبين الإسلام بمقدار ، وتباعد بينه وبين الشرك بمقدار .

وثمّة دافع آخر دفعه إلى العجب والدهشة ، وتساءل عنه في حينه ولم يجد له جواباً شافياً .. ذلك هو أمر المسلمين في غزوة الأحزاب ، وقد تألبت عليهم العرب من كل جانب ، وأحاطوا بهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وقد ساقوا من العدد والعدّة ، ما يكفي لإبادة جميع المسلمين في المدينة ، وإحالتهم أثراً بعد عين .. ولكنّ الهدف لم يتحقق ، وعاد المشركون بالخزي والعار ، وقد فقدوا إبلهم ، وتفرقت وحدتهم ، وسلط

الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية أكفأت قدورهم ، وقلعت خيامهم ، وأطارت أسلحتهم ، فعادوا بالخيبة والعـــار أدراجهم ...

لقد آن له بعد أن زالت الموانع أن يتدبّر فيما رأى ، وأن يدرك أن محمّداً ممنوع ، وأنّ العناية الإلهية تحرسه وتحميه .

ودافع ثالث تراءى له يوم أن فرّ أمام خالد بن الوليد عند فتح مكة ودفعت به قدماه إلى جُدّة ليركب السفينة متجهاً إلى اليمن ، لقد هبت على السفينة ريح عاصف كادت تقلبها ، فنادى أصحاب السفينة قائلين : « أيها الناس أخلصوا لله نياتكم ، فإنّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ها هنا » .

فقال عكرمة في نفسه : « إن لم ينجني في البحر إلاّ الإخلاص فما ينجيني في البر غيره ، أللهم لك عليّ عهدٌ إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمّداً حتى أضع يدي في يده ، فلأجدنّه عفوّاً كريماً » .

لقد ملأت هذه الدّوافع نفسه ، وانضم إليها تفكير العقل الهادىء المتزن بعد أن ابتعدت عنه الموانع ، فراح يسأل نفسه : لماذا نعادي محمداً وهو لا يدعو إلى شرّ ، ولا يقول إلاّ الصدق ، ولا ينهى إلاّ عن منكر ؟ لماذا نعاديه وشرفه شرفٌ لنا ، ورفعته رفعةٌ لقومنا ؟!

إنّ أمرنا معه لعجيب !!

ام حكيم حاملة معها بشارة الأمان .. فلم تكد تدعوه إلى العودة حتى لبّى دعاءها ولم يكد يقدم على النبيّ ﷺ حتى نظر في وجهه فرأى فيه نور الإسلام يتلألأ فقام فرحّب به واعتنقه وأدناه منه ، وعفا عن كل ما وقع منه ، وقال له : « مرحباً بالراكب المهاجر » .

ومضى في الإسلام يعوّض ما فاته ، ويبذل في سبيله وسعه ، ويعمل جهده ، حتى كتب بجهاده سطوراً من نور .. جعلته بين الصّديقين ، والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً .. فإلى هذه السطور .

* * *

عكرمة يجمع صدقات هوازن

قال النبيّ ﷺ : « لا تسبّوا أباه فإنّ سَبَّ الميّت يؤذي الحيّ ، ونهاهم أن يقولوا : عكرمة بن أبي جهل » .

كان النبيُّ ﷺ يخبر نفوس أصحابه ، ويعرف أعماقها البعيدة ، ويدرك بفطرته وخبرته ما يصلح له كلٌّ منهم من عمل فيوجّهه إليه .. كما كان يتحسس ما يؤذي نفوسهم فيعمل جاهداً على تنقية هذه النفوس ، وبث الطمأنينة فيها ، وإزالة ما يعكر صفوها .

شكا إليه عكرمة يوماً أن بعض المسلمين كانوا يقولون : هذا ابن عدوّ الله أبي جهل ، فقال النبيّ ﷺ لأصحابه : « لا تسبّوا أباه فإنّ سبّ الميت يؤذي الحي ونهاهم أن يقولوا : عكرمة بن أبي جهل » .

« وهكذا كان ﷺ يوجه أصحابه إلى مكارم الأخلاق ، ورعاية الذوق العام ، ويبعدهم عن كل ما يجرح النفس ويؤلمها ، ولو كان ما يقولونه صدقاً ، فليس كل الصدق يقال .. وبهذا قضى على أسباب الفرقة والخصام ، وكان المسلمون في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسهر .. » .

المثل وإما القيمة ، وإما أسره .

لذلك لم يكن عجيباً أن يندفع عكرمة إلى الإسلام ، يبذل فيه ماله ، ونفسه ، وروحه .. قال عكرمة : يا رسول الله : لا أدع مالاً أنفقت عليك (أي في حربي لك وعداوتي للإسلام) إلا أنفقت في سبيل الله مثله .

* * *

أسلم «عكرمة» وحسن إسلامه ، فعرف النبي ﷺ له قدره ومكانته ، ودفع به إلى حيث يتحمل المسئولية فيصقله تحملها ، ويواجه بذلك أعباء الدعوة الإسلامية . وكان أول عمل أسنده إليه الرسول ﷺ هو أن يجمع الصدقات من هوازن (١) .

كان ﷺ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل البلاد التي فتحها الله على المسلمين – في العام الذي حج فيه . فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى «صنعاء» وبعث «زياد ابن لبيد» أخا بني بياضة الأنصاري إلى «حضرموت» . وبعث «عدي بن حاتم» على طيء وصدقاتها وعلى بني أسد . وبعث «مالك بن نويرة» على صدقات بني حنظلة . وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم ، فبعث «الزبرقان بن بدر» على ناحية منها ، و «قيس بن عاصم» على ناحية . وبعث «العلاء بن

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير المجلد الرابع ص ٥ .

الحضرمي » على البحرين . وبعث « عليّ بن أبي طالب » رضوان الله عليه إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ، ويقدم عليه بجزيتهم .

توجه « عكرمة » إلى « هوازن » ، وكانت قد اطمأنت إلى الإسلام بعد أن هزمهم النبيّ ﷺ شرّ هزيمة في غزوة « حنين » تلك الغزوة التي امتُحن فيها المسلمون امتحاناً قاسياً حيث توجّه المسلمون بعدَدِهم الوفير الذي بلغ اثني عشر ألفاً ، لم تنقصهم العدّة من سيوف ورماح ، وساروا على تعبئة كاملة حتّى قال قائلهم : « لن نغلب اليوم عن قلة » ، وثقوا في كثرة العَدد والعُدَد ، وحسبوا أن ذلك هو الذي يجلب النصر لهم ، فلمّا كانوا عند منحنى في أحد الوديان بين جبلين في مكان يسمى (حنين) خرج عليهم أعداؤهم من هوازن ، ففاجئوهم بالسلاح والنبال فنكصت الخيل على أعقابها ، ولم يثبت أمام الأعداء غير النبي ﷺ وعدد من أصحابه وأهل بيته ، وظل النبي يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » وأحدقت بهم الرّماح من كل جانب ، ونادى العباس بأعلى صوته ، ارجعوا بأهل سورة البقرة ، ارجعوا يا أصحاب محمد ، ودبّت الفتنة بين الذين لم يرسخ الإيمان في قلوبهم ، من مسلمي الفتح ، واستجاب إلى نداء العباس من ثبت الإيمان في قلوبهم فعادوا أقوى عزماً ، وأكثر فطنة للحيل والمكائد ، وانضموا إلى النبيّ ﷺ الذين وجدوه محفوظاً بعناية الله ورعايته .

[illegible] . اليوم أدرك ثأري (من محمد) ــ وكان أبوه قد قتل يوم أحد ــ اليوم أقتل محمداً ؛ قال : « فأدرت خلف رسول الله لأقتله فأقبل شيء مثل الشهاب حال بينه وبيني ، وكاد يخطف بصري فلم أطق ذاك ، وعلمت أنه ممنوع مني » .

وثبت المسلمون الصّادقون ، وأبلوا في هذا اليوم بلاء حسناً ، وانتصروا انتصاراً مبيناً ، وأسروا منهم عدداً كبيراً وجمعوا من الأموال والغنائم الشيء الكثير ...

وفي النهاية أسلم من هوازن من أسلم ، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يردّ عليهم أموالهم وأسراهم ، فرجع النبي في ذلك إلى المسلمين المنتصرين فكثير منهم تنازل عن نصيبه ، وقليلٌ منهم آثر الإبقاء على حظه ..

ودخلت هوازن بعد ذلك في الإسلام أفواجاً ، وأرسل إليهم النبيّ ﷺ « عكرمة » يجمع منهم صدقاتهم ؛ فكان « عكرمة » الأمين على أموال المسلمين .

* * *

عكرمة يحارب المرتدين

كتب إليه أبو بكر يوم اليمامة :
« يا بن أمّ عكرمة : لا ترجعنّ
فتوهن النّاس ، امض إلى حذيفة
وعرفجة فقاتل أهل عُمان
ومَهْرة ، ثمّ تسير أنت وجندك
حتّى تلقى المهاجر بن أبي أمية
باليمن وحضرموت » .

في سنة عشر قدم وفد بني حنيفة من أهل اليمامة على رسول الله ﷺ مسلمين ، وتركوا مسيلمة بن حبيب في رحالهم ، فلما أسلموا ؛ قالوا يا رسول الله : إنا تركنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظ لنا ، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم وقال : أما إنّه ليس بشرّكم مكاناً . ثم انصرفوا وجاؤوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله ، فلمّا انتهوا إلى اليمامة ارتدّ مسيلمة ، وادّعى النبوّة ، وقال لهم : إنّي قد أشركتُ في الأمر مع محمد ، وذكّرهم بما قاله النبي لمن كان معه في وفد بني حنيفة: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: أما إنّه ليس بشرّكم مكاناً ! ! وما ذاك إلاّ لأنه كان يعلم أني قد أشركت في الأمر معه .. ثم قال لهم كلاماً مسجوعاً يؤيد به نبوّته .

وكتب إلى رسول الله ﷺ : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك : أمّا بعد فإنّي قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون » .

حين قرأ كتاب مسيلمة : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول مثل ما قال . فقال : أما والله لولا أنَّ الرسُل لا تقتل لضربت أعناقكما .

ثم كتب إلى مسيلمة : بسم الله الرحمن الرحيم : «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب : سلامٌ على من اتبع الهُدى ؛ أما بعد ، فإنَّ الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

* * *

فلمّا مات رسول الله ﷺ ، وبعث أبو بكر سراياه (١) إلى المرتدين — أرسل « عكرمة بن أبي جهل » في عسكر إلى مسيلمة ، وأتبعه « شُرحبيل بن حَسَنة » وكان مسيلمة قد اشتد أمره ، والتف حوله أربعون ألف مقاتل من بني حنيفة باليمامة .

* * *

وكتب أبو بكر عهداً لعكرمة — كما كتب هذا العهد لكلّ قوّاده . وهذا نصه : «هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لعكرمة حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كلّه ، سرّه

---

(١) السرايا : جمع سرية ، وهي جماعة من الجنود من خمسة إلى ثلاثمائة أو أربعمائة .

وعلانيته ، وأمره بالجدّ في أمر الله ، ومجاهدة من تولّى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أمانيّ الشيطان بعد أن يُعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرّوا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم ، والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، لا ينظرهم ، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عزّ وجل ، وأقرّ له قَبِل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدّعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسرّ به ، ومنْ لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مُراغمَه [١] لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقرّ قَبِل منه ، ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله قتل منهم كلّ قِتْلَة بالسّلاح والنيران ، ثم قسّم ما أفاء الله عليه إلاّ الخمس فإنه يبلِّغُناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وألا يُدخل فيهم حشواً حتّى يعرفهم ، ويعلم ما هم لئلاّ يكونوا عيوناً ، ولئلاّ يؤتى المسلمون من قِبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ، ويرفق بهم في السّير والمنزل ، ويتفقدهم ، ولا يُعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حُسْن الصحبة ولين القول » .

* * *

(١) مراغَمه : المكان الذي يهاجر إليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامّة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه :

« سلام على من اتبع الهُدى،ولم يرجع بعد الهُدى إلى الضلالة والعمى ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده ، لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، نقرُّ بما جاء به ونكفّر من أبى ونجاهده .

أما بعد ، فإنّ الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لينذر من كان حياً ، ويحقّ الحقّ على الكافرين ، فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه ، حتّى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً » .

.... وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله ، وجهالة بأمره ، وإجابةً للشيطان ، قال الله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر به أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً » وقال : « إنّ الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » وإني بعثت إليكم عكرمة في

جيش من المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوَه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقرّ ، وكفّ وعمل صالحاً قَبِل منه ، وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يُبقي على أحد منهم قدَر عليه ، وأن يحرّقهم بالنّار ، ويقتلهم كل قِتلة ، وأن يسبيَ النساءَ والذّراري ، ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعجزَ الله ، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان ، فإن أذّن المسلمون فأذّنوا كفّوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذّنوا سألوهم ما عليهم ، فإنْ أبَوْا عاجلوهم ، وإن أقرّوا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم » .

* * *

فسار عكرمة إلى اليمامة ، ولم ير أن ينتظر « شرحبيل بن حَسَنة » الذي أمدّه به أبو بكر خشية أن يكون مسيلمة في قوة وفي منعة من قومه فلا يقدر عليه « عكرمة » وحده .

ولكن « عكرمة » اندفع بحماسة الإيمان التي ملأت قلبه ، وأراد أن يكون له فخار النصر على مسيلمة .

وكان «عكرمة» بطلاً مجرّباً ، وفارساً مغواراً ، اجتمع في لوائه أبطال لهم في الحروب بلاء ، ولكنه ظنّ أنه سيقاتل جماعة لم تتأهب لقتاله ، ولم يدر بخلده أن مسيلمة استطاع أن يخدع الناس وأن يفتنهم ، حتى اشتدّ أمره والتفّ حوله أربعون

ينضم إليه « شرحبيل بن حَسَنَة » فيُعِدّا معاً خطة الهجوم ، وأراد أن يكون له شرف هذا النصر وفخاره ، فتعجل بلقاء مسيلمة فقاتل جماعة لم يضعف منهم المسير الطويل ، ولم ينقصهم التحصين لأنهم في بلادهم . وكانوا عدداً وفيراً وكانوا على أهبة كاملة لأنهم بيّتوا نية الغدر .

لم يثبت « عكرمة » أمامهم ، فقد تغلب عليه مسيلمة ، فآثر أن ينسحب من أمامهم حين رأى قوّتهم أعظم كثيراً من قوته ، وكتب إلى أبي بكر بما جرى بينه وبينهم ، وكان « شرحبيل » ما زال في الطريق ، فلما علم بما آل إليه أمر عكرمة فضل أن يقيم في الطريق حتى تأتيه أوامر الخليفة فيمضي على وحي منهـــا .

علم أبو بكر بالأمر فغضب غضباً شديداً وكتب إلى عكرمة خطاباً غاضباً لأنه خالف أمره ، والتقى بمسيلمة قبل أن ينضم إليه « شرحبيل » ، ولم يحسن الاستطلاع والتعبئة ، واكتفى بما لديه من حماسة وإيمان ، ورغبة شديدة في الانتصار، كتب إليه يقول :

« يا بن أمّ عكرمة : لا ترجعنّ فتوهن الناس ، امض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عُمان ومَهْره ، ثم تسير أنت وجندك حتى تلقى المهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت » .

لم يغضب « عكرمة » من كتاب أبي بكر ، ولم تضعف عزيمته من قوله له يا « ابن أم عكرمة » لأنه أحس بخطئه ، وليس له إلاَّ أن يسمع وأن يطيع لتوجيه الخليفة ، وهذا السلوك مقياس لشدة إيمان عكرمة ، وتفانيه في الدّعوة الإسلامية .

وكتب أبو بكر إلى شرحبيل بن حسنة يأمره فيه أن ينضم إلى جيش خالد بن الوليد الــذي أرسله أبو بكر للقضاء عــلى مسيلمة وبني حنيفــة ، ثم قال له إذا فرغتم إن شاء الله ، فالحق بقُضاعة حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف .

وخرج خالد للقاء مسيلمة هو ومن سار معه من جند المسلمين ، وكتب الله النصر على أيديهم ، وقضوا على الفتنة في بني حنيفة ، وقتل مسيلمة الكذاب شر قتلة .

وانطلق « عكرمة » إلى حيث أمره الخليفة ... فماذا جرى على يديه من أحداث ؟

عكرمة في عُمان ومهرة وصنعاء

قال أبو بكر لعمرو بن معديكرب، وقد أرسله عكرمة أسيراً: «أما تستحي أنك كلَّ يوم مهزوم أو مأسور؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله!» فقال: لا جرم! لأقبلن، ولا أعود.

كان أبو بكر قد عقد لحذيفة بن مِحْصن الغلغاني على لواء من ألوية الجيش وأمره بالتوجه إلى أهل « دَبا » بعُمان لحرب المرتدين . وتقع « عُمان » في أقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية .

وعقد « لعَرْفَجة بن هَرْثَمة » على لواء ووجهه لحرب المرتدين في أهل « مَهْرَه » في جنوب الجزيرة العربية بين « عُمان » واليمن .

كما عقد للمهاجر بن أمية على لواء ووجهه لقتال الأسود العنسي بصنعاء اليمن .

فلما انتهى « عكرمة » من قتال بني حنيفة ، وعلم أنه لا قبل له بمواجهتهم مرة ثانية إلاّ إذا كان معه جيشٌ كبير ، وقوة تناسب قوّتهم ، كتب إلى أبي بكر بجلية الموقف ، وانتظر منه التوجيه والرأي — جاءه بعد ذلك كتاب أبي بكر يأمره بالتوجه إلى « عمان » لقتال المرتدين في « دَبا » مع « حذيفة بن مِحصن الغلغاني» فإذا انتهى من أهل عُمان ، توجه إلى «مَهْرَه»

اليمن لحرب المرتدين لتقاتل مع المهاجر بن أبي أمية .

ويبدو أن « عكرمة » قد استفاد تماماً من هزيمته أمام مسيلمة في بني حنيفة ، فسار بجيشه على تعبئة كاملة ، وأعطى كل شيء حقه في الحرب والقتال ، فأعطى الاستطلاع حقه ، فلا يقدم إلاّ بعد أن يرسل عيونه إلى المكان الذي يقدم عليه فتأتيه بالخبر الصادق ، وأعطى المفاجأة حقها من اليقظة الكاملة ، وإقامة الحراسة ليلاً ، حتى لا يؤخذ على غرّة ، وأعطى التعبئة المعنوية حقها ، فذكّر الجيش الذي يقوده بالغاية النبيلة التي يجاهد في سبيلها .. وبهذه العناية التامة ، واليقظة الكاملة أنجز عكرمة مهمته بنجاح في « عمان » وفي « مهره » فقضى على فلول المرتدين ، وقبل من الذين عادوا إلى الإسلام إسلامهم ، واطمأن إلى نتيجة صنعه وكان عليه بعد ذلك أن يدرك « المهاجر بن أمية » في صنعاء .

* * *

ولم تكن مهمة « المهاجر بن أميّة » سهلة ميسورة فقد توجه لقتال الأسود العنسي الذي ادّعى النبوة .

كان « الأسود العنسي » كاهناً ، فادّعى النبوة ، وتابعه قوم من أعراب اليمن ، فاشتد بهم ساعده ، واقتحم بهم بلاد نجران ، فلم تلبث أن دانت له ، ودخل في أمره عوامّ من « مَذْحِج » ، وكثّر رجاله ، وزاد أنصاره وأعوانه .

ثم قصد « صنعاء » فنازل عاملها شهراً وقتله ، وجعل أمره يستطير استطارة الحريق ، وصار لا يميل إلى قوم إلاّ دخلوا في أمره ، أو صانعوه خوفاً منه أو بقاء على أنفسهم .

ظل « الأسود العنسي » على هذا الحال من القوة وشدّة البأس ، حتّى دبّت عقارب الفتنة بينه وبين « قيس بن عبد يغوث المرادي » رئيس جنده فأعلمه أنّ الوحي نزل عليه وقال له : « إن المَلَكَ يقول : عَمَدْتَ إلى قيسٍ فأكرمته ، حتّى إذا دخل منك كلّ مدخل ، وصار في العزّ مثلك ، مال ميل عدوّك ، وحاول مُلكَكَ ، وأضمر الغدر لك ، إنه يقول : يا أسود : يا أسود ، يا سوأة !! يا سوأة !! اقطف قُنَّته ، وخذ من قيس أعلاه وإلاّ سلبك ، أو قطف قُنَّتك » .

فقال قيس : (وأقسم به) كَذَب ، لأنت أعظم في نفسي وأجلّ عندي من أن أحدّث بك نفسي .

فقال الأسود : أتكذّب الملك !!! قد صدق الملك ، وعرفت الآن أنك تائب .

غير أنّ قيساً استشعر منه الخيانة فدبّر مكيدة للقضاء عليه ، استعان فيها بزوجه ، وبغيرهم من الحاقدين عليه ، ونجحت هذه المكيدة ، وقضى على الأسود العنسي ، وتشتت رجاله ، وفرّوا إلى القبائل المجاورة خوفاً مما يلحقهم على يد قائد جيشه « قيس بن عبد يغوث المرادي » .

.

ولكن سرعان ما ارتد الذين أسلموا ، وانقلب أعداء الأسود العنسي إلى أعداء للمسلمين : فقد وصل إليهم نبأ وفاة النبي ﷺ فقالوا لأنفسهم : كيف يموت وهو نبي ، وقاسوا أمره على أمر « الأسود العنسي » فقد ظنوا النبوة نوعاً من الكهانة ..

وركب الموجة المرتدة « قيس بن عبد يغوث المرادي » ، وأرسل إلى أنصار الأسود الهاربين هنا وهناك ، وطلب إليهم أن ينضموا إليه في عداء المسلمين وحربهم ، وماجت البلاد بالفتنة ، واشتبك (قيس) مع المسلمين هناك ، واستتب له الأمر في صنعاء وانضم إليه عوام القبائل من حمير ، ودان له الأمر واطمأن بصنعاء .

غير أن المسلمين تجمعوا من جديد : تحت قيادة « فيروز » انضم إليه بنو عقيل بن ربيعة كما انضمت إليهم قبائل «عك» ، واشتبكوا مع « قيس » .

وفي أثناء هذا القتال ، وافى جيش المسلمين يقوده « المهاجر ابن أبي أمية » وجاء على أثره « عكرمة بن أبي جهل » بجنوده ، ودارت بين الفريقين معركة حامية هزم الله فيها المرتدين ، ومنح المسلمين أقفيتهم ، وأسر « قيس بن عبد يغوث » و « عمرو بن معديكرب » . وكان قد ارتد وانضم إلى قيس » .

ولما جاء « عمرو » و « قيس » أسيرين إلى أبي بكر أنّب قيساً على عمله ، وحقن دمه ، ووبّخ « عمراً » على ما كان منه ، وقال له :

« أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله » ! !

فقال : لا جرم ! لأقبلنّ ولا أعود .

فأطلق أبو بكر سراحهما ، وعادا بعد ذلك قوّة للإسلام ، ودرعاً للمسلمين .

* * *

استتبّ الأمر في اليمن ، وأدّى « عكرمة » دوره بنجاح ، وقد صقلته التجارب التي خاضها ، ووضعته الأحداث في لبّ الدّعوة الإسلامية ، فكان قائداً محارباً ، وكان داعية للإسلام محدّثاً . وحقّق في كل اتجاه نصراً للإسلام وعزّاً للمسلمين .

وعاد القائد « عكرمة » إلى المدينة ينتظر أمر خليفة الإسلام لينطلق حيث الغاية التي يوجهه إليها ، سهماً من سهام الإسلام ، يطلب الاستشهاد ليعوّض ما فاته في الإسلام .

عكرمة في حرب الروم

قال عكرمة : «كنت أجاهد بنفسي عن اللاَّت والعزَّى فأبذلها لها ، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله ؟! لا والله أبداً » .

لم يكد « عكرمة » يستقر به المقام في المدينة حتّى ندبه « أبو بكر الصديق » لمساعدة « خالد بن سعيد » في حرب الروم في الشـــام .

وكان « أبو بكر » بعد أن رجع من الحج في السنة الثالثة عشرة من الهجرة قد عزم على محاربة الروم عملاً بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غِلظة ، واعلموا أنّ الله مع المتقين » [1] .

فلمّا فرغ الصّديق من أمر الجزيرة العربية ، وأعاد الأمن إلى ربوعها ، وقضى على فتنة الرِّدة في مهدها ، وأحسّ بأن المسلمين قد تعوّدوا على الحرب النظامية ، وقيادة الجيوش الكثيرة العدد ؛ وأنّ العقيدة الإسلامية تتقد في نفوس أصحابه حماسة ، وتشتعل في قلوبهم غيرة على الدِّين ، وحرصاً على الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق ، وهزيمة الباطل .

وكانت الرّوم تتحين الفرصة للقضاء على الإسلام في مهده ،

---

(١) سورة التوبة ١٢٣ .

المسلمين ، ووقفوا من الدّعوة الإسلامية موقف المناوىء لها : التي يحول بينها وبين الانتشار فقتلوا دعاة الإسلام الذين أرسلهم النبيّ عليه السلام للتباشير بدعوة الحق ، ولم يدعوا فرصة لمناهضة الدين الجديد إلاّ استغلوها .

وكان الرسول ﷺ قد جمع المسلمين لغزوهم في «تبوك» حتى وصلها في حرّ شديد ، وجهد جهيد ، ثم بعث قبل موته أسامة بن زيدٍ مولاه ليغزو تخوم الشام ...

فلما حانت الفرصة المناسبة لأبي بكر الصّدّيق صمّم أن يقتدي برسول الله ﷺ في غزو هذه البلاد ، ويحقق ما كان يتمناه رسول الله ﷺ ، وبخاصة بعد أن أحسّ بأن الشرك لا يثبت أمام التوحيد ، وأن الفرس على ما لهم من قوة ونفوذ ، وعلى الرّغم مما يملكون من جيوش منظمة ، وعُددٍ وعتاد ، لم يثبتوا أمام المسلمين وهم أقل منهم عدداً ، وأقل منهم عدّة ، وأقلّ منهم معرفة بقيادة الجيوش النظامية وانهار جمعهم ، وتفرق سلطانهم ، وتبدّد كيانهم ، ولم ينفعهم عَدَدٌ ولا عُدَد ..

كل هذا عرفه خليفة المسلمين ، وانكشف أمامه فرآه رؤيا العين وأهمّ من هذا كلّه أنّه على الحق ، وهم على الباطل والله تعالى يقول « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إنّ الباطل كان زهوقاً »[1] .

---

(١) سورة الاسراء ٨١ .

فلمّا اجتمع للصديق من الجيوش ما أراد قام في الناس خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم حث الناس على الجهاد فقال :

« ألا لكل أمرٍ جوامع فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجد والقصد ، فإنّ القصد أبلغ . ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا إيمان لمن لا خشية له ، ولا عمل لمن لا نيّة له ، ألا وإنّ في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله ما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به : هي النجاة التي دلّ الله عليها إذ نجّى بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة » .

ثم شرع الصّديق في تولية الأمراء ، وعقد الألوية والرّايات فكان أوّل لواءٍ عقده « لخالد بن سعيد بن العاص » وأرسل به إلى « تيماء » .

ثم عقد لواء « يزيد بن أبي سفيان » ، وأرسله إلى «دمشق» . وعقد « لأبي عبيدة بن الجراح » وأرسله إلى « حمص » .

وبعث « عمرو بن العاص » إلى فلسطين .

وأمر كلّ أمير أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر ، اقتداء بنبي الله يعقوب حين قال لبنيه : « يا بنيّ لا تَدْخُلوا مِنْ بابٍ وَاحِدٍ ، وادْخُلوا من أبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وما أغْنِي عنكم من الله مِنْ شَيءٍ ، إنِ الحُكْمُ إلاّ للهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وعليه فليتوكّل المتوكلون » .

« هرقل » ملك الروم وقال لهم : « ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد ، وإنهم لا قبل لأحد بهم ، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جبال الروم ، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام ، وضيقوا عليكم جبال الروم » .

فلما سمع قوّاده هذا القول نفروا منه ، وضاقوا به ، وصمموا على الحرب والقتال .

رضخ « هرقل » لقوّاده ، وأعدّ العدّة للحرب والقتال ، وأرسل جيوشه لملاقاة جيوش المسلمين ، فأرسل لكل جيش من جيوش المسلمين أضعاف عدده ، ولم يقصر في التعبئة المعنوية .

وبدأت الحرب متفرقة في أماكن عدة ، والتقى خالد بن سعيد بجمع كثير من نصارى العرب من غيرا ، وتنوخ ، وبني كلب ، وسليح ، ولخم ، وجذام ، وغسان ، فلما اقترب منهم تفرّقوا عنه ، ودخل كثير منهم في الإسلام . فبعث إلى الصّديق يعلمه بما وقع من الفتح ، فأمره الصديق أن يتقدّم ولا يحجم ، وأمدّه بعكرمة بن أبي جهل .

وكان « خالد بن سعيد » قد تقدّم بجيشه نحو « إيلياء » فتعرض له قائد من قوّاد الرّوم اسمه « ماهان » فكسره خالد بن سعيد فتقهقر « ماهان » أمامه ، وتبعه « خالد » حتى دخل « ماهان » دمشق وخالد يتبعه ، فإذا بجيوش « ماهان » التي

كانت ترابط على طول الطريق تطبق على خالد بن سعيد وعلى جيوشه ، وتنال منهم ، وفرّ خالد بن سعيد ومن معه ، واستشهد عددٌ كبير من المسلمين .

ولم يثبت في هذه المعركة إلاَّ « عكرمة بن أبي جهل » وجيشه ، وقد تقهقر قليلاً عن دمشق وبقي ردءاً لمن تفر إليه من جيش خالد بن سعيد ، وظلَّ « عكرمة » في مكانه على أهبة كاملة ولكنه لم يشأ أن يبادر الرّوم بالقتال انتظاراً لمدد أبي بكر الصديق ، ولوضع خطة حربية موحدة بين جميع القوّاد المسلمين ، وبخاصة حين علم بأنَّ الرّوم قد أعدُّوا لكل جيش من جيوش المسلمين ما يقرب من عشرة أضعافه ، فقيل إنَّ جيوش الرّوم قد بلغت مجتمعة ما يقرب من مائة وعشرين ألفاً وفي بعض الأقوال بلغت مائتي ألف ، ولم تزد جيوش المسلمين عن أربعة وعشرين ألفاً .

وقالت الروم : « والله لنشغلنَّ أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا » .

وكتب قواد المسلمين إلى أبي بكر وعمر يعلمونهما بالموقف فكتب إليهم أن اجتمعوا وكوِّنوا جنداً واحداً ، والقوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم عن قلة ولكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها ، وليُصَلِّ كلُّ رجل منكم بأصحابه .

الشيطان بخالد بن الوليد » .

* * *

اتفق رأي قوّاد المسلمين على أن يجتمعوا ، ويكوّنوا جيشاً واحداً يقاتلون به الروم ، وأرسل أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد أن يترك العراق بعد أن يولّي عليها نائباً من قبله ، ويلحق بجيوش المسلمين في الشام ...

وانطلق خالد بجيشه يقطع الطريق إلى الشام من قلب البادية المهلكة ، واستطاع أن يقطع الطريق المخوفة في خمس ليال ، وهي رحلة ما زالت مستغربة لدى القوّاد العسكريين حتى يومنا هذا ، وقد حاول بعض المهتمين بالتأريخ للحرب من العلماء الأمريكيين أن يتتبع سير هذه الرحلة ، وأن يقطعوا هذه المسافة على خيولهم ، فمات بعضهم دون أن يتمكن من قطع هذه المسافة ، وبقي منهم اثنان فقط لم يتمكنوا من قطعها في المدة التي قطعها فيها خالد .

والذي يعنينا هنا أن خالد بن الوليد قد أدرك جيوش المسلمين ، وهي تتأهب لقتال الروم فيما بين دير أيوب واليرموك .

وقد بلغ جيش المسلمين بعد وصول الأمداد ثلاثين ألفاً وانضم إليهم « عكرمة » بجيشه وكان عدده ستة آلاف فصارت

عدة جيش المسلمين ستة وثلاثين ألفاً .

وتوالت الإمدادات أيضاً على الروم فبلغ عدد جيشهم أربعين ومائتي ألف ، سلسل منهم بالحديد والحبال ثمانون ألفاً ، كل عشرة منهم في سلسلة واحدة حتى لايفرّوا أمام المسلمين ، وكان منهم ثمانون ألف فارس ، وثمانون ألف راجل .

اجتمع المسلمون تحت قيادة خالد بن الوليد في اليوم الأول ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، وإن هذا يوم له ما بعده لرددناهم اليوم إلى خندقهم فلا نزال نردّهم ، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبداً ، فتعالوا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ودعوني اليوم إليكم » .

فأمروه عليهم ، فرتب الجيش ، وجعل « عكرمة بن أبي جهل » و « القعقاع بن عمرو » على مجنبتي القلب ، وطلب منهما أن ينشبا القتال ، فبدءا يرتجزان ، ودعوا إلى البراز ، وتنازل عكرمة وأحد الأبطال من الرّوم فصرعه ، ومع آخر فجندله ومثل ذلك فعل « القعقاع بن عمرو » . وتنازل الأبطال ، وتجاولوا ، وحمي الحرب ، وقامت على ساق .

وجعل معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان

قلوبهم ، وأنزل علينا السكينة ، وألزمنا كلمة التقوى ، وحبب إلينا اللقاء ، وأرضنا بالقضاء » .

وكانت الحرب سجالاً ، ظهرت فيها البطولات الإسلامية ، والتضحيات الفردية .

وكان لكثرة عدد الرّوم أثر في المعركة ، فحمل « ماهان » أحد قوّاد الروم على ميمنة المسلمين ، بعدد كثيف ، فانكشف المسلمون أمامه ، ومالوا ناحية القلب .

وكان نساء المسلمين قد وقفن خلف الجيش ، وبأيديهن الخشب والحجارة يضربن المنهزمين ، ويرجعن الفارّين ، وكانت خولة بنت ثعلبة تنشد قائلة :

يا هارباً عن نِسْوةٍ تقيات ْ فعَنْ قليلٍ ما ترى سبيات ْ
ولا حَظيات ولا رضيات ْ

* * *

وفي هذا الموقف العصيب يظهر « عكرمة بن أبي جهل » فيقول بأعلى صوته : « قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة وأفرّ منكم اليوم » ! !

ثم نادى : أيها المسلمون ، من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمّه الحارث ، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين

وفرسانهم ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى جرحوا جميعاً ، وقتل منهم خلق كثير منهم ضرار بن الأزور .

وكان « عكرمة » بطلاً في استشهاده كما كان بطلاً في حربه ولقائه ، روي أنه عند استشهاده طلب جرعة من الماء ؛ فلما قدم إليه الماء ليشرب أحس بأن صاحباً له بجواره يطلب الماء فرفض أن يشرب قبل أن يشرب صاحبه ، فلما قدمت إليه جرعة الماء أبى أن يشرب حتى يرتوي الذي يليه ، وهكذا حتى مات الثلاثة دون أن يشرب واحد منهم .

* * *

وكان لهذه البطولة الفذة التي أبداها « عكرمة » وضرباؤه أثر في تلك الهزيمة التي حلت بالروم ، وفي تحقيق النصر العظيم للإسلام والعزة للمسلمين .

* * *

عكرمة في سطور :

• هو عكرمة بن عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم ، أبو عثمان القرشي المخزومي .

• كان من سادات العرب في الجاهلية كأبيه .

• أسلم عام الفتح بعد أن فرَّ ثم رجع إلى الحق .

• استعمله الصّدّيق على عمان حين ارتدّوا فظفر بهم ، ثم أرسله إلى « مَهْرَه » وإلى اليمن فأسهم في القضاء على المرتدين ، وإعادة الأمر للمسلمين .

• ثم قدم إلى الشام وكان أميراً على بعض الكراديس .

• قيل : إنه لا يعرف له ذنب بعد ما أسلم ، وكان يقبّل المصحف ويبكي ويقول : « كلام ربّي كلام ربي » . واحتج بهذا الإمام أحمد على جواز تقبيل المصحف ومشروعيته .

• قال الشافعي : كان عكرمة محمود البلاء في الإسلام .

• وقال عروة : استشهد بأجنادين ، وقال غيره باليرموك ، بعد أن وجد بجسمه بضع وسبعون ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح .

• وروي أن خالد بن الوليد أمر بعد نهاية المعركة — أن يحمل إليه « عكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن عكرمة » ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ، ورأس عمرو على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ، ويقطر الماء في حلوقهما ويقول : كلا ! زعم ابن الحَنْتَمة (١) أنّا لا نستشهد ! !

• رحم الله عكرمة ، ورحم الله ابنه عمراً ، لقد مات عكرمة ولم يترك وراءه عقباً .

وقد قال في حقه رسول الله ﷺ : « رأيت لأبي جهل عِزْقاً في الجنة ، فلما أسلم عكرمة بن أبي جهل ، قال يا أم سلمة هذا هو » .

---

(١) يريد عمر بن الخطاب ، فقد جاءه خطاب العزل وهو في قلب هذه المعركة .

المراجع

• أسد الغابة في معرفة الصحابة :
تأليف عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير المتوفى ٦٣٠ هـ ، المكتبة الإسلامية بطهران .

• الاستيصار في نسب الصحابة من الأنصار :
تأليف العلامة الشيخ موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي المتوفى ٦٢٠ هـ — حققه وقدم له : الأستاذ علي نويهض — دار الفكر .

• أيام العرب في الإسلام :
تأليف : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، دار إحياء التراث

العربي – بيروت لبنان – ط الثالثة ١٣٨٨ هـ .

* البداية والنهاية :

تأليف : أبي الفدا ء الحافظ بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ – الجزء السابع الطبعة الأولى – نشر مكتبة المعارف ببيروت .

* سيرة النبي ﷺ :

تأليف : أبي محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميري المتوفى سنة ٢١٨ هـ الجزء الرابع – تعليق د. محمد خليل هرّاس – نشر مكتبة الجمهورية .

* عبقرية خالد :

تأليف : عباس محمود العقاد – ط ١٩٧١ م .

* غزوة بدر الكبرى : الكتاب الأول من معارك الإسلام الفاصلة

تأليف : محمد أحمد باشميل – الطبعة السادسة نشر دار الفكر ١٣٩٤ هـ

الفهرس

صفحة

مقدمة	٥
عكرمة بن أبي جهل	٩
عكرمة في غزوة بدر	١٩
عكرمة في غزوة الخندق	٢٧
عكرمة يوم فتح مكة	٣٣
إسلامه	٤١
عكرمة يجمع صدقات هوازن	٥١
عكرمة يحارب المرتدين	٥٧
عكرمة في عُمان ومهرة وصنعاء	٦٧
عكرمة في حرب الروم	٧٥
عكرمة في سطور	٨٦
المراجع	٨٨

سلسلة بطولات إسلامية

- ٥ -

معاذ بن جبل
إمام العلماء

قال النبي صلى الله عليه وسلم
"معاذ إمام العلماء يوم القيامة"

تأليف
د. محمد إبراهيم نصر و محمد مصطفى سلام

تجد عددا من القصص والسير
في موقع المفكرة الدعوية
www.dawahmemo.com

دار اللواء
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار اللواء

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع الملك فيصل

ص. ب : ٢٨٥٦ هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤ - برقياً : نشر دار

تقديم المؤلف

دعاءٌ من القلب :

- اللهمّ إنك تعلم أني أكتب عن صحابي جليل أحبّه رسولك ﷺ . وأحبّه كثير من خلقك ، لما بذله في طاعتك ، وفي رضاك وفي حبك .
- اللهمّ هب قلمي الضعيف قدرة على إظهار شخصيته في الصورة الكريمة التي تليق به ، والتي تنفع القارىء الكريم وتفيده .
- اللهم انفعني بسيرته ، واجعل عملي هذا خالصاً لوجهك .

إنك سميع الدّعاء .

محمّد إبراهيم نصر

بين يدي هذا الكتاب

دعني أن أكتب عن هذا الصحابي الجليل ، تلك الحفاوة البالغة التي استقبل بها فيما وقع بين يدي من كتب التراث ، فالنبي ﷺ يصرح لمعاذ بحبه ، ويقول له إني لأحبك يا معاذ !!

وأعظم بها من كلمة يقولها النبي ﷺ .

— ويقول عنه عليه السلام : خذوا القرآن من أربعة : ويذكر معاذاً من بين هؤلاء الأربعة .

— ويقول عنه عليه السلام : إنّ العلماء إذا اجتمعوا يوم القيامة كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة حجر .

— ويقول عنه أيضاً : أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ ابن جبل .

— ويصدّقه النبي عليه السلام في قوله : فيقول : صدق معاذ ، صدق معاذ ، صدق معاذ .

كان الذين يُفتُون على عهد رسول الله ﷺ من المهاجرين: عمر ، وعثمان ، وعلي . وثلاثة من الأنصار هم : أُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت .

– وقد كتب الرسول ﷺ إلى أهل اليمن حين بعث إليهم معاذاً : إني قد بعثت عليكم من خير أهلي ، والِيَ علمهم، والِيَ دينهم .

– وقال حاتم الدّروي :

انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى ستة نفر من الصحابة رضي الله عنهم :

عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت . فهؤلاء هم طبقة الفقهاء .

وقال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أدركت معاذ بن جبل لاستخلفته .

وقال فيه أيضاً : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ بن جبل .

وكان معاذ مُهاباً في قومه ، محبّباً إليهم .

عن شهر بن حوشب قال :

حدثني رجل أنه دخل مسجد حمص فإذا بحلقة من الناس ،

فيهم رجل آدم [١] جميل ، وضّاحُ الثنايا ، وفي القوم من هو أسنّ منه ، وهم مقبلون عليه يستمعون حديثه .

قال : فسألته من أنت ؟

فقال : أنا معاذ بن جبل .

وعن أبي إدريس الخولاني قال :

دخلت مسجد دمشق فإذا فتىً أبيض ، وضيء الوجه ، برّاق الثنايا أكحل العينين ، وإذا ناس معه ، إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه ، وصدروا عن رأيه .

فسألت عنه : فقالوا : هذا معاذ بن جبل .

فلما كان من الغد هجّرت فوجدته قد سبقني بالتّهجير ، فوجدته يصلي قال : فانتظرته حتى قضى صلاته ، ثم جئته من قبل وجهه فسلّمت عليه وقلت له : والله إني لأحبك لله .

فقال معاذ : الله .

فقلت : الله .

فقال : الله .

قال : فأخذ بحبوة [٢] ردائي فجبذني إليه وقال : أبشر

---

(١) آدم : أسمر الجلد .

(٢) حبوة الرداء : ما يجمع بين ظهره وساقيه .

قال الله تبارك وتعالى : وجبت رحمتي للمتحابين فيّ ، والمتجالسين فيّ ، والمتباذلين فيّ ، والمتزاورين فيّ » .

* * *

وكان عبد الله بن عمر يقول : حدّثونا عن العاقلَين العالمَين .

قال خالد بن معدان : من هما ؟

قال : معاذ بن جبل ، وأبو الدّرداء .

وقال قرة الأشجعي عن ابن مسعود :

إن معاذ بن جبل كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . فقلت له : إنما قال الله : إنّ إبراهيم كان أمة قانتاً لله ، فأعاد قوله : إنّ معاذاً كان أمة قانتاً لله ... الآية .

وقال : ما الأمة ؟ وما القانت ؟ قلت الله ورسوله أعلم .

قال : الأمّة الذي يُعلّم الخيرَ ، ويؤتمّ به . والقانت : المطيع لله عزّ وجل وكذلك كان معاذ معلماً للخير ، مطيعاً لله عزّ وجل ولرسوله .

* * *

وقد شهد معاذ مع الرسول ﷺ بدراً ، وأحداً والخندق ،

والمشاهد كلها .

* * *

فكيف بعد هذه الحفاوة البالغة ، وتلك السّيرة العطرة ، وهذه المكانة المطيبة ، لا أعطر قلمي بالكتابة عنه ، وقد جمع الفضل من أقطاره ، والحسن من جوانبه ؟

كيف والشباب يلتمسون القدوة الصالحة ، وينشدون المثلَ الفذ الذي يجدّد ثقتهم في تاريخهم ، ويعيد إليهم نمطاً من السلوك ، يفتح أمامهم الطريق لاستعادة هذا الماضي المجيد ؟

كيف لا أتحدّث عن هذه الشخصية الفذة ، وقد روى عنه كبار الصحابة الحديث وأخذوا منه ، لقد روى عنه : عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر ، وأبو قتادة وأنس بن مالك ، وأبو أمامة الباهلي ، وأبو ليلى الأنصاري ، وغيرهم وروى عنه من التابعين : جنادة بن أبي أمية ، وعبد الرحمن ابن غنم ، وأبو إدريس الخولاني ، وأبو مسلم الخولاني ، وجبير بن نفير ، ومالك بن يخامر وغيرهم .

وأختم هذه المقدمة في هذا الوقت المتأخر من الليل فأقول ما كان يردّده معاذ في تهجّده :

اللّهم نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت حيٌّ قيوم – اللهم طلبي الجنة بطيء ، وهربي من النّار ضعيف .

النشأة والمولد

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي ابن كعب بن عمرو بن أُدَيّ بن سعد، أخو سلَمة بن سعد .

أمه : هند بنت سهل بن جهينة ثم من بني الرَّبعة .

قيل إنه من قبيلة بني سلمة . والصحيح أنه من قبيلة بني أُدَيّ بن سعد ، وقد جاء هذا اللبس لأن بني سلَمة ادعته حيث كان أخاً لسهل بن محمد .

وأخوه لأمه : عبد الله بن الجد بن قيس من أهل بدر .

وكنيته : أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي .

قيل إنه لم يعقب ، والصواب كما ذكرت المراجع المختلفة أنه أنجب ولدين أصيبا بالطاعون في عمواس ، وسبقاه إلى الدار الآخرة .

وقد أسلم على يد مصعب بن عمير ، وشهد العقبة مع الذين أسلموا من الأنصار ، وكان عمره ثماني عشرة سنة .

بداية الطريق

قال عبد الرحمن بن كعب لأبيه : يا أبت : ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صلّيت على أبي أمامة أسعد بن زُرارة ، ودعوت له ؟ قال : أي بُنيّ : كان أسعد بن زرارة أول من جمع الناس في المدينة لصلاة الجمعة .

كانت يثرب في ذلك الوقت تضطرب بالفتن والقلاقل ، فبين الأوس والخزرج خصام وعداء ، وبين هؤلاء جميعاً وبين اليهود – خصام وعداء ، فلا تلبث فتنة من الفتن تهدأ حتى تشتعل الأخرى ، وتتهيأ لها الأسباب .

وكان اليهود أهل كتاب ، وأهل علم ، يعرفون من أمور الحياة والدين والمال ما لا يعرفه الآخرون ، وكانوا يوقعون العداء بين الأوس والخزرج ويفتخرون عليهم بأن نبياً سيظهر بعد قليل ، وسوف يكون لهم سنداً ومعيناً وسوف يتمكنون بنصرته من إفنائهم والقضاء عليهم ...

وكان أهل يثرب من الأوس والخزرج على الشرك وعبادة الأوثان ... ولكنهم لم يخلوا من العقلاء ذوي الرأي والبصر ، الذين يطمحون إلى حياة أرقى وأفضل ، ويتطلعون إلى غد أعظم وأجمل .

لقد خرج من هؤلاء ستة نفر ذهبوا إلى البيت الحرام حاجِّين ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهم الخير ، وهيأ على

[illegible] الدنيا وسعادة الآخرة ؛ لهم ولأهل المدينة الذين تبعوهم ، وارتشفوا من نور الإسلام الذي أهلّ عليهم فأنار لهم طريق الحياة .

كان هؤلاء النفر هم : أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابي ، وجابر بن عبد الله ، وعوف بن الحارث .

التقى بهم النبيّ ﷺ ، فقال لهم :

من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال عليه السلام : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى .

فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عزّ وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم . وقالوا له عليه السلام :

إنّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ مثل ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك .

انصرف هؤلاء النفر الى بلادهم ، فأسرع إليهم قومهم

مرحبين ، وسألوهم عن أمرهم ، فذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعوهم إلى الإسلام ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وهي تعلم شيئاً مما حدث . وكان من بين الأسباب التي آذنت بانتشار خبر النبي عليه السلام مخالطة أهل المدينة لليهود وسماعهم منهم : أن نبياً سيبعثه الله قد أظل زمانه ، وقرب ظهوره .

* * *

العقبة الثانية :

لم يكد العام المقبل يهل على أهل المدينة حتى تأهب من الأنصار اثنا عشر رجلاً للذهاب إلى مكة لعلهم يلقون النبي محمداً ، كما لقيه السابقون .

وكان هؤلاء النفر هم : أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث بن رفاعة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وذكوان ابن عبد قيس ، وعبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة بن نضلة وعقبة بن عامر ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم ابن ساعدة .

التقى هؤلاء النفر بالنبي ﷺ ، واستمعوا إليه ، فامتلأت قلوبهم نوراً ، وغمرهم فيض من البشر والأمل ، وعاهدوا

لقد أقبل عليهم أهلهم وذووهم ، وسألوهم عما رأوه وشاهدوه ، فقالوا : لقد بايعنا محمداً ﷺ على : ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف .

فإن وفينا فلنا الجنة ، وإن فعلنا من ذلك شيئاً فأمرنا إلى الله عز وجل إن شاء عذّب ، وإن شاء غفر .

مصعب بن عمير :

وقد بعث رسول الله ﷺ مع هذا النفر « مصعب بن عمير » وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدّين ، وقد نزل على أسعد بن زرارة بن عدس المكني : أبو أمامة .

انطلقت الدعوة إذاً من بيت أسعد بن زرارة ، فكان المسلمون يجتمعون في داره حول مصعب بن عمير ، يصلي بهم ، ويقرئهم القرآن ، ويدعون الناس إلى الاستماع إليه .

وفي يوم من الأيام اجتمع سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير وهما يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه فلما سمعا بمصعب بن عمير ، قال سعد بن

معاذ لأسيد بن حضير :

ـ لا أبالك يا أسيد : انطلق إلى هذا الرجل الذي قد نزل دارنا ليسفه ضعفاءنا فازجره ، وانهه عن أن يأتي دارنا ؛ فإنه لولا مكانة أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك ، فهو ابن خالتي ، وأخشى أن أغضبه إذا قدمت عليه .

فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم ذهب إلى حيث أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير .

فقال أسعد بن زرارة لمصعب : هذا أسيد بن حضير سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يجلس أكلمه .

ولكن أسيد وقف عليهما يشتمهما ويسبهما ويقول لهما :
ـ ما الذي دعا كما إلى أن تسفها ضعفاءنا ، وتعيبا ديننا ، وتفرقا كلمتنا ، اعتزلانا إن بقيتما على ما أنتما عليه .

ـ قال مصعب : أو تجلس يا أخي فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته تركنا ما تكره .

قال أسيد : أنصفت .

ثم ركز حربته وجلس إليهما .

فكلمه مصعب بن عمير ، وقرأ عليه القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فما هو إلا أن أشرق وجهه ، وأضاءت نفسه ،

— والله ما أحسن هذا الكلام وأجمله . كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟

قال مصعب : عليك أن تغتسل فتطهر ، وتُطهّر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي لله .

فقام فاغتسل ، وطهّر ثوبه ، وشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما : إنّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عن دعوتكما أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، إنه سعد بن معاذ .

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النّادي قال له سعد : ما فعلت ؟

قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد حُدِّثْت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك لأنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليغدروا بك ، وينقضوا عهدك .

فقام سعد مغضباً يخشى الغدر بابن خالته ، فأخذ الحربة في يده وانطلق مسرعاً ، وهو يقول لأسيد : والله ما أراك أغنيت شيئاً .

ولم يمض وقت طويل حتى كان سعد بن معاذ على رأس الرجلين فوجدهما جالسين مطمئنين ، وليس هناك من يزعجهما . فعرف ما يقصده أسيد بهذه الحيلة ، وأنه أراد أن يستمع منهما ، ولكن سعد وقف يسبهما ويشتمهما ، ثم وجه حديثه إلى أسعد بن زرارة فقال له :

يا أبا أمامة : والله لولا ما بيني وبينك من القرابة لأصابك مني مكروه !! كيف تغشانا في دارنا بما نكره ؟!

فقال أسعد بن زرارة لمصعب : هذا سعدُ بن معاذ سيِّد قومه إنْ يتبعك لا يتخلف عنك من قومه أحد .

قال مصعب لسعد : أوَتقعد — يا أخي — فتسمع فإن رضيت ما أدعوك إليه ورغبت فيه قبلته ، وإنْ كرهته ورغبت عنه تركنا ما تكره ؟

قال سعد : أنصفت . ثم ركز حربته وجلس يستمع إلى مصعب فقرأ عليه مصعب بعضاً من القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فأشرقت نفسه وتهلل وجهه ، وتسرَّب الإسلام إلى قلبه ، فقال لمصعب :

ما تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدِّين ؟

قال مصعب : نغتسل ، ونتطهَّر ، ونطهر ثيابنا ، ثم نقول : نشهد ألا إله إلاَّ الله ، ونشهد أن محمّداً رسول الله ، ثم نصلي ركعتين .

الحق ، وركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، وانطلق إلى قومه في ناديهم فقال لهم :

– يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟

– قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة .

قال : فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

وأقبل الناس من بني عبد الأشهل ، ومن غيرهم على الإسلام فلم تبق دارٌ من دور الأنصار إلاَّ وفيها رجال ونساء مسلمون .

وكان معاذ بن جبل من بين الذين استمعوا إلى مصعب ابن عمير ، ودخل قلبه الإسلام ، وتهيأت نفسه لعمل عظيم .

وهكذا كانت دار أسعد بن زرارة في المدينة كدار عبد الله بن الأرقم في مكة ، انطلقت منها الدعوة إلى الإسلام ، وأشعت منها أنواره ، فأقبل عليها الناس ، وكان أول من جمعهم لصلاة الجمعة أبو أمامة أسعد بن زرارة .

ولذلك قال عبد الرحمن بن كعب بن مالك : كنت قائد أبي ، كعب بن مالك ، حين ذهب بصره فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان – دعا لأبي أمامة . ومكث على ذلك حيناً ، فقلت له :

يا أبت: ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صلّيت على أبي أمامة؟

قال: أي بنيّ: إنه كان أوّل من جمع الناس لصلاة الجمعة في مكان يسمّى «هزم النبيت من حرّة بني بياضة».

قال: وكم كنتم يومئذ؟

قال: كنا أربعين رجلاً.

* * *

كانت هذه بداية الطريق التي قادت معاذ بن جبل إلى الإسلام، وهيأته ليقوم بدوره العظيم.

معاذ في العقبة الثانية

قال معاذ بن جبل :

لقد بايعنا رسول الله ﷺ : على السمع والطاعة ، في عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألاّ ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

تاقت نفس معاذ إلى رؤية محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله بعد أن سمع من اليهود بقرب مبعثه ، ثم جاء مصعب ابن عمير فقرأ عليهم قولاً لم يسمع بمثله قط ، ثم دعاهم إلى الإسلام دين الله الجديد الذي يمحق تلك الأصنام ، ويدعو إلى عبادة الله الواحد الديّان لا شريك له .

انطلق معاذ بن جبل مع قومه إلى مكة لحج بيت الله الحرام وكان ضمن ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج قد أسلموا فواعدوا رسول الله ﷺ اللقاء بهم عند العقبة في اليوم الثاني من أيام التشريق [1] .

فلما فرغ الأوس والخزرج من الحج ، وجاءت الليلة الموعودة ، خرج المسلمون من بينهم يتسللون مستخفين حتى لا يعلم بهم المشركون من قومهم ، وكانت عدّتهم ثلاثة

(١) أيام التشريق : هي الأيام الثلاثة عقب عيد الأضحى ، وسميت بهذا الإسم لأن العرب كانوا يذبحون في يوم عيد النحر ثم يقدّدون اللحم في هذه الأيام ، فالتشريق : هو تقديد اللحم .

[illegible] أم عمارة (١) ،
وأسماء بنت عمرو بن عدي أم منيع (٢) فاجتمعوا في الشعب ، وانتظروا قدوم رسول الله ﷺ فجاء عليه السلام ومعه عمه العباس بن عبد المطلب — وهو يومئذ على دين قومه — إلاّ أنه أحبَّ أن يتأكد من حمايتهم لابن أخيه ، ومناصرتهم له .

— قال العباس بن عبد المطلب عم النبي : يا معشر الخزرج : إنّ محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزّ من قومه ومَنَعَة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك .

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزّ ومنعة من قومه وبلده .

فقال أحد الأنصار : قد سمعنا ما قلت يا عباس ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

---

(١) كانت من خيرة نساء الأنصار شهدت الحرب مع رسول الله في يوم أحد ، وأبلت بلاء حسنا في الدفاع عن رسول الله ، وقد ضربها ابن قمئة بالسيف على عاتقها فجرحها جرحاً غائراً .

(٢) في الدرر لابن عبد البر أن المبايعين كانوا سبعين رجلا وامرأتين . وفي الطبقات الكبرى لابن سعد أنهم كانوا سبعين يزيدون رجلاً أو رجلين ، وفي ابن هشام أنهم كانوا ثلاثة وسبعين .

– فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله عزّ وجل ، ورغّب في الإسلام ثم قال :

– أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

– فأخذ البراء بن معرور بيده وقال له : نعم . والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنّك مما نمنع منه نساءنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة (١) ورثناها كابراً عن كابر .

قال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله إنّ بيننا وبين اليهود عهوداً وإنّا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟!

– فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدّمُ الدّمُ والهدمُ الهدمُ ، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

– ثم قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم ، وأنا كفيل على قومي .

– فأخرجوا من بينهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس هم :

– أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع بن عمرو ،

---

(١) الحلقة : بفتح اللام وسكونها اسم السلاح كله .

ابن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وسعد بن عبادة ابن دُلَيم ، والمنذر بن عمرو بن خُنَيْس ، وعبادة بن الصّامت فهؤلاء تسعة من الخزرج .

وثلاثة من الأوس هم : أُسَيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر .

— قال رسول الله ﷺ للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي — يعني المسلمين — .

— قالوا : نعم .

— قال العباس بن عُبادة بن نضلة الأنصاري : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

— قالوا : نعم .

— قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهِبت أموالكم ، وقتل أشرافكم — أسلمتموه وتخليتم عنه — فمن الآن فاتركوه ، فهو — والله — إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهب أموالكم ، وقتل أشرافكم — فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإنا نبايعه على نهب الأموال ، وقتل الأشراف .

ثم قالوا : فما لنا من أجر يا رسول الله إن نحن وفّينا بذلك ؟

قال : لكم الجنة .

قالوا : ابسط يدك نبايعك .

فبسط يده فبايعوه .

— ثم قال رسول الله ﷺ : تفرّقوا إلى رحالكم .

— فقال له العباس بن عبادة بني نضلة : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا .

— قال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

بداية الاختبار :

علمت قريش بأمر هذه المبايعة ، فثارت ثائرتهم ، واغتاظ سفهاؤهم وانطلق عدد كبيرٌ منهم وفيهم سادتهم وشرفاؤهم — إلى حيث ينزل الخزرج فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحربُ بيننا وبينهم منكم .

فقام أحد المشركين من بيننا (ولم يكن قد حضر المبايعة)

يعلموا بأمرها فقال : والله ما كان من هذا شيء وما علمناه .

فانفض القرشيون ، وتم الخروج من منى متجهين إلى يثرب ... ولكن قريشاً لم تلبث أن تأكدت من صدق الخبر ، وعلمت أن المبايعة تمت حقاً .

فانطلق جمع منهم وراء هؤلاء الذين خدعوهم وسخروا منهم حتى أدركوا «سعد» بن عبادة في مكان يقال له «أذاخر» ومعه «المنذر» بن عمرو «أخا بني ساعدة بن كعب» - وكلاهما كان نقيباً .

فأما المنذر بن عمرو : فحاورهم ، وأفلت منهم ؛ ولم يستطيعوا إدراكه وأما سعد فلم يستطع أن ينقذ نفسه من أيديهم : فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بسير من الجلد عريض متين ، وجذبوه إلى مكة ، وساقوه أمامهم ، يضربونه تارة ، ويشدون شعره تارة أخرى .

قال سعد : فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليهم نفر من قريش : فيهم رجل وضيء ، أبيض ، حسن خفيف ، حلو من الرجال ، فقلت في نفسي :

إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا ...

فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة .

فقلت في نفسي : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير .

وبينما أنا على هذا الحال من الشدّ ، والجذب ، واللكم مال إليّ رجل ممن كان معهم فقال لي : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟

قلت : بلى . والله لقد كنت أجير تجارة جُبَيْر بن مُطْعِم بن عدي وأمنع رجاله ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وكذلك أجرت تجارة الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس .

قال : ويحك ، فاهتف باسم الرجلين ، واذكر ما بينك وبينهما .

قال سعد : ففعلت ، كما قال لي .

وانطلق هذا الرجل إلى المسجد عند الكعبة فوجد جبيراً والحارث بن حرب فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ، ويهتف بكما ويذكر أن بينه وبينكما جواراً .

– قالا : ومن هو ؟

– قال : سعد بن عبادة .

– قالا : صدق والله ، إن كان ليجير لنا تجارتنا ، ويمنع رجالنا أن يظلموا ببلده ... ثم انطلقا فخلصا سعداً من أيديهم .

أمّا معاذ بن جبل : فاستطاع أن يفرّ مع الفارّين ، وينجو مع النّاجين ولم يكد يصل إلى المدينة حتّى راح يدعو إلى

[illegible] في [illegible] الأسباب والأوثان ، والنسجام مع عقله وتفكيره .

معاذ بن جبل وصنم عمرو بن الجموح :

انطلق معاذ بن جبل يدعو إلى الله ، وكان في المدينة بقية من قومهم أكثرهم من الشيوخ – ما زالوا على الشرك ، يعبدون الأوثان ، ويخلصون في عبادتها ، ليست لديهم الشجاعة الكافية في التخلص منها ، والتنكر لها ، فقد استحكمت فيهم العادة ، واستبدت بهم الأنفة ، واستنكفوا أن يتبعوا شبابهم فيما ذهبوا إليه .

وكان عمرو بن الجموح شيخاً من هؤلاء الشيوخ ، الذين يحظون بمكانة عالية في قومه ، وكان له صنم قد اتخذه من الخشب الجيد ، يسمى (مناة) ، وكان يحتفظ به في داره ، يُطيِّبه بالطيب ، وينظفه بالماء ، ويعظمه بالعبادة ، ويقدِّم له الأدعية والقرابين ، ويستشيره في أمره .

وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة ، وأسلم مع من أسلم من قومه ، فأشار عليه معاذ بن جبل أن يعملا معاً على تشكيك أبيه في صنمه ، وعلى تحريك عقله ليفكر في أمره .

وكانت هذه الخطة تقوم على حمل هذا الصنم الجميل من مكانه ليلاً ووضعه على رأسه في مجتمع القاذورات ، حيث

يلقي بعض الناس أقذارهم في حفر أعدوها لذلك ، وتقذا هذه الفعلة بليل . فلما أصبح الصباح ، ذهب عمرو إلى صنمه فلم يجده ، فبحث عنه في كل مكان حتى وجده حيث وضعوه .

ثارت ثائرة الشيخ ، وراح يبحث عن هؤلاء الذين تجرأوا على إلهه وفعلوا به فعلتهم المنكرة ، ولكنه لم يتعرف على أحد ، فأخذ صنمه فطهّره ، وطيّبه ، وحلاّه ، ووضعه في مكانه ، واعتذر إليه .

ولكنه قام في الصباح فلم يجده في مكانه ، ووجده حيث ألقي في المرة الأولى ، منكساً على رأسه ، ملطخاً بالأقذار والأوساخ ... وثار ثورته ولكنها لم تغن عنه شيئاً ، واكتفى بتطهيره ، وتضميخه بالطيب .

وتكرّرت هذه الفعلة به ... فخاطبه عمرو قائلاً :

— ألست إلاهاً ! كيف لا تدافع عن نفسك ؟ ولم لا تدلني على من فعل بك هذا ؟!

ثم قال له : سأعلق في رقبتك سيفي هذا لتدافع به عن نفسك فإذا جاءك هؤلاء العابثون ، فانقض عليهم بهذا السيف ، فإذا لم تفعل فلست بإله .

جاء معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو ليلاً فجرداه من سيفه ، ووضعا مكان السيف كلباً ميتاً ، ثم ألقوه في بئر من

بحث عمرو عن صنمه فوجده حيث وضعوه – فعلم أنه على ضلال ، وأنه يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن نفسه شيئاً .

وأدرك أن ما يدعوله إليه هو الصواب ، وأنّ الله قد أرسل رسوله بالحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وهكذا استطاع معاذ ومعاذ أن يحركا في الشيخ عقله وتفكيره فأبصر الحقيقة ، وأعلن إسلامه . وشكر الله تعالى الذي أنقذه من العمى والضلالة وقال مخاطباً صنمه :

والله لو كنتَ إلهاً لم تكن
أنت وكلبٌ وَسْطَ بئرٍ في قَرَنْ

الحمد لله العليّ ذي المنن
الواهب الرزّاق ديّانِ الدِّيَن

هو الذي أنقذني من قبل أن
أكون في ظلمة قبرٍ مُرْتَهن

بأحمد المهدي النبيّ المؤتمن

* * *

الهجرة والمؤاخاة

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
لو أدركت معاذ بن جبل فاستخلفته
فسألني ربي عنه ، لقلت يا ربي :
إني سمعت نبيك يقول :

إن العلماء إذا اجتمعوا يوم القيامة
كان معاذ بن جبل بين أيديهم
قذفة حجر « أي أنه أرفعهم
مكانة ، وأعلاهم منزلة » .

فرح معاذ بن جبل فرحاً شديداً لإسلام عمرو بن الجموح ، وانطلق يدعو إلى الإسلام بين أصحابه ، وبين قومه ، وذويه ، ولكن نفسه كانت متعلقة برسول الله ﷺ ، فكان يود أن تطوى تلك المسافة بين يثرب ومكة ليجد نفسه بين يدي حبيبه ومصطفاه ليستمع إلى ذلك الحديث العذب الندي ، وإلى تلك الآيات البينات التي كانت تأخذ طريقها في يسر ، وفي قوة من فم رسول الله ﷺ إلى قلب معاذ مباشرة حين بايعه في العقبة مع المبايعين .

ودَّ معاذ أن يكون قريباً من رسول الله ﷺ ، ولكنه كان يتسقط أخباره من أولئك المهاجرين من مكة ، الفارّين بدينهم وكان يستمع إلى قصص تعذيبهم ، واضطهادهم ، وتضحياتهم العظيمة وإيثارهم دينَهم ، وعقيدتَهم على كل شيء من مال وعقار ، ومتاع ، ولم يكد معاذ يستمع إلى هذه القصص المثيرة حتى ينطلق إلى أصحابه ، وقومه وذويه في بيوتهم ، وفي أنديتهم ، فيحدثهم عن تلك التضحيات ، ويثير في نفوسهم حبَّ التضحية والإيثار ، ويعدُّهم للأمر العظيم .

وبالغوا في اضطهادهم ، وبخاصة حين أدركوا أنّ كثيراً من أهل « يثرب » قد بايعوه ، واتبعوه ، فلم يتركوا وسيلة من وسائل التعذيب ، أو لوناً من ألوان الفتنة والابتلاء إلاّ سلكوه .

فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال لهم :

— « إنّ الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً ، وداراً تأمنون بها ، فاخرجوا إليهم » .

فخرجوا جماعة بعد جماعة ، وبقي رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج منها .

ولم يكن أمر الهجرة لأصحاب الرسول ﷺ أمراً سهلاً ميسوراً ، فلم تسكت قريش ، ولم تغمض عيونها عن هؤلاء المهاجرين ، ولكنهم نكلوا بهم أشد تنكيل ، وآذوهم أشد إيذاء ، وكان لكل مهاجر قصة تروى وحديثٌ جديرٌ بأن يتلى .

قصة أم سلمة :

وكان معاذ بن جبل يستمع إلى هذه القصص ، وتلك الأحاديث ، فيزداد إيماناً ، ويتقد حماسة ، وينطلق إلى قومه ،

وذويه ، وأصحابه ، فيروي هذه الأحداث ، ويقص عليهم تلك الأيام ، ويشمل في ترسيم روح التضحية والفداء ، وكان معاذ محدثاً بارعاً ، يعرف كيف يجعل الخبر مثيراً ومؤثراً . وكان من بين القصص التي تحدث عنها ، قصة أم سلمة وابنها ، وزوجها .

– قال معاذ : أما سمعتم قصة تلك المهاجرة في سبيل الله ، كيف تعرض لها قوم من قريش ، حتى بلغ من قسوتهم أن فرقوا بينها وبين زوجها ، بل إنهم تمادوا في الغلظة والقسوة حتى تجاذبوا ولدها ، كل جماعة تجذبه من ناحية حتى انفصل عنه ذراعه .

– قال أحد الأنصار : مَنْ هذه المرأة يا معاذ ؟ وما قصتها ؟ حدِّثنا عن ذلك من بداية الأمر إلى منتهاه ، لا تترك صغيرة من الأحداث ولا كبيرة إلا رويتها ، فإننا في شوق ولهفة لمعرفة ما تعرض له إخواننا في الله .

قال معاذ : هذه المرأة المسلمة هي أم سَلَمَة وابنها سَلَمَة .

فقد عزم زوجها عبد الله أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال ابن عبد الله على الهجرة إلى بلدنا يثْرب ، فاراً بدينه ، وزوجته وولده من اضطهاد قريش وإيذائهم ، فحمل زوجته وولده على بعيره ثم خرج بهما يقود البعير تاركاً وراءه داره ، وعقاره ، وبقية أهله من ذويه وقرابته ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن

هذه الناقة فلا غلبتنا عليها . فكيف تأخذ صاحبتك هذه معك تسير بها في البلاد ؟ والله لا نتركها لك أبداً .

ثم نزعوا خطام البعير من يده فأخذوه منه ، وعادوا بأم سَلَمة وابنها فلما علمت بذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سَلَمة ، أخذتهم العزة بالإثم . فانطلقوا إلى أم سلمة ، وقالوا لها :

— ما دام قومك قد فعلوا ذلك ، وحالوا بينك وبين زوجك فوالله لا نترك ابننا عندك . ثم جذبوا منها ابنها . فانطلق جماعة من قومها ، وجذبوا الطفل من يده الأخرى ، ولم يتركوه حتى خلعت يده من جسمه فانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبس بنو المغيرة أم سلمة عندهم ، فظلت تخرج كل يوم إلى بطحاء مكة تبكي وتتألم حتى أمضت على ذلك الحال ما يقرب من عام ، فمر بها رجل من بني عمها فرحمها ، وذهب إلى قومه من بني المغيرة وقال لهم :

ألا تتركون هذه المسكينة التي ملأت بطحاء مكة بكاء ودموعاً تلحق بزوجها ، ويكفيها ما فعلتم أمامها بولدها !

فأذن لها قومها أن تذهب حيث تشاء ، وحينئذ ردّ لها بنو عبد الأسد ولدها سَلَمة ، فركبت بعيرها ، وأخذت وليدها في حجرها ، وانطلقت صوب بلدنا هذه .. وظلت تسير وحيدة فريدة هي ووليدها ، لا رفيق لها إلا إيمانها ، ولا عزاء لها إلا

رغبتها في إدراك زوجها سالمة بدينها .. فلما بلغت مكاناً يسمّى « التّنعيم » مر بها رجل اسمه عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فقال لها : إلى أين يا بنت أبي أميّة ؟

قالت : أريد زوجي بالمدينة .

قال : أوما معك أحد ؟

قالت : لا . والله ، إلا الله وبُنَيّ هذا .

قال لها : والله لا أتركك حتى تصلين إلى زوجك سالمة إن شاء الله .

وانطلق بها الرجل يأخذ بخطام بعيرها يقطع القفارَ والصحارى حتى إذا تعبت وتعب بعيرها أناخ البعير ثم يستأخر عنها حتى تنزل ثم يعود فيأخذ البعير ، فيسقيه ويطعمه ، ويصلح أمره ، ثم يقيده في شجرة ، ثم يقضي لها بعض ما تحتاج إليه ، ثم يبتعد عنها حتى تستريح ، ويستريح هو تحت شجرة أخرى بعيدة ، فإذا دنا وقت الذهاب دنا بالبعير فقدّمه إليها ثم استأخر حتى تركب ، فإذا ركبت واستوت أخذ بزمام البعير ، وانطلق به .

وظل على هذا الحال حتى بلغ المدينة ، فلما بلغ قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال لها : زوجك في هذه القرية ، فادخليها على بركة الله . ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فلما أتم معاذ حديثه عن أم سلمة قال القوم : يا لها من

يسوغ لنا الطعام والشراب ، وإخواننا يتعرضون لهذه الشدائد وتلك المحن ؟ ! !

* * *

عياش بن أبي ربيعة المخزومي :

قال معاذ بن جبل : وهل تظنون أن قريشاً وقف أذاها عند هذا الحد ؟ لا والله ، لقد تجاوزت حدودها ، وبلغ إصرارها في مقاومة الإسلام إلى الحد الذي يختطفون فيه المسلمين من بلدنا هذه ... أوما سمعتم بقصة عياش بن أبي ربيعة المخزومي ؟

— غضب القوم ، ونزلت كلمات معاذ على قلوبهم كطعن الخناجر ، وقالوا في أسى يمتزج بالقوة والإصرار :

— حدثنا يا معاذ ماذا جرى لعياش ، إننا نعلم أنه قدم إلى بلدنا في صحبة عمر بن الخطاب .

قال معاذ : نعم . لقد صحب عمر بن الخطاب في هجرته إلينا هنا — في المدينة — فلما قدما إلى المدينة نزلا معاً في بني عمرو بن عوف بقباء ، ولكنه خرج في أثرهما أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، وكانا يقصدان العودة بعياش ، إذ لا قبل لهما بعمر بن الخطاب .

وكان عياش ابن عمهما ، وأخاهما لأمهما ، فاحتالا

عليه ، قالا له : عُدْ معنا يا عياش بِرّاً بأمك التي يكاد قلبها يتفتت حزناً عليك ، فقد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، وألا تستظل من وهج الشمس حتى تراك .

فرق لأمه ، ولم يستمع إلى نصيحة عمر بن الخطاب .

ـ قال أحد المستمعين : وبماذا نصحه عمر بن الخطاب ؟

ـ قال له : لا تستمع إليهما يا عياش ، فقد أرادا فتنتك عن دينك فاحذرهما فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو اشتد عليها الحر لاستظلت .

ـ ولكن عياشاً ، خشي على أمه ، وصدقهما فيما قالا ، ورغب أن يذهب ليحصل على ماله الذي تركه في مكة .

فلما رأى عمر بن الخطاب إصراره ، قال له ابق يا عياش وأنا أعطيك نصف مالي .

فلم يسمع عياش نصيحة عمر ، وأصر على العودة مع أخويه ، ليتفقد أمه ويعود مرة ثانية بماله .

فأعطاه عمر بن الخطاب ناقته ، وقال له :

ـ إن ناقتي هذه ذلول نجيبة ، عليك أن تلزم ظهرها ، فإن أحسست من أخويك الغدر بك ، فانج عليها .

ـ فلما خرجوا جميعاً ، وقطعوا بعض الطريق قال له أبو جهل :

تعضبني على ناقتك هذه فتركب بعض الوقت ، وأركب أنا الآخر بعض الوقت ؟

— قال عياش : بلى ، لا مانع لدي .

فلما نزل عياش عن ناقته عَدَوا عليه ، فأوثقاه رباطاً ، وقيَّدا يديه ثم دخلا به مكة وهو موثق ، فقالا لأهل مكة : هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا ..

وقد حُبِسَ عياش بن ربيعة ، ومعه هشام بن العاصي في بيت في مكة لا سقف له ، وظلا محبوسين حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فسمعه الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول : « من لي بعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاصي » ؟ !

لقد نزل بشأنهما عفو من الله — وكان قوم يقولون في حقهما — لن يقبل الله منهما صَرْفاً ولا عَدْلاً ولا توبة — قوم عرفوا الله ، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

لقد نزل فيهم قول الله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِين أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِم لَا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً ، وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » (١) .

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ — ٥٥ .

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة – حين سمع رغبة الرسول ﷺ في إنقاذ عياش : أنا أستطيع يا رسول الله أن أقوم بمهمة إنقاذه ، وإحضاره إليك .

– فأذن له رسول الله ﷺ أن يفعل .

– فانطلق الوليد إلى مكة مستخفياً ، وظل يتحسس الطريق إلى عيّاش حتى رأى امرأة تحمل طعاماً . فقال لها : أين تذهبين بهذا الطعام يا أمة الله ؟ قالت : أريد به هذين المحبوسين تعنيهما – فتبعها حتى عرف موضعهما . فلما كان الليل تسور البيت ونزل داخل الدار – فوجد كليهما مقيداً ، فأخذ حجارة دقيقة فوضعها تحت قيديهما ثم ضرب القيدين بسيفه فقطعهما ، ثم حملهما على بعيره وساق بهما . فعثر في الطريق فدميت إصبعه فقال لها :

هل أنتِ إلا إصْبَعٌ دميتِ ... وفي سبيلِ الله ما لقيتِ

ثم قدم بهما على رسول الله في المدينة .

* * *

صُهَيْبُ بن سِنَان :

لقد كانت قصص التعذيب التي تعرض لها المهاجرون من مكة تُروى في كلّ مكان فتزيد المسلمين في المدينة إصراراً على

أنصار الإسلام ، والقوة الأولى للإسلام ، ورائدة ذائقة في التضحية والإيثار .

وكان معاذ بن جبل راوية صادقاً يستمع إليه قومه ، ويقدرونه ، ويعجبون بحديثه ، وقوة بيانه ، وقدرته على التأثير .

قال لقومه ذات يوم : أما علمتم ما تعرض له صهيبُ بن سنان حين عزم على الهجرة ؟

— قالوا له : قُصَّ علينا قصته ، واروِ لنا بلاءه وعنته .

قال معاذ : حين عزم صهيب على الهجرة تعرض له كفار قريش وقالوا له : أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ ! ، والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي ؟

قالوا : نعم .

قال : فإني جعلت لكم مالي فخذوه .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ! ! ربح صهيب ! !

قال معاذ بن جبل : أرأيتم يا معشر الأنصار هذه التضحيات

في سبيل الله !! ليتنا نُمتحَن كما امتُحنوا ، ونضحي في سبيل الله كما ضحّوا ، حتى يتضاعف لنا الأجر من الله ، وتكتب لنا المغفرة . وينزل في حقنا قرآن كما نزل في حق صهيب قرآن . . هل تعلمون أنه نزل في شأنه قول الله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، واللهُ رَؤُوفٌ بالعِبَادِ »[1] .

وهكذا سار معاذ بن جبل يروي قصص المهاجرين ، الصابرين ، حتى ترامت الأخبار بأن الله سبحانه وتعالى قد أذن لنبيه بالهجرة من مكة إلى المدينة ، وأن هجرته قد أحيطت بالسرية والكتمان ، وأن عناية الله ورعايته أحاطت رسوله عليه السلام فلم يفلح تدبير المشركين ، ولم يخدعهم مكرهم ولم يستطيعوا إثناءه عن الهجرة ، كما لم يتمكنوا من قتله : وقد فضحهم الله تعالى وكشف لنبيه مكرهم فقال تعالى : « وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ أو يُخْرِجُوكَ ، ويَمْكُرُونَ ، ويَمْكُرُ اللهُ ، واللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ »[2] .

* * *

انتشر في المدينة خبر خروج النبي ﷺ من مكة فوقع هذا الخبر في نفس معاذ موقع الماء البارد من ذي الغلة المشرف على الهلاك ، وأضاءت نفسه ، وملأ السرور قلبه ، وخرج مع القوم

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٧ .

(٢) سورة الأنفال : ٣٠ .

معاذ إلى الأفق البعيد ، ومدّ بصره لعله يكتشف أثراً ، أو يلمح خيالاً ، ولكن النهار قد انقضى ، ولم يظهر في الأفق شيء فعاد معاذ إلى داره ، وهو يخشى على النبي ﷺ ، ويودّ لو يطوى الزمان والمكان لينعم برؤية الرسول الحبيب .

ومرّت الأيام بطيئة ، وفي كل يوم يخرج معاذ وأصحابه فينتظرون ما شاء لهم الانتظار ، تلسعهم الشمس المحرقة بسياطها ، وينال منهم الجهد والقلق والانتظار حتى أذن الله لنبيه ، وظهرت طلائع البشر والنور فدوّى صوت معاذ يعلن نبأ قدوم النبي وأصحابه ، ويزف البشرى إلى قومه ، ويردّد الأناشيد بمقدمه .. حتى كان النبي ﷺ على قيد خطوات منهم ، ولكنه لم ينزل عن ناقته ، وقال لأصحابه : اتركوها تنزل حيث تشاء فإنها مأمورة ، وكانت ناقته كلما مرّت بديار قبيلة من القبائل اعترضوا طريقها ليتشرفوا بجوار النبي ﷺ ، ولكن النبي يأمرهم أن يخلوا سبيلها ، وكان معاذ بن جبل قد اعترض طريقها عندما مرت بداره ، ولكنه أطاع أمر الرسول ﷺ ، وتركها ، وظلت الناقة تأخذ طريقها حتى بلغت دار مالك بن النجار ، فبركت على باب مسجده ﷺ وكان يومئذ مكاناً خالياً لغلامين يتيمين من بني النجار ، وكانا يلي أمرهما معاذ بن عفراء ، فلما بركت الناقة ، نهضت من جديد ، وظلت تروح وتجيء حتى عينت مكانها ، وأناخت بكلكلها ، نزل رسول الله ﷺ عنها ، وعوّض اليتيمين عن أرضهما ، وأمر

أن يبني مسجده في هذا المكان . وسارع المهاجرون والأنصار يعملون في بناء المسجد . وانطلق النبي عليه السلام يعمل بيده معهم ، حتى أثار ذلك نشاط المهاجرين والأنصار جميعاً وراح أحدهم يقول :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

وارتجز علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

وأقام النبي ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بنى له مسجده ومسكنه .

* * *

لم يفارق معاذ بن جبل رسول الله ﷺ ، عمل بجد في بناء مسجده . واجتهد في أن يستمع إليه ، ويحفظ كل آية تنزل عليه حتى صار حجة يرجع إليه في توثيق آيات القرآن . واستحق بذلك أن يقول فيه النبي ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمر :

« خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة » .

وأن يصلي كما يصلي رسول الله ، ويحرص على أن يفعل كما يفعل ، ويسلك في حياته كما يسلك ، وإنه ليجد في ذلك سعادة ومتعة لأنه يعلم أن ذلك كله من عند الله وشاع ذلك عنه حتى إنه كان يصلي مع النبي ﷺ ثم يذهب إلى قومه فيصلي بهم مرة ثانية — بهذا حدث شعبة عن حبيب عن ذكوان .

* * *

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

كان الأنصار مهيئين للبذل والتضحية بعد الذي رأوه من إخوانهم المهاجرين الذين تركوا ديارهم ، وأموالهم ، وأهليهم ، وآثروا الفرار بدينهم ، وبصحبة نبيهم .

وكان معاذ بن جبل وأمثاله قد ألهبوا مشاعر الأنصار ، وملأوا قلوبهم حماسة واستعداداً للبذل والتضحية كلما قصوا عليهم شيئاً من تضحيات المهاجرين البالغة .

فلما دعاهم النبي ﷺ إلى مؤاخاة المهاجرين على أن يؤاخي كل أخ من الأنصار أخاه من المهاجرين ، يساعده في السراء والضراء ، ويبذل كل منهما ماله وجهده في سبيل أخيه ، فإذا مات أحد الأخوين ورثه الآخر سعد الأنصار والمهاجرين بهذه المؤاخاة ، وأسرع كل واحد من الأنصار يوسع لأخيه المهاجر

في داره ، وفي ماله ، وفي كل ما يملكه ، حتى إنّ بعضهم اقتسم مع أخيه داره فجعلها قسمين ، للمهاجر النصف ، وله النصف بل إنّ بعضهم طلّق إحدى زوجتيه ليتزوجها أخوه المهاجر ....

لقد كانت أعظم مؤاخاة تمت في التاريخ ، لم يحدث مثلها حتى يومنا هذا أدت هذه المؤاخاة دورها في إصلاح حال كلٍّ من المهاجرين والأنصار ، وهيأت المهاجرين لاستئناف دورهم في الحياة ، فبذلوا جهودهم في العمل والتجارة والسعي في دروب الحياة المتشعبة ، وسوف يظل التاريخ يذكر هذه المؤاخاة كنموذج رائع للتعاون ، والتضحية والإيثار في سبيل المبدأ والعقيدة.

وقد آخى الرسول ﷺ بين معاذ بن جبل ، وبين جعفر بن أبي طالب الذي لقبه النبي ﷺ بذي الجناحين الطيار في الجنة ، وذلك حين قطعت ذراعاه يوم مؤتة ، فقال النبي ﷺ : « إن الله أبدله بهما ذراعين طار بهما إلى الجنة » .

وذُكر أن المؤاخاة لم تكن بين جعفر وبين معاذ ، لأن جعفر بن أبي طالب كان مهاجراً إلى الحبشة عندما تمت هذه المؤاخاة ، وظل بها سبع سنين ، أنجبت له امرأته أسماء بنت عميس بن النعمان في هذه الهجرة ، ابنه عبد الله بن جعفر فلم يكن لهذه المؤاخاة أثر في حياة كلٍّ منهما .

والراجح أنّ النبي ﷺ قد آخى بين معاذ بن جبل وعبد الله ابن مسعود ، وقد أدّت هذه المؤاخاة إلى سعي كل منهما في

تؤدي إلى رسول الله ﷺ دعا إلى أخذ القرآن منهما .

ظلت هذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار التي سجلها القرآن الكريم في سورة الأنفال في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »(١) .

حتى أدت هذه المؤاخاة هدفها ، وحققت التعاون الحق بين المهاجرين والأنصار .

فلما كان يوم أحد أصيب كعب بن مالك بجراح ، وكان الرسول قد آخى بينه وبين الزبير بن العوام ، فقال الزبير بن العوام : لو مات كعب ورثته ، فنزل قول الله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا »(٢) .

وكذلك قوله تعالى في سورة الأنفال : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ

---

(١) سورة الأنفال : ٧٢ .

(٢) سورة الأحزاب : ٦ .

شيء عليم »[1] .

فردت هذه الآيات المواريث إلى الأرحام ، والقرابات ، وانقطع الميراث بين المهاجرين والأنصار ، ولكن بقي التراحم ، والتعاطف ، والتوادّ ، وبقي ما بين معاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود من الودّ ، والإخاء ، والتعاون والتضحية على ما كان عليه ، وأشدّ مما كان عليه .

(١) سورة الأنفال : ٧٥ .

معاذ المجاهد

قال أبو نعيم في الحلية :

معاذ إمام الفقهاء ، وكنز العلماء

شهد العقبة ، وبدراً ، والمشاهد

وكان من أفضل شباب الأنصار

حلماً وحياء ، وسخاء .

بعد هذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار استتبَّ الأمن في المدينة ونسي الأوس والخزرج ما كان بينهما من أحقاد ، ووضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين إلى الأبد ، واتجهت ميولهم ونزعاتهم إلى الدِّين الجديد ، يتسابقون في حفظ آيات القرآن الكريم التي تنزل على النبي الأمين ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، والذي بدَّل مجتمع المدينة المتنافر المتباغض الذي كان يدب فيه الخصام والقتال إلى مجتمع الأمن والطهر والسلام ، لقد أصبح الأوس والخزرج إخواناً متحابِّين ، لم يعودوا يصغون إلى نذر الشر ، وأرباب الفتنة من اليهود ، الذين كانوا يلقون بينهم العداوة والبغضاء ، والذين كانوا حريصين على أن يستمروا بينهم بالفساد .. لقد انكشف أمرهم ، ونزل الوحي على محمد ﷺ بأخبارهم كلما أرادوا كيداً للمسلمين ، فحذرهم المسلمون ، ولم يطمئنوا إليهم ، وبخاصة لأنهم أخفوا حقيقة النبي ﷺ التي بشرت بها التوراة .

لقد ذهب معاذ بن جبل إلى نفر من أحبار اليهود ومعه بعض أصحابه ليسألوهم عن بعض ما في التوراة من حديث عن النبي

فالمعلوا أخبارًا عنهم وأتوا آل بخير وهم بشيء فأنزل الله على نبيه قوله تعالى : « إنَّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البيِّنات والهُدى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »(١) .

وقد حرص الرسول ﷺ على أن يوفر الأمن والطمأنينة في المجتمع الجديد فبعد أن أرسى الأخوة والمودة بين الأوس والخزرج ، وبعد هذه المؤاخاة التي أقامها بين المهاجرين والأنصار — عقد معاهدة بينه وبين يهود المدينة حتى يبعث في قلوبهم الأمن والطمأنينة ، فيكفوا عن مؤامراتهم ، ويقلعوا عن عاداتهم في السعي بالفرقة والوقيعة بين المسلمين .. وقد وقعوا هذه المعاهدة ، والتزموا بتنفيذ نصوصها ، كما التزم المسلمون — وكان في وسعهم أن يعيشوا سعداء آمنين في هذا المجتمع الذي ترفرف عليه راية العدل ، والسلام والأمن والاطمئنان ، ولكن طبيعتهم في الدس والوقيعة لم تفارقهم ، فأغمض النبي عينه عنهم حيناً حتى حدث منهم في مستقبل الأيام ما دعا النبي ﷺ إلى أن يوقع بهم ، ويستأصل شأفتهم بعد غزوة الأحزاب .

* * *

لم ينس النبي ﷺ التعذيب النفسي والجسدي الذي حل بالمسلمين ، كما لم ينس المسلمون ذلك ، فقد اضطهدتهم

---

(١) سورة البقرة : ١٥٩ .

قريش ، وعذبتهم لتفتنهم عن دينهم ، وتخرجهم من بلادهم ، فكانوا بين مفتون في دينه ، وبين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً منهم بأرض الحبشة ، والمدينة ، وفي كل وجه — فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه ﷺ ، وعذبوا ، ونفوا من عبده ووحده ، وصدق نبيه واعتصم بدينه أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال والانتصاف ممن ظلمهم ، وبغى عليهم ، فكانت أول آية نزلت في إباحة القتال قول الله تعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ ، وَصَلَوَاتٌ ، وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ »[1] .

* * *

كانت هذه أول الآيات التي أذنت للنبي ﷺ في قتال المشركين الذين حاولوا فتنة المسلمين عن دينهم ، وآذوهم هذا

(١) سورة الحج : ٣٩ — ٤١ .

المدينة ...

ولم يقف أذى قريش عن المسلمين بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه ، وبذلوا كل جهد في إلحاق الأذى بالنبي وقومه .. ولذلك كان لا بد من مواجهة القوة بالقوة ، وتقليم أظافر الشرك ، فلما استقر بجمع المدينة فكر النبي ﷺ في التعرض لتجارة قريش الذاهبة إلى الشام ، وأعد المسلمين للحرب والقتال ، ففي هذه الفترة من هجرته ﷺ إلى غزوة بدر — وكانت قرابة تسعة عشر شهراً عبأ نفوس أصحابه للحرب والقتال ، وأرسل دوريات عسكرية لاستكشاف الأمكنة المحيطة بالمدينة ، والتعرف على الطرق المحيطة بها ، والمسالك التي تسير فيها القوافل الذاهبة إلى مكة والعائدة منها ، كما حرص النبي ﷺ على موادعة القبائل المحيطة بالمدينة وعقد المعاهدات معهم .. وقبل معركة بدر بقليل أرسل النبي عليه السلام بعثة استطلاعية بقيادة عبد الله بن جحش ، في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، وأمرها أن تتحسس أخبار قريش ، وتترصد لذلك بين مكة والطائف ، ولم يأمرهم بالقتال .

وفي مكان يقال له « نخلة » التقت هذه البعثة بقافلة لقريش تحمل بضائع إلى مكة فأوقعت بها بعد أن قتلت أحد رجالها وهو « عمرو بن الحضرمي » وأسرت اثنين منهم ، ثم عادت إلى المدينة .

وعندما بلغ الرسول ﷺ خبر هذا الحادث غضب للقتل والمصادرة لأنه وقع في شهر رجب وهو من الأشهر الحُرُم . وقد استغلت قريش هذا الحادث فقامت بحملة تشنيع على المسلمين لأنهم انتهكوا حرمة الأشهر الحرم التي أجمعت فيها قبائل العرب على تحريم القتال .

ولم يسلم رجال هذه البعثة من ورطتهم إلاّ بعد نزول الوحي بإباحة القتال في أي وقت كان ، فقد أقرّ القرآن عبد الله ابن جحش على عمله ، ونزل قول الله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه ، قل قتالٌ فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل »(١) .

أحسّ المشركون في مكة بالخطر يتهدّدهم من محمد وأصحابه ، وخافوا على تجارتهم الذاهبة إلى الشام ، والعائدة منها ، ولهذا لم يتركوا فرصة تمرّ بهم للإساءة إلى محمد وأصحابه إلاّ اهتبلوها . وكذلك كان الشأن بين المسلمين ، لقد تربصوا لتجارة قريش ، وها هي ذي الفرصة تلوح للمسلمين ... حين عاد أبو سفيان من الشام بتجارة كبيرة ، فخرج النبي عليه السلام للاستيلاء على قافلته ، ولكنّ أبا سفيان كان شديد الحذر ، فسلك طريقاً غير مألوف بتجارته بعد أن علم بخروج النبي عليه السلام وأصحابه ولم يقف عند ذلك الحد بل أرسل إلى

(١) البقرة : ٢١٦ .

أبت أن ترجع حتى ترد ماء بدر ، وتقيم بها ثلاثة أيام تنحر الجزر ، وتطعم الطعام ، وتشرب الخمر ، وتسمع عزف القيان .. وأبى أبو جهل أن يعود بمن معه في سلام ، وصمم على أن يتحدّى مشاعر الأنصار والمهاجرين ، ويؤكد لهم أن قريشاً لن تسكت إذا تعرّض أحدٌ لتجارتها .

كان النبي ﷺ قد خرج في عدد قليل من أصحابه ، إذ لم يتوقع أن تنهض قريش عن بكرة أبيها على هذا النحو .. وكان بين أمرين إمّا أن يتعرّض لهذا العدد الكثير الذي جاء يتحدّى الإسلام والمسلمين في عقر دارهم ، وبين أن يتركه ويعود سالماً ما دام لم يتمكن من الاستيلاء على التجارة .

ولهذا عقد مجلساً يشبه مجلس الحرب الآن ليستشير أصحابه ، ويستمع إلى آرائهم ..

وتحدّث المهاجرون : فصمموا على لقاء قريش والاشتباك معهم وأعلن ذلك بوضوح المقداد بن عمرو حيث وقف خطيباً وقـــال :

يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » [1] .

---

(١) سورة المائدة : ٢٤ .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد [1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له الرسول خيراً .

ولكن الرسول كان يهمه أن يعرف رأي الأنصار ، فقال لهم : أشيروا علي أيها الناس – يقصد الأنصار – .

فنهض سعد بن معاذ فقال : « يا رسول الله ! لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت . فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منّا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إننا لَصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ في اللقاء ، ولعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

* * *

وكان معاذ بن جبل شديد الحماسة ، شديد اليقظة ، يحمل السلاح بيده ، ويثير نشاط المسلمين بلسانه ، ويذكرهم بقول الرسول ﷺ في فضل الجهاد : « طوبى لمن أكثر في الجهاد في سبيل الله من ذكر الله تعالى : فإنّ له بكل كلمة سبعين ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف مع الذي له عند الله من المزيد .

(1) برك الغماد : يقال إنه أقصى معمور في الأرض .

قال : النفقة على قدر ذلك .

قال عبد الرحمن : فقلت لمعاذ رضي الله عنهما : إنما النفقة بسبعمائة ضعف . فقال معاذ : قلّ فهمك . إنما ذلك إذا أنفقوها وهم مقيمون بين أهليهم غير غزاة ، فإذا غزوا وأنفقوا خبأ الله لهم من خزانة رحمته ما ينقطع عنه علم العباد وصفتهم ، فأولئك حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون » [1] .

• • •

عزم النبي ﷺ وأصحابه على لقاء هؤلاء المشركين ، فلما جن الليل ، وألقى ظلالته السوداء على الليالي والبقاع بعث رسول الله ﷺ عيونه ليلتمسوا أخبار المشركين ، وكان هؤلاء العيون من أشد المسلمين حذراً ، وحرصاً ، ويكفي أن تعرف أنهم : علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، فذهبوا في حذر صوب ماء بدر فوجدوا ساقيين فقبضوا عليهما ، وعادوا بهما إلى النبي ﷺ فوجدوه يصلي ، فسألوهما :

— لمن تسقون ؟

(١) أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل . (حياة الصحابة) جـ١ محمد يوسف الكاندهلوي ص٥٠٧ مكتبة السعادة بمصر .

– فقالا : نحن سقاة لقريش ، بعثونا نحضر لهم الماء ليشربوا .

– كذبتما .

– لم نكذب ، ولقد صدقناكم القول .

– بل أنتما ساقيان لأبي سفيان .

– لا . نحن سقاة قريش .

– فضربوهما وأوجعوهما ، فصاحا :

– نحن سقاة أبي سفيان ، نحن سقاة أبي سفيان .

– فتركوهما ، وأيقنوا أن عير قريش وتجارتهم أصبحت قريبة منهم .

– فلما أتم النبي ﷺ صلاته قال :

– إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما . صدقا والله إنهما لقريش .

وأقبل رسول الله عليهما فسألهما عن مكان قريش .

فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى .

فقال لهما رسول الله ﷺ : كم القوم ؟

قالا : كثير .

قالا : لا ندري .

قال : كم ينحرون كل يوم ؟

قالا : يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً .

فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة والألف ، وعرف منهما عدداً من أشراف قريش .

ثم أقبل الرسول على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها . ومرت الساعات مسرعة ، وأخذ كل فريق مكانه أمام الفريق الآخر ، فارتفع صوت النبي ﷺ قائلاً : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك ، وتكذب رسولك ، اللهم نصرك الذي وعدتني » .

— « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .

— وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول للنبي : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ، وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في عريشه ، ثم انتبه فقال :

— أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثنايا النقع (١) .

وكانت وقعة بدر هذه يوم الجمعة صبيحة السابع عشر من

(١) النقع : الغبار .

شهر رمضان ، وبدأت بالمبارزة ، فخرج من صفوف المشركين : عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ..

وصاحوا : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فنادى النبي ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة وقم يا علي . وقد نادى النبيُّ أول ما نادى على هؤلاء الثلاثة وهم جميعاً من بني هاشم حتى لا يظن أحدٌ أنه يضن بقرابته على الموت .

- وبارز حمزةُ شيبةَ بن ربيعة فلم يمهله ، وقضى عليه في أول لقاء .

وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبة فلم يمهله ، وقضى عليه .

وتصاول عبيدة وعتبة حتى نال كل منهما الآخر ، ولكن حمزة وعلياً لم يمهلا عتبة فانقضا عليه بسيفيهما فقضيا عليه .

ثم تزاحف المحاربون من الفريقين ، ودنا بعضهم من بعض ، واشتقت الأسنة ، وتلاقت السيوف ، وراح معاذ بن جبل في وسط المعركة يفتح له طريقاً بسيفه بين الجموع المتلاحمة ، وكان ابن عشرين سنة أو واحد وعشرين ، فكان أثبت قدماً ، وأصلب عوداً ، وأشدّ دراية باستعمال سيفه ، وأكثر خبرة في الرمي بالقوس .. وأبلى في بدر بلاءً حسناً ، وأسفرت هذه المعركة عن تحقيق وعد الله لنبيه ، فانتصر المسلمون نصراً مؤزراً .

[illegible] في المعركة ،
فسقط صناديد قريش صرعى ، وحاول الباقون النجاة من سيوف المسلمين فولّوا الأدبار . وترك المشركون وراءهم كثيراً من الغنائم والأسلاب ، وكاد المسلمون يختلفون في أمر الغنائم ، لينزل أمر السماء بالقسمة العادلة ، فنزل قول الله تعالى : « واعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فأن لله خمسه وللرّسول ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل[1] » .

فردّ كلّ مسلم ما أخذه إلى النبي ﷺ ، ورضي به حكماً ..

• • •

انطلق معاذ بن جبل من غزوة بدر سعيداً بهذا النصر العظيم الذي ثبتت به أركان الدين الجديد . وظلّ على صحبته لنبيه وحبيبه ، يجدّ في حفظ آيات القرآن الكريم ، ويحرص على أن يكون معه في كل غزواته ووقائعه ، شهد أحداً ، والخندق ، والمشاهد كلها مع الرسول ﷺ . وأبلى فيها جميعها البلاء الحسن .

ولزم صحبة النبي ﷺ ، يروي ما يسمعه منه من الأحاديث ، يذيعها بين قومه وآله ، ويحفظ آيات القرآن فور نزولها ، ويفتي الناس فيما خفي عليهم من أمور دينهم ، حتى

---

(١) سورة الأنفال : ٤١ .

كان جديراً بالمكانة التي انتدبه لها رسول الله ﷺ في بلاد اليمن ليعلم الناس أمور دينهم ، ويقضي بينهم في حياتهم .. ومن أولى منه بهذه المكانة ، وقد قال فيه الرسول ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة » .

وروى سهل بن أبي خيثمة عن أبيه قال : كان الذين يُفتون على عهد رسول الله ﷺ من المهاجرين : عمر وعثمان وعلي ، وثلاثة من الأنصار : أُبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت » .

قسم معاذ في اليمن :

معاذ في اليمن

قال رسول الله ﷺ :

أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ابن جبل .

عني رسول الله ﷺ بالقبائل التي أقبلت على الإسلام من خارج المدينة ، واهتم اهتماماً كبيراً بتعليمهم قواعد الدين الإسلامي وآدابه ، ليستخير لهم من بين أصحابه من وجده قادراً على هذه المهمة الخطيرة ، انتدب من بين أصحابه أفقههم في الدين ، وأقدرهم على الفتيا ، وأعلمهم بالحلال والحرام . وكان معاذ بن جبل من بين الصحابة الذين تتوافر فيه هذه الصفات .

فلما جاءت رسل ملوك اليمن إلى رسول الله ﷺ تعلن إسلامها ، وإسلام من ناهز وراءها ، وتسأله أن يبعث معها من أصحابه من يعلمهم أمور دينهم ، ويقضي بينهم بما أنزل الله انتدب لهذه المهمة خمسة رجال من أصحابه هم : خالد بن سعيد ولاّه على صنعاء ، والمهاجر بن أمية ولاّه على كندة ، وزياد بن لبيد ولاّه على حضرموت ، ومعاذ بن جبل على الجند وجمع الصدقات من العمال الذين باليمن ، وأبو موسى الأشعري على زبيد ، وزمعة ، وعدن والساحل .

ولم يعيّن رسول الله ﷺ معاذ بن جبل في هذه المهمة الخطيرة إلاّ بعد أن تأكد من قدرته ، وحسن تصرفه . فاختبره

فقال له ﷺ :

- بم تقضي يا معاذ إن عرض لك قضاء ؟

- قال : أقضي بما في كتاب الله .

- قال ﷺ : فإن لم يكن في كتاب الله ؟

- قال : أقضي بما قضى به الرسول .

- قال : فإن لم يكن فيما قضى به الرسول ؟

- قال : قلت أجتهد رأيي ولا آلو (أي لا أقصر) .

- قال : فضرب رسول الله ﷺ صدري وقال : الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله .

وهكذا اطمأن رسول الله إلى قضائه ، وأن في استطاعته أن يلي هذا المنصب الخطير الذي يقيم العدالة بين الناس .

ولكن ثمة سبب مباشر آخر من الأسباب أدّى إلى اختيار معاذ في هذه البعثة فقد كان معاذ كريماً ينفق ماله بسخاء في سبيل الله حتى أدّى ذلك إلى أن يستدين من بعض المسلمين ، وتكاثرت عليه الديون ، ولم يقدر على السداد .

روى جابر بن عبد الله قصته فقال :

كان معاذ بن جبل رحمه الله من أحسن الناس وجهاً ،

وأحسنهم خلقاً ، وأسمحهم كفاً ، فادّان ديناً كثيراً . فلزمه غرماؤه ، وألحوا في طلب ما عليه من دين ، فاختفى منهم وتغيب في بيته أياماً ، فذهب غرماؤه إلى رسول الله ﷺ ، وطلبوا منه أن يحضر معاذاً ليأخذ لهم حقه منه .

فأرسل إليه رسول الله من أحضره .

فقال غرماؤه لرسول الله : خذ لنا حقنا منه .

وكان الرسول ﷺ أعلم بحاله .

فقال : رحم الله من تصدّق عليه .

فتصدّق عليه ناس وأبى آخرون .

فقالوا : يا رسول الله خذ لنا حقنا منه .

فقال رسول الله : اصبر لهم يا معاذ .

ثم لم يجد رسول الله بدّاً من أن يخلع معاذاً من ماله ، ودفعه إلى غرمائه فاقتسموه بينهم ، فأصابهم خمسة أسباع حقوقهم ، ولم يجد عنده شيئاً آخر فقالوا : يا رسول الله بعه لنا .

فقال لهم : خلّوا عنه فليس لكم إليه سبيل .

فانصرف معاذ إلى بني سلمة فقال له قائل منهم :

يا أبا عبد الرحمن لو سألت رسول الله ﷺ ، فقد أصبحت اليوم معدماً .

قال جابر : فمكث يوماً ثم دعاه رسول الله ﷺ فبعثه إلى اليمن وقال له : اذهب إلى اليمن لعل الله يجبرك ، ويؤدي عنك دينك .

وخرج النبي ﷺ يودّع معاذاً وأصحابه .. وطفق عليه السلام يمشي تحت راحلته ، ومعاذ راكب ...

وأطال الرسول الكريم مشيه معه حتى لكأنه يتمنى منه ثم أوصاه فقال له : حفظك الله من بين يديك ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، ومن فوقك ، ومن تحتك ، ودرأ عنك شرور الإنس والجن (١) .

ثم كان آخر ما أوصاه به الرسول الكريم : « أحسن خلقك مع الناس يا معاذ » .

وقد كتب الرسول الكريم إلى أهل اليمن : « إني قد بعثت عليكم من خير أهلي ، والي علمهم ، والي دينهم » .

وقال عليه السلام له : يا معاذ إنك عسى ألاّ تلقاني بعد عامي هذا ... ولعلك أن تمرّ بمسجدي وقبري ..

كان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة .

فبكى معاذ جزعاً لفراق نبيه وحبيبه محمد صلوات الله

---

(١) هذا الحديث ذكره سيف في الفتوح بسند له عن عبيد بن صخر .

عليه ، ويبكي بعده المسلمون .

* * *

وصدق ما خبَّر به نبيُّ الله ، فقد حُرِم معاذ من هذه الساعة رؤية نبيِّه وحبيبه ، حيث قد فارق الحياة وهو في اليمن ، وبكى معاذٌ ما شاء الله أن يبكي حين وصله النبأ الأليم .

في عهد أبي بكر :

ظل معاذ يلي أمر اليمن بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى في عهد أبي بكر ، حتى حسنت حاله وكثُر ماله ، وذهب يؤدي فريضة الحج ، وكان عمر بن الخطاب عامئذٍ أميراً على الحج ، فرأى معاذ بن جبل ومعه رقيقٌ له ووصفاء .

فقال عمر : لِمَنْ هؤلاء العبيد والوصفاء يا أبا عبد الرحمن ؟

قال معاذ : هم لي .

قال عمر : من أين هم لك ؟

قال معاذ : اهدوا لي .

قال عمر : أطعني وأرسل بهم إلى أبي بكر ، فإن طيَّبهم لك فهم لك .

أرسل بهم إلى أبي بكر ؟!!

ثم بات ليلته فلما أصبح الصباح قال يا بن الخطاب :

— ما أراني إلاّ مطيعك ، إني رأيت الليلة في المنام كأني أجَرُّ إلى النار وأنت آخذ بحجزتي . تمنعني من الدخول إليها .

— ثم انطلق بما معه إلى أبي بكر . وأطلعه على كل شيء .

— فقال أبو بكر : أنت أحق بهم . هم لك .

— فانطلق بهم إلى أهله ، فصف العبيد خلفه وصلّى بهم ، فلما انصرف من الصلاة قال لهم : لمن تُصلّون ؟

قالوا : لله تبارك وتعالى .

قال : فانطلقوا فأنتم له . (وأعتقهم لله) .

وفي رواية أخرى :

أن عمر بن الخطاب حين رأى معاذ بن جبل قد كثر ماله بعد موت الرسول ﷺ . ذهب إلى أبي بكر فقال له :

— يا أبا بكر : أرسل إلى هذا الرجل فدع له ما يعيشه ، وخذ سائره منه .

— فقال أبو بكر : إنما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن ليجبره من

دينه ، ولست بآخذ منه شيئاً إلاّ أن يعطيني .

– فانطلق عمر إليه إذ لم يطعه أبو بكر ؛ فذكر ذلك لمعاذ .

– فقال معاذ : إنما أرسلني النبي ﷺ إلى اليمن ليجبرني ، ولست بفاعل .

وفي اليوم التالي : أتى معاذ عمر فقال له : قد أطعتك ، وأنا فاعل ما أمرتني به ، فإنّي رأيت في المنام أني في حومة ماء ، قد خشيت الغرق فخلّصتني منه يا عمر .

فأتى معاذ أبا بكر ، فذكر ذلك له ، وحلف أنه لا يكتمه شيئاً .

فقال أبو بكر : لا آخذ منك شيئاً ، قد وهبته لك .

فقال عمر : هذا المال قد حلّ لك الآن وطاب .

* * *

وكان معاذ معلّماً حكيما :

كان يعظ الناس وعظاً رقيقاً ، ويعلمهم أمور دينهم في رفق ولين .

روى أنه صلّى بالناس يوماً ، وكان يشتكي وجعاً ألمّ برجله ، فبسط رجله حين جلس للتشهد ، فبسط القوم

[illegible] في [illegible] المسجد ، ولا أن تمدوا إلى بسط أرجلكم ، فإني إنما بسطت رجلي في الصلاة لأنني أشتكيها »..

وهكذا كان معاذ مربياً حكيماً ، أثنى على القوم أولاً تشجيعاً لهم ، ثم بيّن لهم خطأهم بعد ذلك .

وظل معاذ باليمن حتى ولي عمر بن الخطاب بعد الصديق ، فأمره بالذهاب إلى الشام ليعين أبا عبيدة في شئونه ، ويكون يداً له في أموره ، ولساناً مبيناً فيما يعرض له ، وأطاع معاذ أمر عمر ، وتوجه إلى صديقه وحبيبه أمين الأمة ، أبي عبيدة ابن الجراح . فإلى الشام لنرى ماذا جرى على يديه ، وماذا جرى له .

مع أمين الأمة

قال معاذ في رثاء أبي عبيدة :

أيها الناس : قد فجعتم برجلٍ ما أزعم أني رأيت عبداً أبرّ صدراً ، ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشدّ حبّاً للعامة ، ولا أنصح منه ، فترحموا عليه .

لم يكد يتلقى معاذ أمر عمر بالتوجه إلى الشام ليكون مع أبي عبيدة حتى أسرع بالذهاب إليه ، فأبو عبيدة أمين الأمة كما لقبه بذلك رسول الله ﷺ ، وهو الذي أسهم في إخماد الفتنة يوم السقيفة بعد موت النبي ﷺ ، وأسرع بمبايعة الصديق ، وقال للناس : بايعوا أيها الناس ، فأقبلوا بعده مبايعين .

وكان أبو عبيدة من أكثر الصحابة اتباعاً لرسول الله ، وقد آثر أن يخرج من الدنيا كما جاء إليها .

فقد روى أن الروم بعثوا إلى أبي عبيدة بن الجراح يطلبون منه أن يبعثوا إليه رجلاً منهم يعرض عليه الصلح ، فجاء الرجل فوجده جالساً في وسط القوم ، عليه درعه ، وهو ممسك بفرسه ، وبيده سهام يقلبها ، وهو جالس على الأرض .

فقال له : أنت أمير هؤلاء القوم ؟

قال : نعم .

قال : ما يجلسك على الأرض ؟

أن لو أجلستهما على وسادة ، أو كان تحتك بساط أكان ذلك يضحك عند الله ؟ أو هل يبعدك عن الإحسان ؟

فرد عليه أبو عبيدة قائلاً : إن الله لا يستحي من الحق لأصدقنك ، لقد أصبحت لا أملك إلا سيفي ، وفرسي ، وسلاحي ، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فاقترضت من أخي هذا شيئاً ، وأشار إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه وكان عنده شيء فاقترضته منه . ولو كان عندي بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه ، وأجليس أخي معاذاً على الأرض ، ولعله خير مني منزلة عند الله عز وجل .

وهكذا عرف أبو عبيدة لصاحبه فضله ومكانته ، وعرف معاذ لأبي عبيدة فضله ومكانته .

طاعون عمواس :

ظل معاذ بن جبل ملازماً لأبي عبيدة حتى كان طاعون عمواس ، وعمواس قرية بين الرملة وبيت المقدس — وقد أصيب أبو عبيدة في هذا الطاعون فقام عمرو بن العاص فقال : تفرقوا عنه أيها القوم ، فإنما هو بمنزلة نار . فقام معاذ بن جبل فقال : لقد كنت فينا ولأنت أضلُّ من حمار أهلك ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هو رحمةٌ لهذه الأمة » . اللهم فاذكر معاذاً ، وآل معاذ فيمن تذكره بهذه الرحمة .

ولا شك أن النبي بهذا القول يحث الناس على الرضا بالقضاء ، والصبر عند البلاء ، فذلك أدعى إلى الرحمة ، وإجزال الثواب .

ولما اشتد الوجع بأبي عبيدة استخلف معاذاً ، فقال الناس له : ادع الله يرفع عنا هذا الرجز .

قال : إنه ليس برجز ، ولكنه دعوة نبيكم ﷺ ، وموت الصالحين قبلكم ، وشهادة يختص الله بها من يشاء منكم .

أيها الناس : أربع خلال من استطاع ألا يدركه شيء منهن فلا يدركه :

قالوا : وما هي ؟

قال : يأتي زمان يظهر فيه الباطل ، ويصبح الرجل على دين ويمسي على آخر . ويقول الرجل : والله ما أدري على ما أنا ! لا يعيش على بصيرة ، ولا يموت على بصيرة ، ويُعْطَى الرجلُ المالَ من مال الله على أن يتكلم بكلام الزور الذي يسخط الله .

اللهم آت آل معاذ نصيبهم الأوفى من هذه الرحمة .

فأصيب ابناه . فقال : كيف تجدانكما ؟

قالا : يا أبانا : « الحقُّ من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين (1) » .

---

(1) سورة البقرة : ١٤٧ .

قال : « إنك ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

ثم طعنت امرأتاه فهلكتا . وطعن هو في إبهامه فجعل يمسها بفيه ويقول : « اللهم إنها صغيرة ، فبارك فيها ، فإنك تبارك في الصغير .... » .

وعن داود بن الحصين : أنه بلغه حين وقع الوجع عام عمواس ، قال أصحاب معاذ :

– هذا رجز قد وقع .

– فقال معاذ : أتجعلون رحمة رحم الله بها عباده كعذاب عذّب الله به قوماً سخط عليهم ؟

إنما هو رحمة خصكم الله بها ، وشهادة خصكم الله بها ، اللهم أدخل على معاذ وأهل بيته من هذه الرحمة . من استطاع منكم أن يموت فليمت من قبل فتن ستكون . من قبل أن يكفر المرء بعد إسلامه ، أو يقتل نفساً بغير حلّها ، أو يظاهر أهلَ البغي ، أو يقول الرجل ما أدري على ما أنا ؟ إنْ متُّ أو عشتُ أعلى حقٍّ أو على باطل .

معاذ يرثي أبا عبيدة :

لما اشتد الوجع بأبي عبيدة استخلف معاذاً ليصلي بالناس ، ويتعهد أمورهم ، فظل معاذ يلي أمر الناس ويصلي بهم ، حتى

انتقل أبو عبيدة إلى جوار ربه . فخطب معاذ الناس فقال :

أيها الناس : توبوا إلى الله من ذنوبكم ، فأيما عبد يلقى الله تعالى تائباً من ذنبه كان على الله حقاً أن يغفر له ، ومن كان عليه دين فليقضه ، فإن العبد مرتهن بدينه .

ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فليصالحه ، ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام .

أيها المسلمون : قد فجعتم برجل ما أزعم أني رأيت عبداً أبرّ صدراً ، ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشدّ حباً للعامة ، ولا أنصح منه .

فترحموا عليه ، واحضروا الصلاة عليه .

وصلى معاذ على أبي عبيدة ، ونزل في قبره ببيسان هو وعمرو بن العاص والضحاك بن قيس .

ولاية لم تطل

قال عبد الرزّاق :

كان معاذ شاباً جميلاً ، سمحاً ، لا يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه .

لما ولي عمر بن الخطاب الخلافة أرسل معاذاً إلى بني كلاب ليقسم فيهم أعطياتهم ، ويوزع الصدقات على فقرائهم ، بعد أن يجمعها من أغنيائهم فقام معاذ بما عهد إليه ، وعاد إلى زوجه صِفْرَ اليدين ، خالي الوفاض ، باديَ الإنفاض ، ليس معه إلا حِلْسُهُ الذي خرج به يلفه على رقبته ، فقالت له امرأته : أين ما عدت به من هدايا لامرأتك ؟!

فقال لها : لقد كان معي رقيب يقظ يحصي عليّ .

فقالت : قد كنت أميناً عند رسول الله ، وأبي بكر ، ثم جاء عمر فبعث معك رقيباً يحصي عليك ؟!

وأشاعت ذلك في نسوة عمر ، واشتكته لهن .

فبلغ ذلك عمر ، فدعا معاذاً وقال :

ـ أأنا بعثت معك رقيباً يحصي عليك يا معاذ ؟!

ـ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنني لم أجد شيئاً أعتذر به إليها إلاّ ذلك .

الأرض ولا في السماء !!

فضحك عمر ، وأعطاه شيئاً ، وقال له :

أرضها به .

أما كيف ذهب إلى الشام وكيف أصبح والياً عليها ، فيرجع ذلك إلى أن يزيد بن أبي سفيان حين كان والياً على الشام أرسل إلى الفاروق يقول له :

– يا أمير المؤمنين : إنّ أهل الشام قد كثروا ، وملأوا المدن ، وهم في حاجة إلى من يعلمهم القرآن ، ويفقههم في الدّين ، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم .

فدعا عمر الذين جمعوا القرآن في عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام ، وهم : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبو أيوب الأنصاري ، وأبيّ بن كعب ، وأبو الدّرداء ، وقال لهم :

« إنّ إخوانكم من أهل الشام قد طلبوا إليّ أن أبعث إليهم من يعلمهم القرآن ، ويفقههم في الدين فأعينوني – رحمكم الله – بثلاثة منكم ، فإن أحببتم فاقترعوا ، وإلاّ انتدبت ثلاثة منكم .

فقالوا : ولِمَ نقترع ؟!

أما أبو أيوب فشيخ طاعن في السن ، وأما أُبيٌّ فرجل مريض ، فلم يبق إلا نحن الثلاثة .

فقال عمر : ابدأوا بحمص فإذا رضيتم حال أهلها فاتركوا أحدكم فيها ، وليذهب واحدٌ منكم إلى دمشق والآخر إلى فلسطين .

فقام الثلاثة بما أمرهم به الفاروق ، فبقي عبادة بن الصامت في حمص ، وذهب أبو الدرداء إلى دمشق ، ومضى معاذ بن جبل إلى فلسطين .

وهناك التقى بحبيبه أبي عبيدة ، ولازمه حتى لقي ربه في طاعون « عمواس » ، فصدر أمر الخليفة بأن يلي معاذ مكان أبي عبيدة .

* * *

لم يسلم كثير من المسلمين من طاعون عمواس ، وكان معاذ قد طلب من ربه أن يدخل على معاذ وأهل بيته من هذه الرَّحمة ، فاستجاب الله دعاءه ، فمات به ابناه ، وزوجتاه ، وأصيب معاذ به في إصبعه وحلقه .

وفاته :

عن الحارث بن عميرة الزبيدي قال :

كنت جالساً عند معاذ بن جبل وهو يموت فيغمى عليه

فوعزتك إنّي لأحبك وفي رواية أخرى كان يقول :

يا ربِّ إنك لتخنقني ، وإنك لتعلم أنّي أحبك ! !

وقال عمرو بن قيس :

إنّ معاذاً حين حضره الموت قال :

انظروا أصبحنا ؟

فقيل له : لم تصبح .

فلما أتاه ثالثة قال : أصبحنا ؟

ثم قال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ، مرحباً بالموت مرحبا ، زائر حبيب ، جاء على فاقة .

اللهم تعلم أني كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك . إني لم أكن أحب الدنيا ، وطول البقاء فيها لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة السّاعات ، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حلق الذكر .

* * *

وقال الحسن :

لما حضر معاذاً الموت جعل يبكي .

فقيل له : أتبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ !!!
وأنت أنت !!

فقال : ما أبكي جزعاً من الموت أنْ حلّ بي ، ولا لدُنْيا تركتها بعدي ، ولكن إنما هي القبضتان ، فلا أدري من أيِّ القبضتين أنا ؟

ولم تمض عليه أيام حتى فاضت روحه إلى بارئها ... رحم الله معاذاً فقد كان أمةً قانتاً لله ، شديد الصلة به ، يكثر القيام ، والتهجد بالليل ، روى ثور بن يزيد قال :

كان معاذ إذا تهجد من الليل قال :

« اللهم نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت حيٌّ قيوم .

اللهم طلبي الجنة بطيء ، وهربي من النار ضعيف .

اللهم اجعل لي عندك هدىً تردّه إليَّ يوم القيامة .

إنك لا تخلف الميعاد »

واختلف في تحديد وفاته :

فقيل توفي سنة ثماني عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة .

وقال سعيد بن المسيب : رفع عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، ومات معاذ رحمه الله وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

وقيل كان عمره ثمانٍ وعشرين سنة ، وهذا بعيد فإنه شهد العقبة وهي قبل الهجرة وكان عمره ثماني عشرة سنة ،

[illegible] بعد وفاة النبي ثماني سنوات ، فيكون على هذا قد توفي وهو ابن ست وثلاثين سنة .

وقد استعمل عمر بن الخطاب موضعه عمرو بن العاص .

رحم الله معاذاً ، لقد قال فيه عمر بن الخطاب حين وفاته :

لو أدركت معاذ بن جبل فاستخلفته فسألني ربي عنه لقلت يا ربي : لقد سمعت نبيك يقول : « إن العلماء إذا اجتمعوا يوم القيامة ، كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة حجر » .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم المؤلف	٥
بين يدي هذا الكتاب	٧
النشأة والمولد	١٣
بداية الطريق	١٧
معاذ في العقبة الثالثة	٢٩
الهجرة والمؤاخاة	٤١
معاذ المجاهد	٦١
معاذ في اليمن	٧٧
مع أمين الأمة	٨٧
ولاية لم تكتمل	٩٥
وفاته	٩٩